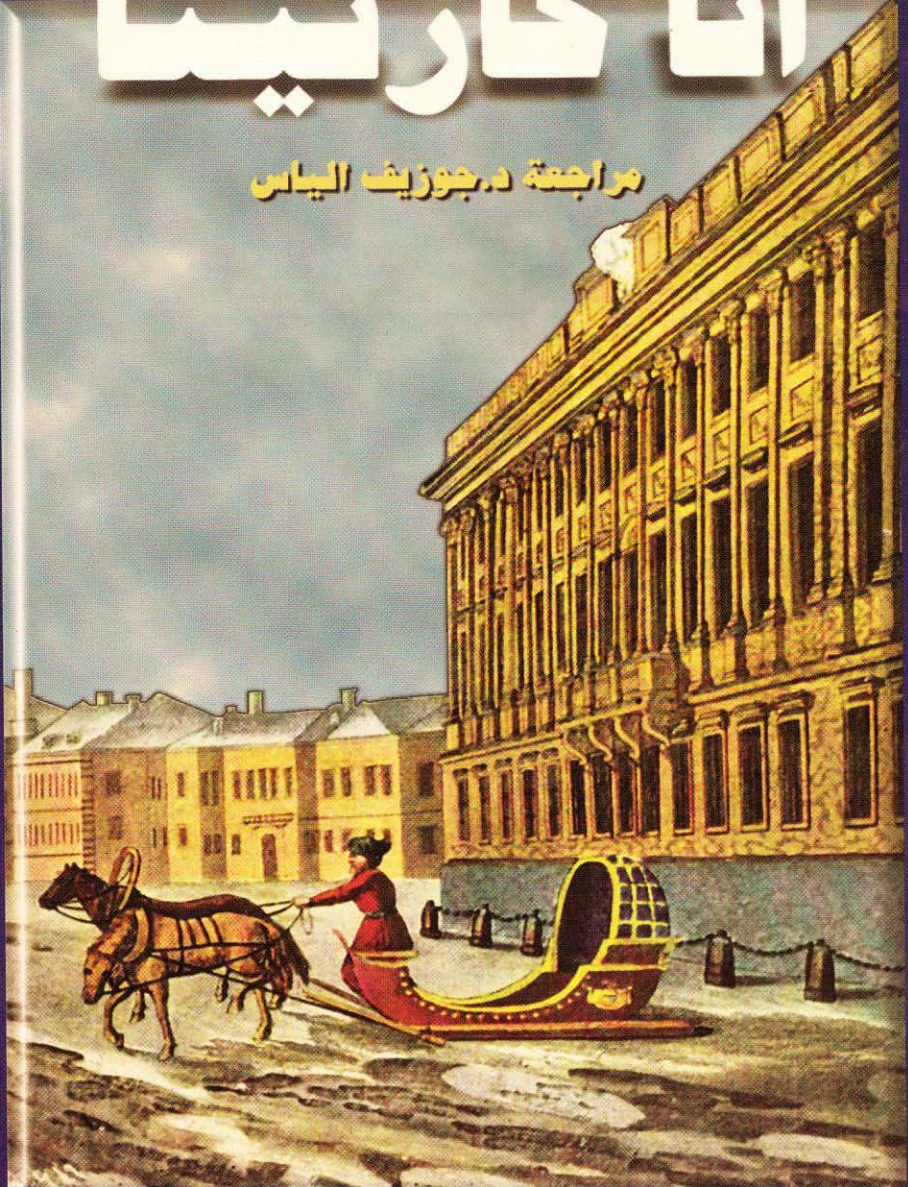


ليون تولستوي

ترجمة إميل بيدس

أنا كارينينا

مراجعة د. جوزيف الياس



www.alexandra.ahlamontada.com منتدى مكتبة الاسكندرية

دار المعلمين للملايين

علي مولا

أَنَا كَارِنِينَا

ليون تولستوي

ترجمة إميل بيدس

أنا كارينينا

ضبط لفتها و وضع أسلتها و قدم لها

د. جوزيف الياس

دارالعلم للملادين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية ميتكو، الطابق الثاني

هاتف : ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)

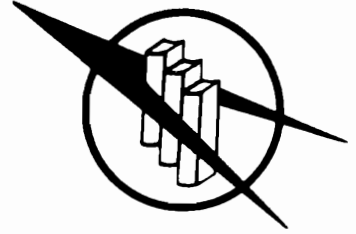
فاكس : ٧٠١٦٥٧ (٠١)

ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان

بيروت ٨٤٠٢ ٢٠٤٥

لبنان

www.malayin.com



جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بآلية وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو وسائط أخرى فقط للمعلومات واشتراطاتها - دون إذن خطي من الناشر.

الطبعة التاسعة

٢٠٠٩

«إن هذا الكتاب مطابق للأنظمة والقوانين النافذة ويشتمل على مضامين المناهج الصادرة بالمرسوم رقم ١٠٢٢٧ تاريخ ١٩٩٧/٥/٨، وقد جرى تقييمه والموافقة عليه من قبل المركز التربوي للبحوث والانماء لهذه الجهة فقط بالمستند رقم ٣٦٤/ت ك / ٩٨ تاريخ ١٩٩٨/١٠/٨ وأن المركز غير مسؤول عن الأخطاء التي قد ترد في هذا الكتاب من أي نوع كانت.»

مقدمة

حين صدرت المناهج التربوية الجديدة في لبنان سنة ١٩٩٧، جاء في منهج «اللغة العربية وآدابها» بند خاص بـ«الثقافة الأدبية العالمية». وعُمل، في الأهداف الخاصة للمنهج، اختياراً الآثار الأدبية العالمية للمطالعة الموجهة في المرحلة الثانوية، فجاء في التعليل أنها اختيرت «لتنمية ثقافة المتعلم الأدبية بالتعرّف إلى نماذج من روائع الأدب العالمي ذات النزعة الإنسانية». وهكذا اختيرت رواية أنا كارنينا (أو: أنا كارنين) للسنة الأولى الثانوية، وخصّص لها نصاب تدريس قدره عشر ساعات من مئة وخمسين ساعة وهي مجموع نصاب تدريس اللغة العربية وآدابها في السنة الأولى من المرحلة الثانوية.

لقد فكّرنا طويلاً قبل اختيار هذه الترجمة، وتردّدنا بين الشروع في ترجمة جديدة، واللجوء إلى إحدى الترجمات القديمة الموجزة، أو اللجوء إلى ترجمة مطوّلة، فكانت الخيارات أمامنا جدّ محدودة. فالترجمة الأمينة قد تتعدّى الألف من الصفحات، وبين يدينا نسخة من هذا النموذج المطول، هي تلك التي وضعها الأستاذ صيّاح الجّهيم، ونشرتها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية سنة ١٩٨٤، فجاءت في ثلاثة أجزاء، وفي ما يربو على ألف وأربع مئة صفحة. أمّا الترجمات الأخرى والأكثر شيوعاً في العالم العربيّ، فمعظمها من النوع البالغ الإيجاز، حتّى لتراه أقرب إلى أنموذج «كتاب الجيب».

وبعد جهد وتفكير، وأخذ وردّ، وقع اختيارنا على ترجمة معتدلة القطع أو الحجم، وفي موقع وسط، فأينها تلائم المستوى التربويّ المطلوب. وهي تلك التي وضعها الأستاذ إميل خليل بيدس. والمترجم كاتب وأديب معروف نقل عن الإنكليزية عدداً غير قليل من الكتب الأدبية. ونحن إذ نذكر المترجم الآن، فالواجب يقتضينا أن نترحم عليه، بعد أن جاءنا نعيه ونحن نخطّ السطور الأولى من مسوّد هذه المقدّمة، إذ توفاه الله يوم ١٦ أيلول ١٩٩٨. أمّا الترجمة التي ندرس، أي ترجمة الأستاذ بيدس، فتتألّف من أربعة أقسام رئيسة، فيها تسعة وثلاثون فصلاً وخاتمة.

منهجنا في إخراج هذه الترجمة إخراجاً تربوياً ناجحاً، هو الأمانة في الحفاظ على النصّ، ما دام النصّ سليم اللّغة منزّها عن الرّكاكة واللّحن والعجمة، معبّراً عن فكر المؤلّف بيسر وسهولة. فنحن قد عمدنا إلى النصّ المترجم، فراجعناه مراجعة لغويّة صرفاً، وتداركنا ما فيه من خلل، وضبطناه بالشّكل ضبطاً تامّاً، وشرحنا من مفرداته ما وجدناه جديراً بالشرح، عسيراً على فهم التلميذ، ثمّ ذيلنا كلّ فصل بطائفة من الأسئلة، فبلغ مجموع الأسئلة في ذيل الفصول والخاتمة ثلاث مئة وأربعة وعشرين سؤالاً.

وحين انتهينا من الفصول والخاتمة تصحيحاً وضبطاً واستثماراً، وضعنا حول الرواية طائفة من الأسئلة التحليليّة العامّة، التي بوبناها تحت خمسة عناوين رئيسة، وبلغ عددها واحداً وأربعين سؤالاً. وبذلك يكون مجموع ما طرّح من أسئلة حول الرواية كلّها ثلاث مئة وخمسة وستين سؤالاً.

ولربّما خال الدّارس أو قارئ الرواية أنّنا توقّفنا هنا واكتفينا بهذا القدر؛ وإذ ذاك يكون من حقّه أن يسألنا المزيد، وأن يتساءل: أين الدّراسة والتحليل والتّقد وما إلى ذلك؟ والتّساؤل هنا طبيعيّ ومشروع. لذا نقول لزملائنا وإخواننا الأساتذة وأبنائنا الطّلبة إنّ العمل لم ينتهِ بعد، والرّسالة لم تُؤدّد على وجهها الأكمل. فإليكم الآن الرواية بوضعها الحاضر وبالشّكل الذي انتهت إليه. نقول هذا لمن شاء أن يكتفي بهذا القدر من العمل، ولمن اكتفى بما طرّح حول العمل الرّوائيّ من أسئلة وأخذ ما تبقى من درس وتحليل على عاتقه. أمّا من شاء الاستزادة وطلب إلينا الدّرس والتحليل، فسيأتيه ما يشاء فور صدور هذه الرواية، وهو دراسة تحليليّة نقدية شاملة تصدر في كتيب مستقلّ كيلا تؤثر سلبيّاً في الرواية، فتضعف دور الأسئلة التحليليّة، أو تفقدها مسوّغ وجودها إن هي ألحقت بها.

هذه هي رواية «أنا كارنينا» أو «أنا كارنين» في لغة بعضهم، فعسى أن يجد فيها أبنائنا التّلامذة المتعة والفائدة، وأن يجد فيها زملائنا الأساتذة ضالّتهم المنشودة وكتابهم الأفضل.

الأهداف التعلّمية*

- جاء في الأهداف التعلّمية لمادّة الثقافة العالميّة أنّ تعليم هذه المادّة يهدف إلى جعل المتعلّم قادرًا على:
- التعرّف بنماذج من روائع الأدب العالميّ ذات التّزعة الإنسانيّة المنقولة إلى اللّغة العربيّة.
 - التزوّد بقراءة هادفة تعزّر فيه الميل إلى حبّ المطالعة، فيتدرّب عليها تفسيرًا وتلخيصًا ومناقشةً، إسهامًا في بناء شخصيّته فكريًا واجتماعيًا وجماليًا.
 - التّمكّن المتدرّج من مقارنة هذه الآثار بما يعرفه من الأدب العربيّ.
 - تنمية خياله وذوقه بنماذج متنوّعة من التّصوير الأدبيّ والمعالجة الفنّيّة.

الوسائل والأنشطة

- إعداد بحث تحضيريّ موجز يتناول سيرة المؤلّف وأعماله.
- تلخيص الأثر المدروس أو جزء منه.
- توزيع المتعلّمين مجموعات يتولّى كلّ منها دراسة عنصر من عناصر الأثر أو جزء منه ثمّ عرضه ومناقشته.
- إستضافة كاتب أو ناقد وإجراء حوار معه حول الأثر وما يطرحه من قضايا.
- قراءة الأثر ثمّ مشاهدته فيلمًا سينمائيًا في حال توافره والمقارنة بينهما.
- نقل جزء من الأثر المدروس إلى عمل إذاعيّ أو مسرحيّ في إطار المدرسة.
- إعداد جداول مقارنة بين شخصيّات الأثر المدروس.

(*) «تفاصيل محتوى منهج مادّة اللّغة العربيّة وآدابها»، التّعميم ٢٩/م/٩٧، ١ آب ١٩٩٧، ص ٥٢.

تولستوي (Tolstoi)

أولاً - حياته

ولد ليون نيكولايفيتش تولستوي يوم ٢٨ آب ١٨٢٨ في «ياسنايا پوليانا» من أعمال مقاطعة «تولا» في روسيا القيصرية، وفي بيت عريق النّسب، إذا كان أبوه يحمل لقب «الكونت» وأمه تحمل لقب «الأميرة». بيد أنّ أمّه تُوفيت وهو في الثالثة، فأُسندت تربيته إلى إحدى عمّاته. وبعد سنوات قليلة تُوفّي الأب، فوُضِع أولاده تحت وصاية عمّتهم، ثمّ أقاموا سنة ١٨٤١ عند عمّة أخرى.

إلتحق تولستوي سنة ١٨٤٤ بكلّيّة اللّغات الشّرقية، لكنّه ما لبث أن عدل عنها في العام التالي إلى كلّيّة الحقوق. ثمّ ترك الجامعة قبل أن ينهي دراسة الحقوق، وعاد إلى «ياسنايا پوليانا» ليدبر أملاكه الشّاسعة ويعيش حياة الملاكين الكبار.

إلتحق سنة ١٨٥١ بجيش القوقاز، وتدرّج في الرّتب حتّى بات مؤهّلاً لرتبة ضابط، وشارك في العمليّات الحربيّة ضدّ المتمرّدين القوقاز.

شرح يكتب سنة ١٨٥١، وفي العام التالي بدأ ينشر في مجلّة «المُعاصر» الجزء الأوّل من سيرته الذاتيّة تحت عنوان «طفولة».

وفي سنة ١٨٥٤، انتقل تولستوي إلى «جيش الدانوب» حيث رُقّي إلى رتبة ملازم، ثمّ أُلحِق - بناء على طلبه - بجيش القرم، وشهد حصار سيّاستبول. وفي سنة ١٨٥٥ شرعت مجلّة «المُعاصر» تنشر الجزء الثاني من سيرته تحت عنوان «مراهقة»، كما نشرت له بعض أقاصيص الحرب. وفي السنّة التّالية (١٨٥٦)، استقال من الجيش وعاد إلى «ياسنايا پوليانا»، وهناك تابع كتابة القصص ونشرها.

وفي العام ١٨٥٧، كانت بداية أسفار تولستوي إلى الخارج، حيث جال في بضعة دول

أوروبيّة. ولمّا عاد إلى روسيا كتب ينتقد الغرب متّهماً إيّاه بالمادّيّة والبعد عن الرّحمة والإنسانيّة. وفي أواخر هذا العام، نُشر الجزء الثالث من سيرته تحت عنوان «شباب». وتابع الكتابة الأدبيّة في العامين التّاليتين، فنشر بعض أقاصيصه، وأبرزها «ألبير» (١٨٥٩).

غادر تولستوي روسيا سنة ١٨٦٠ في سفرة ثانية إلى الخارج، فزار معظم بلدان أوروبا الغربيّة، واطّلع على مناهج التّعليم الابتدائيّ في الغرب، فرفض النّظّم التربويّة الأوروبيّة لاعتمادها على الإكراه.

عاد تولستوي إلى بلاده ليُعيّن عضواً في لجنة الوساطة، وحكّماً في الخلافات التي نجمت عن مرسوم إعتاق «الِقن»^(١)؛ لكنّه ما لبث أن استعفى في العام التّالي (١٨٦٢) من عضويّة اللّجنة، وانصرف إلى التّعليم في مدرسته؛ ثمّ أنشأ مجلّة تربويّة حملت اسم «أيا سنايا پوليانا» لنشر مبادئ نظامه التربويّ.

تزوّج تولستوي سنة ١٨٦٢، وانصرف في السّنوات التّالية إلى إدارة أملاكه، فاشترى أراضيّ جديدة، واهتمّ بتربية الماشية. بيد أنّه تابع، في الوقت نفسه، نشاطه الأدبيّ، فنشر عدداً من القصص أهمّها «القوزاق». ثمّ يّم وجهه شطر العمل الرّوائيّ المطوّل، فشرع في كتابة روايته «الحرب والسّلم»، التي بدأت تُنشر فصولاً في مجلّة «المُراسل الرّوسي» سنة ١٨٦٥، ثمّ نشرت كاملة سنة ١٨٦٨.

إنقطع تولستوي بعد «الحرب والسّلم» عن التّأليف القصصيّ زمناً انصرف فيه إلى تعلّم اليونانيّة وقراءة آثار أعلامها، ثمّ إلى الهمّ التربويّ ووضّع كتابٍ جديدٍ فيه لتعليم الفلاحين. وفي عام ١٨٧٣، عاد تولستوي إلى العمل الأدبيّ، وعكف على كتابة «أنا كارنينا» التي صدرت فصولاً على صفحات «المُراسل الرّوسي» قبل أن تنشر كاملة في كتاب سنة ١٨٧٨، وتولستوي يومئذ في الخمسين من العمر، وتلاها في العام التّالي (١٨٧٩) كتاب «اعتراف» الذي صوّر أزمته النّفسيّة والدينيّة والأخلاقيّة.

وفي السّنوات اللاحقة، توالى صدور مؤلّفات تولستوي التي حمل في معظمها على الظلم الاجتماعيّ، والجور، واستبداد الطّبقة الحاكمة، والإكليروس الأرثوذكسيّ. ونذكر من تلك المؤلّفات: الكنيسة والدولة (١٨٨١)، مختصر الإنجيل (١٨٨٣)، الجيفة الحيّة

(١) القِنّ (جمعه أقتان): العبد المملوك الذي يُباع ويُشترى مع الأرض التي يعمل فيها.

(١٨٩٠)، القيامة (١٩٠٠). وفي العام ١٩٠١ حرمت الكنيسة الأرثوذكسيّة تولستوي بقرار صادر عن المجمع المقدّس؛ فما كان من هذا إلاّ أن أذاع في العام التّالي «نداء إلى رجال الدّين»، حمل فيه بعنف على الإكليروس الأرثوذكسيّ. ثمّ صدر له سنة ١٩٠٣ كتاب في نقد شكسبير والمسرح. واستمرّ ينشر في السّنوات التّالية، أو سنوات الشيخوخة، مقالاته الثّائرة، فشجبت الحرب الرّوسية اليابانيّة، وعارض ثورة العام ١٩٠٥ لأنّها قائمة على العنف، وانتقد أحكام الإعدام الجماعيّة.

وفي أواخر شهر تشرين الأوّل ١٩١٠، هرب تولستوي من منزله في آياسنايا بوليانا ليعيش وفق عيادته، لكنّه أصيب بالتهاب رئويّ حادّ، وتُوفي بعد أيّام (يوم ٧ تشرين الثاني)، فأعيد جثمانه إلى مسقط رأسه حيث دُفِن هناك.

ثانياً - شخصيّته وتفكيره

تولستوي أديب إنسانيّ التّزعة، ورائد من روّاد الفكر الاشتراكيّ العالميّ. وقد تباينت الآراء والأقوال فيه، فجعله بعضهم في مصافّ الاشتراكيّين المصلحين، وجعله بعض آخر في مصافّ الثّائرين المهذّمين. ارتقى فيه بعضهم إلى مصافّ الفلاسفة والأنبياء، وأنزله بعضهم مصافّ زعماء الفوضويّة^(١)، مع أنّه يخالف في مناحي تفكيره ما يذهب إليه الفوضويّون. إنّه يختلف عن هؤلاء في وجوه عديدة، ومع ذلك أمكن اعتباره من بعض الوجوه فوضويّاً، لأنّه كان يحلم بتنظيم المجتمع بلا ملكيّة ولا دولة، لكنّه خالف الفوضويّين في سعيه إلى هذا الهدف من غير عنف. فقد وجد تولستوي خلاص روحه في جوهر الدّين وليس في القشور أو الطّقوس والمظاهر. وما يدهشك في موقف تولستوي هذا أنّ الرّجل من طبقة التّبلاء في روسيا، وأنّ الرّجل إقطاعيّ وأرستقراطيّ يحمل لقب كونت. فقد ورث ثلاث مئة فدّان من الأرض يعمل فيها ثلاث مئة وثلاثون فلاّحاً. وإذا به يصل إلى وقت يتنازل فيه عن أملاكه ولقبه وعاداته الموروثة، ويأكل كالفلاحين، ويرتدي زيّاً كأزيائهم، ويرتق ثوبه بيده.

(١) L'Anarchisme. مذهب سياسيّ يدعو إلى إلغاء سلطة الدولة والملكيّة الفرديّة، فهو مذهب «الفوضى الكليّة» في غياب السلطة المنظّمة، وزعيمه ميخائيل باكونين (Bakounine).

ما من شك في أن «الحرب والسلام» و«أنا كارنينا» وضعتا تولستوي في مصاف مُبدعي العالم وعظماء الفكر. بيد أن الدوي الذي أحدثه اسم الرجل، وما زال يحدثه، ليس نتيجة أدبه وفته فحسب، وإنما هو نتيجة تلك الحياة الفريدة الملأى بالفواجع الإنسانية، الممثلة أعمق ما يخالغ القلب الإنساني من شك قائم وقلق معذب، ونزوات نحو الإيمان لا تعرف لظمئها ريثاً. فما وصل تولستوي إلى منتصف العمر حتى وجد أنه أفرغ مجهوده الفكري وبلغ أبعد مدى لعبقريته الفنيّة، فإذا به ينقلب بين عشية وضحايا من مغرم بالفن مفتون به إلى حائقٍ عليه مزدري له.

لقد صار همّ تولستوي أن يبحث عن طريق للخلاص غير طريق الفنّ والإبداع، فحمل على شكسبير ومسرحة، وكتب رسالة يتهمّ فيها بالشعر والموسيقى، ويسأل: بم يعود الشعر والموسيقى على الشعب الجائع الرّاح تحت نير الجهل والذلّ والفاقة؟ ولماذا تُنق الأموال الطائلة على مسرحيّة موسيقيّة في دار الأوبرا؟ أمن أجل أن يأتي بعد العشاء أولئك الأثرياء المترفون المتخمون ليصفقوا مدّة ساعتين، ويعودوا بعد ذلك إلى جحورهم. إنّها حياة حقيرة حقاً.

لقد استخلص تولستوي أخيراً أنّ على الأغنياء والمثقفين التخلّي عن هذا البذخ لأنّه كماليّ بالنسبة إليهم، ولا ينالونه إلاّ بحرمان الشعب قوته الضّروري. لذا نراه يقترح أن يعمل الأغنياء والمثقفون لسدّ حاجاتهم الضّروريّة، كي يتسنى للشعب أن ينصرف إلى تحصيل ما يسدّ رمقه. وهكذا قرّر تولستوي أن يكون القدوة لغيره، فترك المدينة، وشمر عن ساعديه ليربّي مواشيه ويزرع أرضه كفلاح بسيط. بيد أنّ الرجل لم يكتف بذلك، فنزل إلى أرض الواقع، ودخل صميم حياة الشعب، وراح يجوس ليلاً أحياء موسكو القدرة، كي يتعرّف بالآلاف من ضحايا الحياة الذين ينامون على الأرصفة وفي منعطفات الأزقة. وعاد تولستوي من جولاته الليلية، فإذا هو رجل جديد مختلف، وإذا بنفس جديد يلفحه ويخفق في صدره؛ إنّهُ نفس التّبوء. وهكذا هجر الفنّ والإبداع، ولم يعد يبالي بأن يصف الحياة بمهارة الفتان وصدق نظرتة، بل أصبح همّه أن يغيّر الحياة بسطوة النبيّ وعنف لهجته، وما عاد هذا الرجل العظيم يفتح فاه إلاّ ليشاجر وبخاصم، ليُنذر ويتوعّد، ليصبّ حمم سخطه على كلّ من خالفه في الرّأي ونمط الحياة.

ولطالما تساءل بعض الدارسين والنقاد: فيم أفاد غضب تولستوي ووعده ووعيده؟ فقد رأى كثيرون منهم أنّ مواعظه ضاعت في الهواء، وأنّ صرخاته التي تشبه صرخات أنبياء التوراة قد ذهبت سدى. فقد أحسنّ بالداء ولم يهتد إلى الدواء، وشعر بفساد الحياة، لكنّه إذ أخذ يحارب هذا الفساد، وجد نفسه يحارب غريزة الحياة. وفي آراء بعض المفكرين الاشتراكيين أنّ تولستوي لم يقترح للقضاء على الشرّ غير الخير السلبّي، والخير السلبّي لا ينزع الشرّ ولا يقضي عليه. فقد رأى هؤلاء أنّه اقترح الاستسلام وعدم المقاومة، وقبح العنف والثورة، بيد أنّ غريزة الحياة كانت أقوى من مواعظه، وهي التي انتصرت آخر الأمر أيّاً تكن الآراء في صحتها ومدى صوابها. ومع ذلك يرى معظم دارسي شخصيّة تولستوي أنّ الشطر الأخير من حياة الرّجل كان وما يزال أروع مثال لحيرة النّفس الكبيرة وقلقها.

إنصرف تولستوي، في طور الشيخوخة، انصرافاً كليّاً إلى الشعب الرّوسّي، ولا سيّما الفلاح، فهمّه إشباعه، وتعليمه، وتحريره. وهكذا بات الشعب مثاله الأرضي، مثلما كان المسيح مثاله الأعلى، وباتت محبّته الشّاملة مستمدّة من رسالة المسيح وتعاليمه، وركناها الأساسيان محبة الله ومحبة القريب.

كثرت الأقوال في تولستوي، وتباينت الآراء فيه، فمن يكون الرجل؟ أهو أديب، أم فنّان مبدع، أم نائر، أم لاهوتي، أم فيلسوف، أم حكيم، أم تُراه يجمع بين هؤلاء جميعاً؟ ثمّة شبه إجماع على أنّ تولستوي نائر، وفوضوي، ومسيحيّ مؤمن، وفيلسوف، إنّما على طريقته الخاصّة.

لقد ترك تولستوي بصمات واضحة على صفحة الفكر الرّوسّي، والمجتمع الرّوسّي، في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكان من أبرز المفكرين (غير العقائديين) الذين مهّدوا بآطروحاتهم الفكرية للثورة البلشفية.

أنا كارنينا (Anna Karénine)

حين أُخطر تولستوي، في كانون الثاني ١٨٧٢، بوقوع حادث مفتح في محطة للقطار قرب «أياسنايا بوليانا»، لم يكن يخطر في باله أنه سيرى عشيقه أحد ملاكي الجوار السيّدة أنا بيروغوف جثة هامدة مقطّعة الأوصال، بعد أن ألقت بنفسها تحت عجلات القطار منتحرة. وفي تلك اللحظة ومضت في رأس تولستوي فكرة خاطفة، لعلها كانت الشرارة التي قدحت زناد فكره وقلمه، وألهمته موضوع روايته.

بدأ تولستوي كتابة أنا كارنينا سنة ١٨٧٣، واستغرق تأليفها نحوًا من أربع سنوات. فقد بدأت مجلة «المُرَاسِل الروسي» نشرَ فصولها الأولى سنة ١٨٧٥، واكتمل نشر هذه الفصول سنة ١٨٧٧، بيد أن القسم الأخير من الرواية لم يظهر على صفحات «المُرَاسِل الروسي» لأن محرر المجلة رفض نشره بسبب آراء تولستوي، فاضطرَّ هذا إلى طبعه على نفقته. ثم نُشرت الرواية كاملة في كتاب سنة ١٨٧٨، وتولستوي يومئذ في الخمسين من عمره. وقد جاء نشر أنا كارنينا بعد مضيِّ نحو عشرين عامًا على ظهور رواية فرنسيّة مماثلة، هي «مدام بوفاري» (Madame Bovary) التي نشرها الأديب الفرنسيّ غوستاف فلوبير (G. Flaubert, 1821-1880) سنة ١٨٥٧، وروى فيها قصّة امرأةٍ خلعت العذار، ثمّ أنهت حياتها بالانتحار.

أنا كارنينا أثر أدبيّ عالميّ وإنسانيّ خالد، تُرجم إلى معظم لغات العالم، وأعيد طبعه مئات المرّات. وقد تباينت آراء النقاد في هذه الرواية، فوضّعت فيها دراسات كثيرة راوحت بين الإعجاب التامّ والرّفص النسبيّ، إن لم نقل التأمّ. فمن أعجب بها قد أعجب لأنّه رأى فيها عصارة فنّ تولستوي وخاتمة أعماله الكبرى، ومن انتقدها فحملَ عليها قد حملَ لأنّه رأى فيها خللاً فنيّاً، ورأى أحداثاً ثانويّة كثيرة تواكب الحدث الرئيسيّ وتكاد تطفئ عليه. وهذه حال الناقد راتشنسكي^(١) الذي لام المؤلف على تخلخل البناء باعتباره العيب

(١) من مقدّمة «ألكسندر سولوفيف» للترجمة التي نشرتها وزارة الثقافة بدمشق سنة ١٩٨٤، ص ٢٢.

الأساسي في الرواية. بيد أن النقاد كافةً أجمعوا على أنّ هذه الرواية هي عصاره جهد تولستوي، ورأوا فيها الكثير من نفس تولستوي، ومن آرائه ومثله وتجاربه الشخصية التي يجسدها غالبًا البطل الريفي ليفين، ويجسدها بعضها ألكسيس كارنين. كما رأوا فيها لوحة رائعة تصوّر المجتمع الروسيّ في أدقّ مرحلة من مراحل تاريخه، فتكشف عله وتناقضاته وطبقته وتقليده للغرب، واكتشفوا فيها نفحة إنسانية لا مثيل لها في الأعمال الروائية الأخرى، وجهاد نفس لا مثيل له في البحث عن الحقيقة.

تأتي «أنا كارنينا» بعد رواية «الحرب والسلم» شهرةً وأهميّةً وحجمًا، لكنّها أكثر إثارة للجدل من تلك. فإذا كانت «الحرب والسلم» قد أرّخت البطولة الروسية في وجه الغزو الإمبراطوريّ الفرنسيّ، فإنّ «أنا كارنينا» أرّخت الحياة الاجتماعية الروسية، ولا سيّما حياة النخبة. فأحداث الرواية ساحة تحرّك في رحابها طبقة من النبلاء الروس الذين ودّعوا نظام القنّانة (سنة ١٨٦١)، وانتقلوا من الإقطاع القديم إلى أرستقراطية جديدة، جمعت بين إرث الإقطاع وقيم المجتمع الرأسماليّ. وهي أرستقراطية ترعرت على يد الأرستقراطية الأوروبية الغربية، فترسّمت خطى النخبتين الفرنسية والبريطانية، وبات النبلاء الروس «يرطنون» في مجالسهم بالفرنسية، وإذا قرأوا كانت قراءتهم بالفرنسية والإنكليزية.

تطفو على سطح الحدث في أنا كارنينا نماذج بشرية متنوّعة، معظمها مريض مرض الطبقيّة، مرض التبل، مرض الإرث الثقيل، والنماذج البشرية هذه هي غالبًا نماذج مهتزة غير سويّة، تتفاعل في داخلها صراعات كثيرة، أبرزها ما بين القلب والعقل أو بين الحب والواجب، وما بين القديم والجديد، وما بين العبوديّة والعدالة أو المساواة، وما بين القشور واللّباب، وما بين تخلف الإكليروس وحركة التنوير في أوساط المثقفين الروس.

وفي رواية «أنا كارنينا»، ثمة مجال رحب أمام تولستوي كي يسخر، وينتقد، ويتهدّد، ويتوعّد، ويهاجم، ويعظ، ويبشّر. ولا عجب إذا ما انتهى القارئ إلى أنّ تولستوي في هذه الرواية مؤمن في العمق، ولاهوتيّ كبير، إنّما على طريقته. فهو ما فتئ يبشّر بالمحبّة، ويدوب رحمةً، ويغفر لمن أساء إليه، ويرفض أن يكون أوّل من يرمي الزّانية بحجر. بيد أنّه بقي في مسألة الزّواج مقيّدًا بحدود الشريعة والقانون.

القسم الأول

الفصل الأول

منشأ السعادة نعمة، والشقاء منسوخة بِنعمة.
السعادة وليدة أم، والشقاء له ألف أم.
العائلات السعيدة ترتع في جنّة، والعائلات الشقيّة تتمرّع في ألف جحيم.
أسباب السعادة تتشابه، وأسباب الشقاء تتفرّع إلى أغصان وأفنان.

كانت عائلة «أوبلنسكي» مضطربة غاضت سعادتها، وتلاشى استقرارها، وحفّ بها الشقاء من كلّ جانب.

فالزّوج حادّ عن الصّراط، والزّوجة اكتشفت ما نزع إليه قلب قريبتها، فقد كلف^(١) بالمربيّة الفرنسيّة الحسناء التي كانت ترعى أولاد الأسرة كلًّا شديدًا، وهامّ بها حبًّا، وعاشرها معاشرّة الأزواج.

وشاع الحزن في قلب المرأة المخدوعة، فشعرت بالمهانة، وأحسّت بتقويض الآمال^(٢)، وجهرت بعزمها على صدّ زوجها عنها، والانفراد بعينها، وكأنّها لم تبعل^(٣) ولم تُنجب أولادًا!

وانقضّت أيّام ثلاثة عمّت خلالها الفوضى، وساد الإزتيك، وانحلت الأواصر^(٤)، وانفكّت الصّلات، وثبت أن لا مندوحة للزّوجين من الانفصال.

واغتتم الأطفال فرصة الجفاء المستحكيم، فعَبثوا ما شاء لهم العبث، وسبّوا للخدم من المتاعب ما اضطّرهم إلى التّفكير بترك الخدمة، والبحث عن بيت آخر يُظللّه الوئام ويسوده

(١) كلف بالمربيّة: أحبّها وتعلّق بها.

(٢) تقويض الآمال: انهدامها وضياعها.

(٣) لم تبعل: لم تكن ذات بعل (زّوج) أي لم تتزوّج.

(٤) الأواصر: مفردّها أصرّة وهي صلة القرابة.

الاتِّفَاقُ وَالسَّلَامُ.

وَلَاذَتْ^(١) الزَّوْجَةُ بِغُرْفَتِهَا فَلَمْ تَبْرَحْهَا، وَهَامَ الزَّوْجُ عَلَى وَجْهِهِ وَجَعَلَ يَقْضِي سَحَابَةَ نَهَارِهِ مُتَّعِلًا مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ. فَإِذَا مَا قَفَلَ رَاجِعًا، قَضَى لَيْلَهُ فِي غُرْفَةٍ أُخْرَى غَيْرِ مَخْدَعِهِ.

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّلَاثِ لِشُوبِ النَّزَاعِ اسْتَيْقَظَ الْأَمِيرُ «سْتَيْفَانُ أُوْبْلَنْسْكِي» مِنْ نَوْمِهِ كَمَا اعْتَادَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ كُلَّ صَبَاحٍ، فَتَنَاءَبَ وَتَمَطَّى، وَاسْتَعَادَ إِلَى الذَّاكِرَةِ صُورًا مِنَ الْحُلْمِ الَّذِي أَلَمَّ بِهِ، وَالْأَشْبَاحِ الَّتِي طَوَّفَتْ بِمُخَيَّلَتَيْهِ، ثُمَّ تَذَكَّرَ فَجَاءَهُ أَنَّهُ لَا يَنَامُ إِلَى جَانِبِ زَوْجِهِ، بَلْ عَلَى الْأَرِيكَةِ الْجِلْدِيَّةِ فِي مَكْتَبِهِ. فَتَمَلَّمَلَ فِي مَكَانِهِ مَتَّضُورًا^(٢)، إِلَّا أَنَّهُ عَادَ فَانْطَرَحَ عَلَى وَجْهِهِ، وَمَا عَتَمَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَنْ دَفَنَ رَأْسَهُ فِي الْوِسَادَةِ، وَغَاصَ فِي لُجَّةِ الْفِكْرِ...

فَتَذَكَّرَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ السُّودَاءَ الَّتِي حَوَّلَتْ حَيَاتَهُ إِلَى جَحِيمٍ... وَصَاحَ وَهُوَ يَرَى مَا جَرَى، بِصَوْتِ الْيَاسِيِّ الْوَلَهَانِ: «إِنَّهَا أَضْعَبُ مِرَاسًا مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ سِوَاهَا، وَلَنْ تَعْفِرَ لِي، لَنْ تُغْضِي^(٣)، لَنْ تَنْسَى».

لَقَدْ عَادَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ التَّعَسَةِ مِنْ مَلْعَبِ التَّمْثِيلِ وَهُوَ يَمْشِي بِزَهْرٍ وَخِيَلَاءَ، وَلَا يَكَادُ يَطَّأُ الْأَرْضَ عُجْبًا وَسَعَادَةً، وَدَلَفَ إِلَى الْبَيْتِ بِخُطَاهُ الثَّابِتَةِ وَفِي يَدِهِ إِجَاصَةٌ كَبِيرَةٌ نَاضِجَةٌ.

وَبَحَثَ عَنْ زَوْجِهِ فَلَمْ يَجِدْهَا فِي الرُّذْهَةِ الَّتِي اعْتَادَ أَنْ يَجِدْهَا فِيهَا كُلَّ لَيْلَةٍ؛ فَوَلَّجَ غُرْفَةَ الْمَائِدَةِ، فَلَمْ يَلْقَها هُنَاكَ أَيْضًا. وَهَجَسَتْ نَفْسُهُ وَحَدَّثَتْهُ بِالشَّرِّ، أَلَيْسَ مُذْنِبًا هُوَ؟ أَلَا يُحْسِنُ الْمُذْنِبُ بِمَا يَنْتَظِرُهُ؟ أَلَا يَلْمُسُ مَوْطِنَ الْخَطَرِ قَبْلَ أَنْ يَفْطِنَ إِلَى الْخَطَرِ الْمَائِلِ^(٤) أَحَدًا؟

حَدَسَ هُوَ مَا جَرَى، وَلَمَّا دَخَلَ مَخْدَعَهَا، أَثْبَنَ أَنَّ تَكْهُنَهُ قَدْ أَصَابَ كَيْدَ الْحَقِيقَةِ، وَهِيَ زَوْجَتُهُ تَحْمِلُ فِي يَدِهَا ذَلِكَ الْكِتَابَ الْمَلْعُونَ الَّذِي أَمَاطَ لَهَا اللَّثَامَ عَنْ قِصَّةِ الْخِيَانَةِ.

وَوَجِبَ^(٥) قَلْبُهُ وَجِيبَ الذُّعْرِ وَالْهَلْعِ، فَتَمَعَّنَ فِي وَجْهِهَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ فِيهِ إِلَّا اضْغِرَارًا

(١) لَاذَتْ بِغُرْفَتِهَا: لَجَأَتْ إِلَيْهَا.

(٢) مَتَّضُورًا: مُتَوَجِّعًا.

(٣) لَنْ تُغْضِي: لَنْ تَسْكُتَ عَن رَأْيِي، لَنْ تَغْضُضَ الطَّرْفَ.

(٤) الْخَطَرُ الْمَائِلُ: الْخَطَرُ الْقَائِمُ أَمَامَهُ.

(٥) وَجِبَ قَلْبُهُ: حَقَقَ.

وَكَمَدًا وَحُرْنًا يَكَادُ يَنْفَجِرُ مِنْ كَثْرَتِهِ. وَلَكِنَّهُ كَانَ مَرِحًا بِطَبِيعَتِهِ، لَا يَحْمِلُ الْهَمَّ إِلَّا قَيْئَةً، وَلَا يَحْزَنُ إِلَّا هُنَيْهَةً، وَيَضْحَكُ إِذَا أَلَمَّتِ الْمَصَائِبُ، وَيَقْهَقُهُ إِذَا حَلَّتِ الْخُطُوبُ.

وَقَالَتْ امْرَأَتُهُ بَصُوتٍ أَحَشَّ صَارِمٍ: «أَنْتَ هُنَا؟ أَنْتَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْغَادِرُ! قُلْ، أَجِبْ... مَا هَذَا الْكِتَابُ؟»

فَفَعَرَ فَاهُ^(١)، وَحَمَلَقَ إِلَيْهَا مِنْ دُونِ أَنْ يُجِيبَ... ثُمَّ ابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً بَلْهَاءَ، وَنَقَلَ طَرْفَهُ بَيْنَ زَوْجِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي كَشَفَ لَهَا انْحِرَافَهُ وَارْتِمَاءَهُ فِي أَحْضَانِ الْمُتَعَةِ الْمُحَرَّمَةِ، وَجُنُوحَهُ إِلَى الْفُجُورِ يَخْتَلِسُهُ اخْتِلَاسًا وَيَنْتَهِبُهُ انْتِهَابًا فِي غَفْلَةٍ مِنْ زَوْجِهِ، وَمِنْ دُونِ أَنْ يَزْعَهُ وَازِعَ^(٢) مِنْ ضَمِيرٍ، أَوْ يَصْرِفَهُ حَافِزٍ مِنْ شَرَفٍ.

وَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً بَلْهَاءَ، فَكَانَتْ ابْتِسَامَتُهُ كَلِمَةَ الْقَضَاءِ... لَقَدْ حَكَمَ بِهَا عَلَى نَفْسِهِ فِدَانَهَا وَخَطَأَهَا، وَانْتَهَتْ زَوْجُهُ وَاقْتَنَعَتْ.

وَتَنَفَّسَ الصُّعْدَاءَ وَهَوَّ يَفْكُرُ الْآنَ فِي مُصِيبَتِهِ، وَيُنْحِي عَلَى ابْتِسَامَتِهِ تِلْكَ بِاللَّائِمَةِ، وَيَسْأَلُ وَالْحَيْرَةَ مُسْتَحْزِوَةً عَلَى مَشَاعِرِهِ، عَنِ أَنْجَعِ الطَّرِيقِ الَّتِي تُدَلُّ هَذِهِ الْعَقَبَةَ فِتْلَاشِي الْخِصَامِ وَتُرِيْلُ الْقَطِيعَةَ.

تَسَاءَلَ مَلِيًّا، ثُمَّ فَكَّرَ، وَقَدَحَ زِنَادَ الْفِكْرِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَهْتَدِ إِلَى حَلِّ لِمُسْكِلتِهِ، وَقَالَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِلَهْجَةٍ تَسِفُ عَنْ طَبِيعَتِهِ وَصَرَاحَتِهِ: «لَقَدْ هَدَمْتُ صُرُوحَ أَحْلَامِي، وَكَدَّرْتُ لَذَّةَ الْحَيَاةِ لِي وَلَاوِلَادِي، وَلَنْ يُجِدِي مَعَهَا الْكَلَامُ... لَنْ تُدْعِنَ... وَمَهْمَا جَهَدْتُ فِي حَلِّ هَذِهِ الْعُقْدَةِ فَلَنْ أَجِدَ لَهَا انْحِلَالًا، وَسَتَرَى زَوْجِي كُلَّ قَوْلٍ أَقُولُهُ إِفْكًَا^(٣) وَضَلَالًا».

(١) فَعَرَ فَاهُ: فَتَحَ فَمَهُ.

(٢) يَزْعَهُ وَازِعٌ: يَمْنَعُهُ مَانِعٌ.

(٣) إِفْكًَا: كَذِبًا.

أسئلة تحليلية

- ١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا .
- ٢ - ما الحَدَثُ الَّذِي افْتَتَحَ بِهِ تولستوي روايته؟
- ٣ - ما الَّذِي فَكَّكَ أو اصرَ أُسرَةَ الأميرِ أوبلنسكي؟
- ٤ - لِمَ فَكَّرَ الخدمُ في تَرْكِ الخِدْمَةِ لَدَى أُسرَةَ أوبلنسكي؟
- ٥ - بِمَ امتازتْ شخصيَّةُ ستيفانِ أوبلنسكي؟
- ٦ - ماذا في الكتابِ الَّذِي رآه ستيفان في يَدِ زوجته؟
- ٧ - علامَ دَلَّتِ ابْتِسَامَتُهُ البُلْهَاءُ؟
- ٨ - ما العُقْدَةُ في هذا الفصلِ مِنَ الرّوايةِ؟ وما الحلُّ الَّذِي تَتَوَقَّعُهُ لها؟
- ٩ - أَوْجِزْ مَضمونَ الفَصْلِ في أسْطُرٍ قَلِيلَةٍ .

الفصل الثاني

كَانَ سَتِيفَانُ رَجُلًا صَادِقًا فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِهِ التَّغْيِيرُ بِهِذِهِ النَّفْسِ وَخَدْعُهَا، وَإِفْنَاعُهَا بِأَنَّهُ نَادِمٌ عَلَى زَوْعَانِ ضَمِيرِهِ عَنِ الْمَحَجَّةِ^(١).

وَكَانَ فِي الرَّابِعَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عُمُرِهِ، وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ فِي الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثِينَ، وَقَدْ رَزِقَ مِنْهَا سَبْعَةَ أَطْفَالٍ مَاتَ مِنْهُمْ اثْنَانِ.

وَعَشِيَّتُهُ مِنَ الْهَمِّ، وَهُوَ يَضْرِبُ مِنَ الْحَيْرَةِ أَخْمَاسًا لِأَسْدَاسٍ^(٢)، مَا لَمْ يَبْلُ^(٣) مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ، فَقَدْ فَكَّرَ فِي أَوْلَادِهِ، وَفَكَّرَ فِي امْرَأَتِهِ، وَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ! وَلَمْ يَكُنْ مَبْعُثَ هَمِّهِ عَدَمَ مِثْلِهِ إِلَى زَوْجَتِهِ، بَلْ كَانَ مَثَارُهُ نَدَمُهُ عَلَى الْاِقْتِرَانِ بِهَا!

وَلَوْ تَكَهَّنَ أَنَّ خِيَانَتَهُ سَتُحْشَى بَشَرًا وَعَدْرًا، لَو دَاخَلَ جِسَّهُ أَنَّ عِلَاقَتَهُ الْأَيْمَةَ سَتُنْسِيهِ طَعْمَ الرَّاحَةِ، لَفَكَّرَ مِرَارًا قَبْلَ أَنْ يَفْتَحِمَ الصَّعَابَ، وَلِحَرَصٍ كَثِيرًا حَتَّى لَا يَنْكَشِفَ الشَّرُّ، فَيُجَشِّمَ هَذِهِ الْعَوَاقِبَ، وَيَبْلُوَ هَذَا الْعِقَابَ.

بَيَدَ أَنَّهُ لَمْ يَتَّبِعْ طَرِيقَ الْعَقْلِ، وَلَعَلَّهُ كَانَ يَظُنُّ فِي زَوْجَتِهِ مِنَ الْقَنَاعَةِ بَيْنِيهَا وَوُلْدِهَا مَا يَصْرِفُهَا عَنْهُ وَعَنْ مَبَاذِلِهِ. وَمَا يَجْعَلُهَا لَا تَحْفَلُهُ أَوْ تَكْتَرُثُ لِفُسْقِهِ. وَذَهَبَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ كُلِّ مَذْهَبٍ، فَكَانَ يَبْتَعِ أَنَّهَا تَتَّعَاضَى عَنْهُ حَتَّى يَنْقَعَ غَلِيْلُهُ، وَأَنَّهَا تُغْمِضُ عَيْنَيْهَا كِي يَنْجَحَ أَرْبُهُ مَعَ امْرَأَةٍ سِوَاهَا، فَيَظَلَّ الرَّجُلَ الْمُسْتَسْلِمَ لَهَا بِصِفَتِهَا رَبَّةَ الدَّارِ، الْمُنْصَرِفَ عَنْهَا بِصِفَتِهِ يَهْوَى الْحُسْنَ وَالذَّلَالَ!

وَاسْتَوَى جَالِسًا، وَأَخَذَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ: «هَذَا مُرِيعٌ! وَإِنِّي أَحْسُ بِالْخَبَالِ وَالْوَبَالِ،

(١) الْمَحَجَّةُ: الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ.

(٢) يَضْرِبُ أَخْمَاسًا لِأَسْدَاسٍ: يُفَكِّرُ مَحَاوِلًا الْخُرُوجَ مِنْ مَأْزِقٍ، وَهُوَ مَثَلُ شَائِعٍ.

(٣) لَمْ يَبْلُ مِثْلَهُ: لَمْ يُجْرَبْ مِثْلَهُ، لَمْ يُعَانَ مِثْلَهُ.

وَبِضْيَعَةِ الْأَمَالِ... أَلَيْسَ مِنَ السُّخْفِ وَالْأَفْنِ^(١) أَنْ يَعْتَسِقَ الْإِنْسَانُ مُرَبِّيَّةً أَوْ خَادِمَةً؟
وَلَكِنْ... وَلَكِنْ... أَيُّ مُرَبِّيَّةٍ هِيَ؟! أَيُّ مُرَبِّيَّةٍ!؟».

وَافْتَرَّ ثَغْرُهُ عَنِ ابْتِسَامَةِ رَضِيَّةٍ، وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ، وَحَلَّقَ فِي عَالَمِ الْأَخْلَامِ، وَكَأَنَّهُ يَرَى
جَسَدَ الْمُرَبِّيَّةِ الْعَضَّ، وَوَجْهَهَا النَّاصِعَ النَّاعِمَ، وَعَيْنَيْهَا الْمُسْرِقَتَيْنِ الصَّافِيَتَيْنِ...

وَهْتَفَ عَلَى جِبِنِ غِرَّةٍ: «أَيْنَ الْمَفْرُ؟ وَمَا الْعَمَلُ حَتَّى أَصُونَ نَفْسِي مِنَ الْأَنْهِيَارِ؟».

وَتَحَيَّرَ يَتَلَفَّتْ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، ثُمَّ دَقَّ الْجَرَسَ، فَهَرَعَ إِلَيْهِ خَادِمُهُ «مَاتْفِي»، ذَلِكَ الشَّيْخُ
الْمُخْلِصُ الْوَدُودُ، يَحْمِلُ إِلَيْهِ بَرَّتَهُ وَجِذَاءَهُ. وَيَحْمِلُ أَيْضًا إِلَيْهِ بَرِّيَّةً. وَتَبِعَهُ الْحَلَّاقُ دَاخِلًا
وَهُوَ «يَشِيلُ» عُدَّةَ الْحِلَاقَةِ، كَمَا لَوْ كَانَ طَبِيبًا يَحْمِلُ أَوَائِلَهُ وَمُعَدَّاتِهِ!

وَرَنَا أُوْبِلِنْسْكِي إِلَى خَادِمِهِ مُسْتَظْلِعًا، وَقَالَ: «مَا وَرَاءَكَ يَا مَاتْفِي؟ أَلَدَيْكَ أَوْرَاقٌ يَجْدُرُ
بِي قِرَاءَتُهَا؟»

فَبَادَلَهُ الْخَادِمُ نِظْرَةَ الْعَطْفِ وَالتَّمَاهُمِ وَالْحَيْرَةِ، وَأَجَابَ: «هُنَاكَ عَلَى الْمِنْصَدَةِ بَعْضُ
الْأَوْرَاقِ يَا سَيِّدِي... أَمَّا الْآنَ، فَاقْرَأِ الْبَرِّيَّةَ أَوَّلًا».

وَفَضَّ أُوْبِلِنْسْكِي الْبَرِّيَّةَ، وَمَا كَادَ يَطْلُعُ عَلَى مُحْتَوَيَاتِهَا، حَتَّى هَتَفَ بَارْتِيَاخَ: «أَيُّ
مَاتْفِي، شُكْرًا لِلَّهِ! إِنَّ أُخْتِي قَادِمَةٌ فِي الْعَدَاةِ، إِنَّ أُخْتِي «أَنَا كَارِنِينَا» قَادِمَةٌ لَتَمُكَّتْ مَعَنَا رَدْحًا
مِنَ الزَّمَانِ». وَرَدَّدَ الْخَادِمُ قَوْلَ سَيِّدِهِ: «شُكْرًا لِلَّهِ».

وَكَأَنَّهُ يُوَدُّ لَوْ يُؤَيِّدُ سَيِّدَهُ فِي اسْتِشَارِهِ بِقُدُومِ شَقِيقَتِهِ وَتَفَاوُلِهِ بِحُلُولِهَا بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ.

وَعَادَ الْخَادِمُ يَقُولُ مُتَسَائِلًا: «آتِيَّةٌ وَحَدَهَا؟»

فَلَمْ يَسَنَّ لِسْتِيفَانَ أَنْ يَرُدَّ، فَقَدْ كَانَ الْحَلَّاقُ حَيْثُ يُرْمَرُّ الْمَوْسَى عَلَى دَفْنِهِ. وَلَكِنَّهُ رَفَعَ
إِصْبَعَهُ، فَفَهِمَ الْخَادِمُ أَنَّهَا قَادِمَةٌ مِنْ دُونِ زَوْجِهَا.

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَالَ: «وَهَلْ أَجْهَرُ لَهَا الْغُرْفَةَ الْعُلْيَا؟»

فَأَجَابَهُ سْتِيفَانُ: «سَلْ زَوْجَتِي (دَارِيَا أَلِكْسَنْدَرُوفْنَا)».

فَقَالَ الْخَادِمُ فِي تَعَجُّبٍ وَاضْطِرَابٍ: «أَسْأَلُهَا؟!»

(١) الْأَفْنُ: نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ.

- «أَجَلٌ، وَخُذْ لَهَا الْبَرِّيَّةَ».

وَمَضَى الْخَادِمُ يُقَدِّمُ رِجْلًا وَيُؤَخِّرُ أُخْرَى إِلَى حُجْرَةِ الْمَرْأَةِ الْمَهِيضَةِ الْجَنَاحِ. وَعَكَّفَ سَتِيفَانَ عَلَى ارْتِدَاءِ مَلَابِسِهِ.

وَلَمَّا قَفَلَ^(١) الْخَادِمُ رَاجِعًا، بَدَأَ مِنْ تَقْطِيبِهِ وَعُبُوسِهِ أَنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا لَمْ يُحْكِمَهُ. وَلَمَّا نَطَقَ قَالَ بِلِسَانٍ مُتَلَعِّمٍ يَنِمُّ عَنْ أَسْفِهِ وَحُزْنِهِ: «لَقَدْ أَعْطَيْتُهَا الْبَرِّيَّةَ، فَلَمْ تُعِنَ بِقِرَاءَتِهَا، بَلْ قَالَتْ إِنَّهَا مُرْتَحِلَةٌ وَإِنَّ الْحَيَاةَ فِي الْمَنْزِلِ لَنْ تَرُوقَ لَهَا بَعْدَ الْيَوْمِ».

وَكَأَنَّ الْخَادِمَ رَمَاهُ بِالثَّلَاثَةِ الْأَثَافِيِّ^(٢) بِكَلِمَاتِهِ تِلْكَ، فَأَسِيَّ وَحَزِينَ، ثُمَّ ابْتَسَمَ كَمَا يَبْسِمُ دَائِمًا فِي وَجْهِ الْخُطُوبِ، وَقَالَ مُحْتَارًا: «لَقَدْ أَخْفَقَ الْمَسْعَى، فَمَا الْعَمَلُ؟»

فَصَعَّدَ فِيهِ الرَّجُلُ بَصْرَهُ وَأَجَابَ: «أَوْلَى بِكَ أَنْ تُسَلِّمَ الْمَسْأَلَةَ لِلْقَدْرِ، فَالزَّمَانُ كَفِيلٌ بِحُلِّ أَعْقَدِ الْمُسْكَلَاتِ».

وَصَمَتَ، وَذَهَبَتْ بِهِ أَفْكَارُهُ كُلُّ مَذْهَبٍ. وَلَمَّا انْفَثَرَتْ^(٣) حُزْنُهُ، وَسَكَنَ قَلْبُهُ، انْتَفَتَّ إِلَى خَادِمِهِ الْوَاجِحِ الْمُتَرَقِّبِ. وَإِذْ هُوَ يَهْمُ بِالْكَلامِ وَلَجَّتْ عَلَيْهِ الْمَكَانَ الْحَاضِنَةُ «مَاتَرِينَا فليمونوفنا» وَعَلَيْهَا ثُوبٌ وَاسِعٌ فَضْفَاضٌ.

وَمَعَ أَنَّ سَتِيفَانَ أَطَاعَ دَوَاعِيَ الْحُبِّ وَخَفَرَ عَهْدَ زَوْجِهِ، كَانَ أَهْلُ الْبَيْتِ وَخَدَمُهُ جَمِيعًا يَعْطِفُونَ عَلَيْهِ وَيَسْعُرُونَ مَعَهُ وَيُودِّدُونَ لَوْ يَجْتَازُ هَذِهِ الْعَقَبَةَ الْكَأْدَاءَ مُتَّصِرًا مُظْفَرًا.

دَخَلَتْ الْحَاضِنَةُ فِي أَمَارِهَا مَا يَنِمُّ عَنْ هَمِّ بَرَّحَ بِهَا اسْتِعَارُهُ. وَأَنْشَأَتْ تَقُولُ وَهِيَ تَكَادُ تَنْشِجُ: «سَيْدِي! أَرَى أَنْ تُحَاوِلَ... حَاوِلْ كَرَّةً أُخْرَى... إِنِّي أَعُوذُ بِكَ، فَافْعَلْ مَا يُخَمِّدُ نَارَ كَرْبِهَا، وَيَقْتُلْ لَهَيْبَ حُزْنِهَا... إِفْعَلْ ذَلِكَ - نَاشِدُتُكَ اللهُ - مِنْ أَجْلِ بَيْتِكَ وَأَطْفَالِكَ... فَعَلْ ذَلِكَ حَتَّى يَنْسَرِيَ^(٤) هَمُّنَا جَمِيعًا وَيَرْفُضَ عُمَّنَا!».

فَاهْتَزَّ الرَّجُلُ مِنْ شِدَّةِ الْاِنْفِعَالِ، وَأَجَابَ وَهُوَ يُنَكِّسُ رَأْسَهُ: «إِنَّهَا تَأْبَى مُخَاطَبَتِي فَضْلًا عَنْ مُقَابَلَتِي، فَمَا الْعَمَلُ؟ مَاذَا أَصْنَعُ؟»

(١) قَفَلَ رَاجِعًا: عَادَ رَاجِعًا.

(٢) رَمَاهُ بِالثَّلَاثَةِ الْأَثَافِيِّ: أَي رَمَاهُ بِمُصَيِّبَةٍ تُكْمَلُ مَا قَبْلَهَا مِنْ مَصَائِبِ.

(٣) انْفَثَرَتْ حُزْنُهُ: حَفَّتْ جِدَّتُهُ.

(٤) يَنْسَرِي هَمُّنَا: يَنْكَشِفُ وَيَزُولُ.

قَالَتْ: «مَا يُحْتَمُّ عَلَيْكَ الْوَاجِبُ؛ فَاتَّبِعْ مَشُورَةَ ذَهَبِكَ، لِأَنَّ الْإِسْتِسْلَامَ لِلْأَمْرِ الْوَاقِعِ لَا يُجْدِي، وَلِأَنَّ التَّحَرُّقَ عَلَى نَارِ الْحُزَنِ وَالنَّدَامَةِ لَا يَنْفَعُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ».

قَالَ: «أَنْتِ دَلِقَةُ اللُّسَانِ يَا عَزِيزَتِي، مَاهِرَةٌ فِي الْأَدَاءِ. فَادْهَبِي الْآنَ، وَسَأَفْعَلُ اللَّازِمَ!»

وَمَا لَيْتَ بَعْدَ ذَهَابِهَا أَنْ ضَمَّخَ نَفْسَهُ بِالطَّيِّبِ، وَسَرَّحَ لِحَظَّهُ مِنَ النَّافِذَةِ هُنَيْهَةً كَالْمَفْكَرِ، ثُمَّ دَلَفَ إِلَى حُجْرَةِ الْمَائِدَةِ بِخُطُواتٍ ثَابِتَةٍ مَرِحَةٍ، وَوَجْهٍ مُتَأَلِّقٍ يَنْضَحُ بِالْبِشْرِ وَالْأَطْمِئْنَانِ!

اسئلة تحليلية

- ١ - ضَع لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا .
- ٢ - هل فَكَّرَ أوبلنسكي في عواقبِ خيانتِهِ لزوجِهِ؟ وماذا كانَ يصنَعُ لو فَكَّرَ؟
- ٣ - هل تَراهُ في هذا الفصلِ نادِمًا على ما فعلَ؟
- ٤ - كيفَ كانتَ مواقفُ الخَدَمِ من أزمَةِ أسيادِهِم؟ أكانوا شامتينَ، أم كانوا آسفينَ راغبينَ في رأبِ الصَّدعِ؟ كيفَ تُعلِّلُ رأيكَ؟ وما نظرتُكَ إلى مواقفِهِم؟
- ٥ - أأتستطيعُ أن تُضيفَ صفاتٍ أخرى إلى شخصيَّةِ ستيفانِ أوبلنسكي؟ وما هي؟
- ٦ - لِمَ استبشرَ أوبلنسكي بمَقَدَمِ أُختِهِ أَنَا؟
- ٧ - أوجِزُ مَضمونَ الفصلِ في أسطُرٍ قَليلَةٍ .

الفصل الثالث

ما كان ستيفان أوبلنسكي رجلاً ذا وجهين، وما كان منافقاً مُخادِعاً؛ ولكنّه كان يتبع بغريزته من ترجح كفته ويستد ساعده. فهو مواظب على قراءة صحيفة حزب الأحرار، حريص على تتبع أنبائها في كل صباح... ولا يرجع ذلك إلى مشايعته لمبادئ حزب دون حزب، أو لمظاهرتيه لما يُنادي به فريق دون فريق، بل لأن كفة هذا الحزب كانت هي الكفة الراجحة وصحيفته كانت الصحيفة المُشيرة على أوسع نطاق.

وما كان لستيفان أوبلنسكي نظرة بارعة في عالم الفن والأدب، ولا رأي سديد في مجال السياسة، لهذا اكتفى بأن يكون تابعا لتلك الأغلبية القوية، يتلون بحسب لونها، ويتقلب وفقا لتقلبها، تماما كما كان موقفه إزاء قبعته كلما قدمت وحال لونها... ومن يعلم؟ لعل حالته الخاصة في بيته، جعلته أيضا يميل إلى الأحرار، ويشايعهم، ويؤيدهم، ويصفق لهم.

من يدري؟ لعل معيشته الخاصة ولهفته إلى نيل الحرية والانطلاق من قيود الزوجية، هي الحافز له على المناداة بمبادئ الأحرار والتغني بفلسفتهم!

من يدري؟ لعل أعباء الديون الكثيرة التي رزح تحت ثقلها جعلته يعوج^(١) بقلبه ولبيه إلى ناحية الأحرار!

ألم يُناد هذا الحزب بضرورة تجديد النظام، والعرف، والقانون، والسياسة، والحياة برمتها؟

ألم يُناد بضرورة إزالة شوائب الماضي؟ ودُيونهُ، أليست من أقدّر الشوائب؟!
ألم يجهر حزب الأحرار بضرورة تعديل قانون الزواج؟ فلم لا يناد هذا المبدأ عينه

(١) يعوج: يميل.

فُرَّة^(١)، وهو من أشقى الأزواج؟

أَلَمْ يَسْخَرْ حِزْبُ الْأَخْرَارِ مِنَ الدِّينِ، وَيَسْتَهْجِنِ الصَّلَاةَ وَالْعِبَادَةَ؟ وَهُوَ قَدْ طَالَمَا تَبَرَّمَ^(٢) مِنْ اضْطِرَارِهِ لِلْمَكْثِ لِمَكْثِ فِتْرَةٍ طَوِيلَةٍ يَسْتَمِعُ فِيهَا إِلَى مَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ، وَيُضْغِي إِلَى كَلَامٍ مُنْمَقٍ عَنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ... وَمَا جَدْوَى ذَلِكَ؟ أَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْسَى الْآخِرَةَ لِيَسْعَدَ فِي الْعَاجِلَةِ؟ فَلِمَ يُذَكِّرُهُ رَجُلُ الدِّينِ إِذَا بِهِذِهِ النَّهْيَاةُ وَهَذِهِ الْخَاتِمَةُ؟

ثُمَّ، أَلَيْسَ لِحِزْبِ الْأَخْرَارِ تِلْكَ الرُّوحُ الْمَرِحَةُ الطَّيِّبَةُ الْفَكِيهَةُ الَّتِي تَدَعُ رِجَالَهُ الْبَارِزِينَ يُطْلِقُونَ النُّكْتَةَ مِنْ دُونِ خَوْفٍ أَوْ مُبَالَغَةٍ؟ لَقَدْ كَتَبَ أَحَدُ قَادَةِ الْحِزْبِ فِي جَرِيدَةِ الْحِزْبِ، فَقَالَ: «أَنْظُرُوا إِلَى رَسْمِ الْأَمِيرِ «رورك»، ثُمَّ احْكُمُوا عَلَى دَاروين. أَلَيْسَ هُوَ عَلَى حَقِّ فِي نَظَرِيَّتِهِ!». .

وَأَلْقَى أوبلنسكي الجريدة مِنْ يَدِهِ وَوَضَعَ قَبْعَتَهُ عَلَى رَأْسِهِ وَتَأَهَّبَ لِيُعَادِرَ بَيْتَهُ. وَلِكَيْتَهُ تَلَفَّتْ حَوْلَهُ مُخْتَارًا، وَتَرَيَّتْ مُتَمَلِّمًا وَتَسَاءَلَ: «أَتَمَّةٌ أَمْرٌ نَسِيْتُهُ؟ أَهْنَاكَ مَا يَخْلُقُ بِي تَنْفِيذُهُ؟».

وَجَاءَهُ الْجَوَابُ فِي إِهَابٍ وَجْهِ أَطْلَلَّ عَلَيْهِ - وَجْهِ مُقَطَّبٍ تَسْحُ^(٣) مِنْ عَيْنَيْهِ الدُّمُوعُ. فَضْرَبَ عَلَى جَبْهَتِهِ بِيَدِهِ وَعَلِمَ أَنَّه لَمْ يَنْسَ إِلَّا زَوْجَهُ. لَمْ يَنْسَ إِلَّا أَهْمًا مَا كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُذَكَّرَ.

فَهَلْ يَسْعَى إِلَيْهَا؟ هَلْ يَتَقَرَّبُ مِنْهَا؟ وَشَعَرَ بِاشْمِئَازٍ. هَلِ اشْمَازٌ مِنْهَا أَوْ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ هَذِهِ الْمُقَابَلَةِ؟

إِنَّهُ وَائِقٌ مِنْ أَنَّ شَيْئًا لَنْ يُعِيدَ الْمِيَاءَ إِلَى مَجَارِيهَا، أَوْ يَرَأَبَ الصَّدْعَ^(٤) أَوْ يُلَاشِي عَضَبَ زَوْجِهِ وَيَأْسِهَا.

وَتَنَاهَى إِلَيْهِ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَصْوَاتٌ صَحَبٍ وَضَجِيجٍ، فَأَدْرَكَ أَنَّ أَوْلَادَهُ يَلْعَبُونَ فِي

(١) فُرَّةُ الْعَيْنِ: سُكُونُهَا وَرَاحَتُهَا.

(٢) تَبَرَّمَ: مَلَّ وَضَجِرَ.

(٣) تَسْحُ الدُّمُوعُ أَوْ نَحْوَهَا: تَنْصَبُ وَتَنْسَكِبُ.

(٤) يَرَأَبُ الصَّدْعَ: يُضْلِحُهُ.

الحديقة، وأيقنَ أن لا بُدَّ ممَّا ليسَ منه بُدٌّ. ونَقَّبَ في دِمَاغِهِ الْمُضْطَرِبِ عن مَخْرَجِ لِهْدِيهِ
المُشْكَلَةِ فَسَدَّتْ فِي وَجْهِهِ المَنَافِذُ والأَبْوَابُ، وَلَكِنْ مَا ذَنْبُ الأَوْلَادِ؟ مَا ذَنْبُ أَطْفَالِهِ
الأَبْرِيَاءِ؟

وهزَّ رَأْسَهُ وَلَوَّحَ بِيَدِهِ، ثُمَّ مَشَى إِلَى مَخْدَعِ زَوْجِهِ بَعْدَ أَنْ أَشْعَلَ سِيجَارَتَهُ.

أسئلة تحليلية

- ١ - ضَعُ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا .
- ٢ - حدِّدِ الشَّخصيَّةَ السِّياسيَّةَ لأوبلنسكي .
- ٣ - ما العواملُ الَّتِي جَعَلَتْهُ يميلُ إلى حزبِ الأحرارِ؟
- ٤ - ما معنى قولِ أحدِ قادةِ حزبِ الأحرارِ: «انظُرُوا إلى رسمِ الأميرِ ثُمَّ احكُمُوا على داروين . أَلَيْسَ هو على حقٍّ في نَظَرِيَّتِهِ؟»
- ٥ - ما الصِّفَةُ الجَسَدِيَّةُ الَّتِي تراها في شَخْصِيَّةِ الأميرِ «رورك»؟
- ٦ - أوجِزْ مضمونَ الفصلِ في أسطرٍ قَلِيلَةٍ .

الفصل الرابع

وَقَفْتُ دَارِيَا أَلِكْسَنْدَرُونَا بَيْنَ أَكْوَامٍ مِنَ الْأُمْتِعَةِ وَالْمَلَايِسِ وَهِيَ مُتَلَفَعَةٌ بِشِيَابِ السَّفَرِ .
وَكَانَتْ الْأَفْكَارُ قَدْ هَاجَتْ هَمَّهَا وَبَرَتْ^(١) وَجْهَهَا، وَكَانَ شَعْرُهَا الْمُدْبَسُ^(٢) يَنْطِقُ بِذَاتِ نَفْسِهِ
عَنْ مَاضٍ لَهُ مَجِيدٍ، وَكَانَ وَجْهَهَا الشَّاحِبُ النَّحِيلُ يُنْبِئُ بِمَا عَانَتْهُ صَاحِبَتُهُ مِنْ مَضْضٍ .

فَلَمَّا وَلَجَ زَوْجُهَا عَلَيْهَا الْعُرْفَةَ، حَاوَلَتْ أَنْ تَرْمُقَهُ بِنَظْرَةٍ احْتِقَارٍ وَاسْتِهْجَانٍ، وَلَكِنَّهَا
أَخْفَقَتْ فِي جُهُودِهَا، وَاعْرُورِقَتْ عَيْنَاهَا بِالْذُمُوعِ . فَكْرِهَتْ أَنْ تَسْتَوْكِفَهَا^(٣)، فَأَشَاحَتْ عَنْ
زَوْجِهَا، وَهِيَ تَشْعُرُ بِالخَوْفِ وَالْوَجَلِ وَالْإِشْفَاقِ .

كَانَتْ تَخَافُهُ، وَكَانَتْ تَرْجِفُ فَرْقًا^(٤) كُلَّمَا فَكَّرَتْ فِي هَذِهِ الْمُقَابَلَةِ الْمُحْتَمِةِ بَعْدَ
انْكِسَافِ أَمْرِهِ .

وَلَطَالَمَا وَطَّنَتْ النَّفْسَ فِي الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ الْمُنْصَرِمَةِ أَنْ تُغَادِرَ الْبَيْتَ، وَلَطَالَمَا رَبَّتْ أَمْرَهَا
وَحَزَمَتْ رَأْيَهَا وَجَمَعَتْ مَلَابِسَهَا وَمَلَابِسَ أَوْلَادِهَا وَهِيَ تُزْمِعُ عَلَى الْإِنْفِلَاتِ إِلَى مَنْزِلِ أُمِّهَا
وَالْإِقَامَةِ فِيهِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَنْهَارُ وَتَنْهَافُ، وَيَعْشَاهَا مِنَ الشَّجَنِ مَا يَفُتُّ فِي عَضْدِهَا^(٥)
وَيُوهِنُ عَزِيمَتَهَا . وَمَا أَكْثَرَ مَا اسْتَلْقَتْ عَلَى الْأَرِيكَةِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ انْتَابَ إِرَادَتَهَا التَّخَاذُلُ،
وَتَأَوَّهَتْ وَزَفَرَتْ، ثُمَّ قَالَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا: «مِنْ الْمُحَالِ اسْتِمْرَارُ الْحَالِ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ،
وَلَا مَنْدُوحَةٌ لِي عَنْ إِيْتَانِ مَا يُظْفِرُنِي بِأَرْبِي وَبِيْلُنِي طَلْبِي . يَجِبُ أَنْ أُذِلَّهُ وَأَقْهَرَهُ؛ يَجِبُ أَنْ
أُنْتَقِمَ مِنْهُ!»

(١) بَرَتْ وَجْهَهَا: أَضَعَفَتْهَا، أَخْزَلَتْهَا .

(٢) شَعْرُهَا الْمُدْبَسُ: الَّذِي لَهُ لَوْنُ الدُّبْسِ .

(٣) تَسْتَوْكِفُ الذُّمُوعَ: تَسْتَكْبِهَا .

(٤) الْفَرْقُ: الْخَوْفُ .

(٥) يَفُتُّ فِي عَضْدِهَا: يُضْعِفُهَا .

وقد أتعتها فكرها، فعولت على وضع حد لهذه العلاقة، ولكن، كيف؟ كيف تصل إلى هدفها، وهدفها كريمة ممنوح؟ كيف يطاوعها قلبها، وقلبها رقيق مرهف الإحساس؟

وفوق ذلك، ماذا تفعل بالعادة؟ لقد مضت سنون عليهما وهما زوجان سعيدان، يعيشان تحت سقف واحد، وتنفلهما الأيام تارة من التفاؤل إلى التشاؤم، ومن الفوز إلى اليأس، وتارة أخرى تفرز بهما من حرقة الكرب وشدةها إلى راحة الطرب والشور والبهجة.

إنه زوجها على رغم الحوائل كافة، إنه زوجها على رغم ما خامر خاطرها من خيانتها وغدرها، وهو والد أطفالها الخمسة، ولو شاءت أن تقطن في بيت أمها، فهل ينسئ لها اصطحاب أولادها جميعاً؟

ومع ذلك فما انفكت طيلة الوقت تستعد وتستعد، وتعد الثياب وتجهز الأمتعة، وتعيد الترتيب من أوله، وتعيد التثقيف من بدئه. فهل كانت تخذع مشاعرها؟ هل كانت تُغرر بنفسها؟ وهل كانت تُزعم البقاء وتنوي الرحيل في آن واحد؟

وأحسّت بزوجها يدخل، فعبيت يدها في خزانة للثياب، وكأنها تريد منها شيئاً لاستكمال الأهبة.

ووقفت الرجل، والتفتت هي إليه، وعبرت نظرتها عن دهشة وتعجب وحيرة، مع أنها كانت تؤذ لو تطالعها بوجه مُربد وعينين صارمتين قاسيتين، يفيض منهما الاحتقار والازدراء.

وقال بصوت خفيض لطيف أمل هو أن يوصله إلى نيل المراد: «داريا...».

وغص من طرفه محاولة منه للظهور بمظهر التادم المُستغفر؛ وتأوه وكأنه يتحسر على سعد فات، ورغد غب^(١)، ونعيم ولى!

على أن حيويته لم يستطع أن يبدد من مظهرها، ونشاطه عجز عن إخفايته، والعبير... العبير الذي كان يفوح من ملايسه وشعره! ألا يدحض هذا ما حاول إظهاره؟ ألا ينم عن حقيقة خلجاته؟

ونفحصته زوجته، وصعدت فيه نظرها، فأحفظتها^(٢) فوته وفوته، وكدرتها ملامحها

(١) رَغْدُ غَبٍّ: صارَ في نهايته.

(٢) أَحْفَظْتُهَا فُوتَهُ: أغصبتها فُوتَهُ.

المرحة التي تخلُّ له الأصدقاء والمُحِبِّينَ . وَعَجِبَتْ في ما بَيْنَها وبيْنَ نَفْسِها مِن هذا الإِشراقِ
الَّذي لا يَخْبو، وهذا البهَاءِ الَّذي لا يَأْفُلُ .

أَحْنَتْ عَلَيْهِ؛ وَلَعَلَّ سُخْطَها كانَ الحافِزَ إِلَيْهِ غَيْرُها، وَلَعَلَّه كانَ نِتاجَ الفارقِ بَيْنَ نُصْرَتِها
الذَّابِلَةِ، وشبابِهِ المُتألِّقِ الزَّاهِرِ!

وقالَتْ لَهُ بصوتٍ سَريعٍ عَميقٍ، غيرِ طَبِيعِيٍّ: «أَلَكِ حاجَةٌ؟ أَتَريدُ شَيْئًا؟»

فأجابَ مُتَلَعِّمًا مُرتَعِشًا: «أنا قادمةٌ، يا عَزيزتي، قادمةٌ غداً» .

فَهتَفَتْ مُحتدِمةً: «وهل يَعبُرُني الأَمْرُ؟ دَعها تأتي، فَهِيَ أَخُتُكَ!»

- «ولَكنَّ حَريِّي بِكَ أَن تَمَكِّنِي، أَن تَرَبِّها، أَن تُحدِّثِها...» .

فَصَرَختْ مِن دونِ أَن تَنظُرَ إِلَيْهِ، وكانَ صَرَختَها كانتْ عن أَلَمِ جَسَدِيٍّ حادٍّ: «إِذْهَبْ...

إِذْهَبْ... إِذْهَبْ...» .

كانَ في وُسعِ سَيفانٍ أَن يَحْتَفِظَ بِهُدوئِهِ حينَ يُفَكِّرُ في امرَأَتِهِ، وكانَ يَأْمُلُ أَن يُصدِّقَ
حَدَسَ ماتِفي خادِمِهِ فَتَرجِعَ إِلَيْهِ راضِيةً غافِرةً، وَيَرجِعَ هُوَ إلى جَريدَتِهِ هادِئًا مُطمَئِنًّا،
ويَسْتَأْنِفُ شُربَ قَهوَتِهِ في دَعَةِ وسُكونٍ، ويُنصِتَ إلى صَجَّةِ أولادِهِ في حَمانٍ وابتِسامٍ .

ولَكنَّه لَمَّا رَأى وَجْهَها المُتَعَدِّبَ المُتألِّمَ، واستَمَعَ إلى نَبْرَةِ صَوْنِها المُسْتَسَلِمِ لِلقَدَرِ،
المُفْعَمِ^(١) بِالْحُزَنِ واليأسِ، شَعَرَ كَأَنَّهُ يَحْتَنِقُ، وأَحَسَّ بشيءٍ يَقِفُ في حَلْقِهِ حَتَّى لِيَكادُ يَكْتُمُ
نَفْسَهُ... كما أَنَّ العَبْرَاتِ لَمَعَتْ في مُقلَّتَيْهِ، وكانَها تُوشِكُ أَن تَسيلَ مِن عَينَيْهِ .

وسَمِعَ نَفْسَهُ بَعْدَ قَليلٍ يَهْتِفُ مُضَرِّعًا مُملوِّعًا: «داريا! ناسدُتِك اللهُ أَن تُشْفِقي! أنظري،

أنظري!»

فصَفَقَتْ داريا بابَ الخِزانَةِ بعُنفٍ وواجهتُهُ بنظرةٍ صارمةٍ، ولم تَنسِنَ بكلمةِ^(٢) .

وأردَفَ هُوَ باللَّهجةِ نَفسِها: «ماذا أقولُ غيرَ شيءٍ واحِدٍ؟ ماذا أقولُ سوى إِبداءِ النَّدَمِ

واستِجداءِ المَغْفِرَةِ؟ أَي داريا أصغني... اغفوري...» .

(١) المُفْعَمُ: المَلانُ .

(٢) لم تَنسِنَ بكلمةٍ: لم تَنطِقْ بكلمةٍ .

وَانْتَظَرَ هُنَيْهَةً، وَعَادَ يَقُولُ: «تَدَّكَّرِي... تِسْعَ سِنِينَ قَضَيْنَاهَا مَعًا. أَلَا تَسْتَطِيعُ تِسْعَ سِنِينَ أَنْ تَشْفَعَ لِرِزْلَةٍ وَاحِدَةٍ؟»

وَأَطْرَقَتِ الْمَرْأَةُ الْمُوزَعَةُ الْفِكْرَ إِلَى الْأَرْضِ، وَهِيَ تَتَوَقَّعُ بَلْ تَرْجُو مِنْ كُلِّ قَلْبِهَا أَنْ يَقُولَ شَيْئًا يُثَبِّتُ بِهِ بَرَاءَتَهُ.

وَلَكِنَّهُ عَوْضًا مِنْ أَنْ يَتَنَصَّلَ انْدَفَعَ يُثَبِّتُ التُّهْمَةَ بِطَرِيقَةٍ دَامِغَةٍ، فَقَالَ: «نَزْوَةٌ طَارِئَةٌ... شَهْوَةٌ سَاعِيَةٌ... مَسٌّ مِنْ جُنُونٍ... أَلَا... أَلَا...».

«اغْرُبْ عَن وَجْهِ!»

«دَارِيَا...».

«إِذْهَبْ... غَادِرِ الْعُرْفَةَ، وَلَا تُحَدِّثْنِي عَن نَزَوَاتِكَ وَسَقَطَاتِكَ... لَا تُحَدِّثْنِي عَن مُجُونِكَ وَفُسُوقِكَ!»

وَتَحَرَّكَتْ لِتَدْهَبَ، لَتَبْتَعِدَ... وَلَكِنَّهَا تَرَنَّحَتْ فِي مَكَانِهَا، وَكَادَتْ تَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ، لَوْلَا إِسْرَاعُهَا إِلَى الْإِمْسَاكِ بِظَهْرِ الْأَرِيكَةِ.

وَأَجْهَشَ هُوَ، وَكَادَ أَنْ يَذْرِفَ الدَّمْعَ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ مُسْتَعْظِفًا مُسْتَشِيرًا حَنَانَهَا وَشَفَقَتَهَا: «دَارِيَا! أَوْلَادُكَ أَكْبَادِكِ... دَارِيَا! فَكَّرِي فِيهِمْ... مَاذَا اقْتَرَفُوا حَتَّى تُعَاقِبِيهِمْ؟ إِنَّهُمْ أَبْرِيَاءُ، يَا عَزِيزَتِي، وَالْمُذْنِبُ هُوَ أَنَا، فَلَا تُقَوِّضِي مُسْتَقْبَلَهُمْ... وَإِنِّي لَعَلَى أَتَمِّ اسْتِعْدَادٍ لِلْقِيَامِ بِمَا تُقْرِضِينَ... قَوْلِي أَفْعَلْ، مُرِي أَنْفُذْ... فَأَنَا الْمَلَامُ، وَلَيْسَ غَيْرِي... فَسَامِحِينِي وَاصْفَحِي عَنِّي!»

فَقَعَدَتْ عَلَى الْأَرِيكَةِ وَهِيَ تَلْهَتْ مِنَ الْإِعْيَاءِ، وَلَهْفَتْ^(١) نَفْسُهُ، وَتَوَلَّاهُ مَوْجَةً عَارِمَةً مِنَ الْحُزْنِ وَالْإِسْفَاقِ...

وَبَدَلَتْ الزَّوْجَةَ وَسَعَهَا لِتَتَكَلَّمَ، فَلَمْ تَجِدْ إِلَى الْكَلَامِ سَبِيلًا، فَتَمَلَّمَتْ فِي مَكَانِهَا وَتَلَفَّتْ وَتَأَلَّمَتْ.

وَطَاطَأَ أُوْبِلِنْسْكِ رَأْسَهُ شَانَ الْمُجْرِمِ الْمُعْتَرِفِ، وَنَكَّسَ طَرْفَهُ كَمَنْ يَنْتَظِرُ الْحُكْمَ النَّهَائِيَّ، وَانْتَظَرَ..

(١) لَهْفَتْ نَفْسُهُ: حَزِنَتْ، أَسِفَتْ.

وتناهى إليه أخيراً صَوْنُهَا الْعَمِيقُ الْمُتَهَدِّجُ تَأْتُرًا وَاِنْفِعَالًا: «ستيف... ومتى فَكَّرْتَ فِي الْأَطْفَالِ إِلَّا لِتُرْجِي وَفَتَا قَصِيرًا مَعَهُمْ فِي الْعَبَثِ وَاللَّعِبِ؛ أَمَا أَنَا، فَأَنَا أَفَكَّرُ فِيهِمْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا. أَنَا أَبْغِي خَيْرَهُمْ وَسَاعَمَلُ عَلَى إِتْقَادِهِمْ... إِنَّ هَذَا يَعْنِي خِرَابَهُمْ، وَلَكِنْ...»
وَتَدَكَّرَتْ أَنَّ فِكْرَةَ إِيدَاءِ الْأَطْفَالِ قَدْ عَاقَبَتْهَا عَنِ الذَّهَابِ... وَاسْتَعْبَرَتْ عَيْنَاهَا.

لَقَدْ ذَكَرَتْ اسْمَهُ مُصَغَّرًا -ستيف- وَرَنَا هُوَ إِلَيْهَا فِي شُكْرِ وَعِزْفَانٍ، وَتَحَرَّكَ لِيَتَنَاوَلَ يَدَهَا، وَلَكِنَّهَا انْكَمَشَتْ عَلَى نَفْسِهَا نَافِرَةً مُشْمِزَةً، وَاسْتَلَّتْ: «لَا أَتَقَطُّ لِحْظَةً عَنِ التَّفَكِيرِ فِي أَطْفَالِي، وَبُودِي لَوْ أَتَقَدَّيْتُهُمْ... بُودِي لَوْ افْتَدَيْتُهُمْ بِحَيَاتِي.. بِيَدِ أُنِّي لَا أَدْرِي كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى انْتِشَالِهِمْ مِنَ الْوَهْدَةِ الَّتِي طَوَّحَتْ بِهِمْ فِيهَا... أَخْلَاصُهُمْ هُوَ فِي انْتِزَاعِهِمْ مِنْ أَيْبِهِمْ، أَمْ فِي إِبْقَائِهِمْ مَعَ أَبِي فَاسِتِي أَنَانِي؟!- أَجَلُ أَبِي فَاسِتِي مُبْتَدَلٌ!- أَخْبِرْنِي، هَلْ بَعْدَ الَّذِي جَرَى أَمَلٌ فِي الْبَقَاءِ مَعًا؟ أَتَظُنُّ أَنَّ اسْتِثْنَاءَ تِلْكَ الْحَيَاةِ أَمْرٌ مُحْتَمَلٌ؟ هَلْ يُمَكِّنُ هَذَا؟ قُلْ، هَلْ يُمَكِّنُ، بَعْدَ كُلِّ مَا بَدَأَ مِنْ تَرْدِيكَ فِي حَمَاءَةِ الرَّذِيلَةِ^(١)؟ بَعْدَ جُنُوحِكَ إِلَى الْمُغَامِرَةِ الْمُنْحَطَّةِ؟ بَعْدَ إِسْفَافِكَ إِلَى هَذَا الدَّرَكِ؟»

وَجَعَلَ الرَّجُلُ يَبْلُغُ رِيقَهُ فِي حَيْرَةٍ وَارْتِبَاكِ، وَقَدْ انْقَبَضَ انْقِبَاضَ الْيَاسِ، وَأَعْرَضَ عَنْ زَوْجِهِ إِعْرَاضَ الْمُثْقَلِ بِشُعُورِ الْخِزْيِ... وَقَالَ وَهُوَ يَنْجُو بِنَظَرِهِ إِلَى الْحَائِطِ: «فَمَا الْعَمَلُ؟ مَاذَا اسْتَطِيعَ الْآنَ أَنْ أَعْمَلَ؟»

وَانْحَنَتْ صَعْدَتُهُ^(٢)، وَغَضَّ مِنْ نَظَرِهِ.

فَزَمَجَرَتْ مُهْتَاجَةً: «يَا لِلرَّجُلِ الْكَرْبِيهِ! يَا لِلزَّوْجِ الْمَقِيَّتِ! مَا عَبْرَاتُكَ إِلَّا سِتَارٌ لِلْوُؤْمِكِ وَخَبْكِ^(٣)! إِنَّكَ لَمْ تُجِبْنِي قَطُّ، بَلْ كُنْتُ مُنْصَرِفًا عَنِّي إِلَى شُؤْنِكَ الْخَاصَّةِ، وَمَا تَظَاهَرُكَ بِالْحُبِّ، إِلَّا نَاحِيَةً أُخْرَى مِنْ نَوَاحِي خِسْتِكَ! لَقَدْ عَرَفْتُكَ الْآنَ، وَكَرِهْتُكَ نَفْسِي... أَنْتَ غَرِيبٌ عَنِّي... غَرِيبٌ... غَرِيبٌ!»

وَعَصَّتْ، وَاحْتَقَنَ الدَّمُ فِي وَجْهِهَا- مَا أَضْعَبَ الْكَلِمَةَ! مَا أَضْعَبَ الْكَلِمَةَ تَقُولُهَا لِرَجُلٍ عَاشَرْتَهُ وَعَاشَتْ فِي كَنَفِهِ وَأَنْجَبَتْ مِنْهُ أَطْفَالَهَا!

(١) حَمَاءَةُ الرَّذِيلَةِ: وَخَلُّ الرَّذِيلَةِ.

(٢) انْحَنَتْ صَعْدَتُهُ: انْحَنَتْ قَامَتُهُ الْمُسْتَقِيمَةُ.

(٣) خَبْكُ: خِدَاعُكَ.

وَدَهَشَ سَتيفانُ لِهَذِهِ الثَّورَةِ الجامِحَةِ الَّتِي واجَهَتْهُ بِها . ولم يَفْهَمْ كَيْفَ أَثارَ إِشفاقُهُ غَضَبَها
وَحَقَّقَها- لقد وَجَدَتْ فِيهِ شَفَقَةً عَلَيْها لا حُبًّا . . . وَجَدَتْ رِثاءً لا عِشْقًا!

وناجى نفسه والأسى يحز في صدره: «إنها تزدريني، ويا ليتها تفعل، بل إنها تمقتني
مقتًا عظيمًا!»

وَطَفِقَ يُرَدِّدُ بصَوْتِ القانِطِ المُسْتَسْلِمِ: «هذا مُرِيعٌ! مُرِيعٌ!»

وبكى في تلك اللحظة طفلًا في العُرْفَةِ المُجاوِرَةِ، ورُبما يَكُونُ قد سَقَطَ على الأَرْضِ .
وأصاحت داريا، ولانت نظرتها ورقت أساريها، وتَحَفَزَتْ ثُمَّ نَهَضَتْ مُسْرِعَةً إلى البابِ .

وأشرق وجهه أوبلنسكي؛ ورأى في هذا التبدل المفاجيء نوعًا من الأمل في عودة المياه
إلى مجاريها، وقال يحدث نفسه: «إنها أم، وهي تحب الأولاد، أولادي أنا، فكيف
تقلوني؟^(١)»

وسارع يقول قبل أن تخرج: «لي كلمة يا داريا، كلمة فحسب . . .» .

فحدجته بنظرة صارمة متوعدة، وصاحت: «إياك . . . إياك . . . لا تتبغني وإلا دعوت
الخدم لأعرقهم حقيقة نفسك، وأطلعهم على نذالتك! أنا ذاهبة من هنا، ذاهبة إلى غير
رجعة، فاغتبط، ففي إمكانك العيش مع خليلتك . . . عش معها أيها الوغد!»

وخرجت، وشفقت الباب وراءها بعنف .

وتنفس ستيفان الصعداء، وجمجم باسمًا: «قال ماتفي خادمي الأمين إن الزمان كفيلاً
بحل أعقد المشكلات، فكيف؟ وقال إنها سترجع من تلقاء نفسها، فكيف؟ لا أمل في
ذلك؛ بلى، لا أمل . . . أواه! كيف صاحت؟ لا شك أن الخدم سمعوا وهي تصرخ بولء
فيها وتقول- أيها النذل . . . وخليلتك . . . وسوى ذلك! هذا مُرِيعٌ، مُرِيعٌ جدًا!»

وما عثم^(٢) أن خرج من الحجرة، فاستدعى ماتفي وقال: «عليك يا ماتفي أن تُعدَّ غرفة
الضيوف لإقامة شقيقتي أنا، فلا تنس ذلك، إنها قادمة اليوم» .

قال: «لا تخش يا سيدي، فسأحسب لكل شيء حساباً» وألقى ستيفان معطفه على

(١) تقلوني: تكرهني .

(٢) ما عثم أن: ما لبت أن .

مَنْكِبِيهِ، وَدَلَفَ خَارِجًا، وَتَبِعَهُ الْخَادِمُ الْعَجُوزُ، وَسَأَلَهُ وَهُوَ يَهُمُّ بِرُكُوبِ الْعَرَبِيَّةِ: «وَهَلْ تُزِمُّعُ الْعَوْدَةَ لِنَتَاوُلِ الطَّعَامِ؟»

- «قد أفعلُ، فخذُ هذا المَبْلَغَ (وأعْطاهُ عَشْرَةَ رُوبَلَاتٍ) لِنَفَقَاتِ الْبَيْتِ، وَكُنْ مُقْتَصِدًا!»

- «كعادتي دَوْمًا!»

وَأغْلَقَ الْخَادِمُ بَابَ الْعَرَبِيَّةِ وَرَجَعَ أَذْرَاجَهُ.

وكانت داريا في تلك الأثناء قد تدبّرت أمرَ الطفلِ الباكي، وعلمت من صوتِ العَرَبِيَّةِ أَنَّ زَوْجَهَا غَادَرَ الْبَيْتَ، فَرَجَعَتْ إِلَى مَخْدَعِهَا. وكانَ المَخْدَعُ مَلْجَأَهَا الَّذِي تَلوُذُ بِهِ هَرَبًا مِنْ مَتَاعِبِ الْبَيْتِ وَالْأَوْلَادِ.. حتى الخَدْمُ كانوا يُسَبِّونَ لها آلامًا كثيرةً.

وأصابها خوفٌ طاعٍ. لقد ذَهَبَ.. فهل ذَهَبَ على أَلَّا يَعُودَ؟ هل عَزَمَ بَعْدَ أَنْ يَسَرَ مِنْهَا أَنْ يَنْصِمَ العُرَى وَيَقْطَعَ الوَشَائِجِ^(١)؟ «ولكن، لو سلّمتُ جدّلاً بأنّه سَيَرْجِعُ وَيُقِيمُ هُنَا وَأُقِيمُ أَنَا أَيْضًا، فهل يُمكنُ أَنْ نَنْسى الماضي؟ أوَاهُ! لَكُمْ تَوَلَّهْتُ بِحُبِّهِ! لَكُمْ شَغَفْتُ بِهِ! يَا إِلَهِي، يَا إِلَهِي!»

وطفرتِ الدُمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهَا وَمَضَتْ فِي نَجَواها: «لقد أَحْبَبْتُهُ وَلَا أزالُ أُحِبُّهُ، بل إِنَّ حُبِّي لَهُ تَضاعَفَ الآنَ...».

وَقَطَعَتْ عَلَيْهَا حَبْلَ فِكْرِها خادِمَتُها (ماترينا فليمونوفنا) وَهِيَ تَفْتَحُ البابَ وَتَقُولُ: «دَرِينِي أُرْسِلُ فِي طَلَبِ أَخِي، فِي اسْتِطاعَتِهِ تَجْهِيزُ بَعْضِ الْأَطعمَةِ لِلْأَوْلادِ، وَبِذَلِكَ نُجَبِّهُمُ قِضاءَ النَّهارِ طَوايِنَ سَاطِئِينَ»^(٢).

فَقالَتْ: «أَصَبَتْ يا ماترينا، فابْعَثِي فِي طَلَبِهِ... وَلَكِنْ، هل جِئْتِ بِالْحَلِيبِ؟».

وْغابَ عَنِ بالِها أَنَّها غاضِبَةٌ، فَانْهَمَكَتْ فِي أَعْمالِها، وَأَقْبَلَتْ عَلَى تَضْرِيْفِ شُؤُنِ بَيْتِها وَأَوْلادِها.

وَالأُمُّ أُمٌ... دَائِمًا...

(١) الوَشائِجُ: الصَّلَاتُ، الرُّوابِطُ.

(٢) طَوايِنَ سَاطِئِينَ: جَانِعِينَ.

أسئلة تحليلية

- ١ - ضَعِ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا .
- ٢ - ما الحالةُ الشعوريَّةُ الَّتِي عاشَتْها داريا بعدَ أنِ اكتشَفَتْ خيانتَ زوجها لها؟
- ٣ - أَكانتِ داريا تُحِبُّ زوجها، أمَ كانتِ تَكْرَهُهُ؟
- ٤ - ماذا كانتِ تُحِبُّ فيه؟ وماذا كانتِ تَكْرَهُ فيه؟
- ٥ - أترى في داريا مُجرَّدَ امرأةٍ عنيده، أمَ سَيِّدَةً تحترمُ نفسها وتحفظُ عهدَها؟
- ٦ - ذَكَرتِ داريا اسمَ زوجها وهي تُخاطِبُهُ ساخِطَةً، فجاءَ الاسمُ مُصَغَّرًا . علامَ يَدُلُّ ذلك؟
- ٧ - هل تُحَمِّنُ أنَّ الأزمَةَ الَّتِي عَصَفَتْ بِأسرةِ أوبلنسكي ستَهْدَأُ وتَنحَلُّ؟ وما الَّذِي أُوحي لك بذلك؟
- ٨ - أوجِزْ مضمونَ الفصلِ في أسطرٍ قَلِيلَةٍ .

الفصل الخامس

كَانَ سْتِيفَانُ أُوْبِلِنْسْكِي، بِالرَّغْمِ مِنَ الْكَسَلِ الَّذِي عَرَاهُ فِي الصَّغَرِ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ اسْتِهْتَارِهِ بَعْدَ أَنْ شَبَّ وَاكْتَمَلَ، قَدْ شَغَلَ مَنْصِبًا سَامِيًا فِي مُوسْكُو. وَمَا كَانَ تَوْفِيقُهُ فِي حَيَاتِهِ تِلْكَ إِلَّا بِفَضْلِ زَوْجِ شَقِيقَتِهِ أَنَا وَيُدْعَى أَلِيكْسِيْسَ كَارْنِينِ، وَكَانَ قُطْبًا مِنْ أَقْطَابِ الْحُكُومَةِ فِي ذَلِكَ الْحِينِ.

وَمَا كَانَ سْتِيفَانُ لِيُقَصِّرَ عَنِ الظَّفَرِ بِمِثْلِ هَذَا الْمَنْصِبِ لَوْ لَمْ يُعِنَهُ أَلِيكْسِي فِي ذَلِكَ، فَتَمَّةٌ مِثْلُ غَيْرِ أَلِيكْسِي كَانُوا عَلَى تَمَامِ الْأَهْبَةِ لِيُقَدِّمُوا لَهُ الْمُسَاعَدَةَ اللَّازِمَةَ. . . تَمَّةٌ مِثْلُ مَنْ الشَّخْصِيَّاتِ الرَّفِيعَةِ الْخَطِيرَةِ الَّتِي تَشْجُبُهَا^(١) بِسْتِيفَانَ صِلَاتِ الثَّرْبِيِّ وَالصَّدَاقَةِ كَانُوا لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْ تَمْهِيدِ طَرِيقِ النَّجَاحِ لِلشَّابِّ لَوْ لَمْ يَسْبِقَهُمْ كَارْنِينُ إِلَى ذَلِكَ.

فِيضْفُ أَهَالِي مُوسْكُو وَبَطْرَسْبِرْجَ كَانُوا مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهِ. وَأَعْنِي بِالنُّصْفِ، تِلْكَ الطَّبَقَةُ الْمُتَرْفَعَةُ الَّتِي تَضَعُ يَدَهَا عَلَى مَقَالِيدِ الْأُمُورِ، وَتُهَيِّمُنُ عَلَى شُؤُونِ الدَّوْلَةِ. لِهَذَا كَانَ خَلِيقًا بِهِ أَنْ لَا يَشْقَى فِي الْحُصُولِ عَلَى مَا يَبْتَغِي شَرِيطَةَ أَنْ لَا يَشْرَيْتَبَّ بِعُنُقِهِ إِلَى أَعْلَى. . . أَيَّ عَلِيٍّ أَنْ يَقْنَعَ بِالَّذِي ظَفَرَ بِهِ، فَلَا يَلِجَ مَفَاحِمَ مَنْ هُمْ أَعْظَمُ قَدْرًا وَأَخْطَرُ مَكَانَةً.

وَكَانَ سْتِيفَانُ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ الْجَمِيعِ بِهِ؛ فَهُوَ مُسَالِمٌ بِطَبْعِهِ، يَنْفُرُ مِنَ الْمُشَاحَنَاتِ، وَيَخْرِصُ عَلَى تَجَنُّبِ مَا يُرِيبُ، حَتَّى وَفَّقَ بِحُسْنِ خِلَالِهِ إِلَى اسْتِيلَالِ كُلِّ حَذَرٍ يَنْوُبُ رَيْسًا أَوْ مَرْؤُوسًا.

كَانَ يَضْدُفُ عَنِ الْمُجَادَلَةِ، وَيَبْتَعِدُ جُهْدَهُ عَنِ الْمُنَاقَشَةِ، وَيَتَكَلَّمُ بِلِسَانٍ خَاضِعٍ، وَصَوْتٍ لَطِيفٍ. . . وَيَضْحَكُ فِي وَجْهِ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَيَغْفُو وَيَضْفَحُ مَهْمَا كَانَتْ الْإِسَاءَةُ بِالْغَةِ.

ثُمَّ إِنَّهُ كَانَ مَجَانًا، مَرَحًا، يُوحِي بِرَيْقِ عَيْنَيْهِ بِيَبَاضِ قَلْبِهِ، وَتُقْشِي انْفِلَاقَهُ أَسَارِيرَهُ طِيبَ

(١) تَشْجُبُهَا: تَرْبِطُهَا.

حتى إنَّ كُلَّ صَدِيقٍ كَانَ يُقَابِلُهُ بِتَحِيَّةٍ حَارَّةٍ، فيقول: «هذا أنت يا ستيفا...» ويتَّسِمُ الصَّدِيقُ ابْتِسَامَةً مُخْلِصَةً، وَيُرَبِّتُ عَلَى ظَهْرِهِ مُتَوَدِّدًا مُتَحَبِّبًا.

وَاسْتَطَاعَ إِبَانَ الْأَعْوَامِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي قَضَاهَا فِي الْوِظْفِيَّةِ أَنْ يُوطِّدَ مَرْكَزَهُ فِي قُلُوبِ الْجَمِيعِ، وَأَنْ يَدْعَمَ مُسْتَقْبَلَهُ بِطَرِيقَةٍ فَعَالَةٍ. فَهُوَ يُغْضِي حَتَّى لَا يَجْلِبَ الْمَضْرَّةَ لِلغَيْرِ وَالكَدْرَ لِنَفْسِهِ... وَهُوَ يَتَوَاضَعُ حَتَّى لَا يَتَضَاعَفَ كُرْهُهُ الْفِطْرِيُّ مِنَ التَّعَالِي وَالْعَجْرَفَةِ... وَهُوَ يُحِبُّ الْجَمِيعَ وَيُحِبُّ نَفْسَهُ... ثُمَّ هُوَ لَا يَحْوِلُ مَسْئُولِيَّةً، وَيَعْمَلُ عَمَلًا هَيِّئًا، وَيَرعى رَاحَتَهُ وَمَصْلَحَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَرعى مَطَالِبَ الْوِظْفِيَّةِ وَمَصْلَحَةَ الْعَمَلِ.

كَانَ أوبلنسكي كَمَا قُلْنَا يَحْيَا حَيَاةً سَطْحِيَّةً؛ كَانَ يَحْيَا بِجِسْمِهِ مَعَ زَوْجِهِ، وَقَلْبُهُ فَارِعٌ مِنَ الْحَيَاةِ. فَلَمَّا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، وَمَضَى فِي ذَلِكَ الصَّبَاحِ الْمَشْهُومِ إِلَى مَقَرِّ عَمَلِهِ، كَانَ شَارِدَ اللَّبِّ، زَائِعَ الْبَصَرِ، يَضْرِبُ أَحْمَاسًا لِأَسْدَاسٍ، كَمَنْ يُظْهِرُ شَيْئًا وَيُرِيدُ غَيْرَهُ.

فَلَمَّا دَخَلَ مَكْتَبَهُ حَيَاةُ الْجَمِيعِ وَرَحَّبُوا بِهِ. ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ شَابٌّ كَانَ أَشَدَّهُمْ ظَرْفًا وَأَكْثَرَهُمْ كِيَاَسَةً، فَمَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِ مُخْتَلِفَ الْأُورَاقِ.

وَأَنْصَتَ أوبلنسكي أَوْ تَظَاهَرَ بِالْإِنْصَاتِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْقَهُ مَا يَقُولُهُ الشَّابُّ، بَلْ مَضَى يَهْجُسُ فِي مُصِيبَتِهِ، ثُمَّ نَاجَى نَفْسَهُ بِاسْمًا: «أَوْاسْتَطِيعُ أَنْ أَعْمَلَ؟ لَوْ أُطْلِعَ هَوْلَاءِ الشُّبَّانِ عَلَى جَرِيرَةِ رَأْسِهِمْ، وَاسْتَطَاعُوا أَنْ يَرَوْهُ وَهُوَ يَقِفُ فِي مَدَلَّةِ أَمَامِ زَوْجِهِ لَكَانَ مَوْقِفُهُمْ مِنِّي غَيْرَ مَوْقِفِهِمْ، وَنَظَرُهُمْ إِلَيَّ غَيْرَ نَظَرَتِهِمْ».

وَمَضَتِ السَّاعَاتُ؛ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي سَاعَةِ الظَّهْرِ شَابٌّ مَدِيدٌ، مُتَّصِبٌ، يَدُلُّ مَظْهَرُهُ عَلَى الْقُوَّةِ وَالْعَزْمِ، وَتُنْبِيءُ سِيمَاهُ بِالصَّرَاحَةِ وَالْحَزْمِ.

وَمَا كَادَ سَتِيفَانُ يَشْعُرُ بِمَقْدَمِ الرَّجُلِ حَتَّى انْتَصَبَ وَاقِفًا وَمَدَّ لَهُ يَدَهُ مُصَافِحًا، وَقَالَ: «عَلَى الرَّحْبِ، عَلَى الرَّحْبِ، مَتَى قَدِمْتَ؟»

فَأَجَابَهُ الشَّابُّ: «مُنْذُ يَسِيرٍ، وَهَا أَنَا آتِي إِلَيْكَ!»

وَصَمَتَ فَيْنَةُ ثُمَّ أَمَّتْ: «وَلِي عِنْدَكَ مَآرَبٌ، فَهَلْ لَدَيْكَ فُسْحَةٌ مِنَ الْوَقْتِ لِتَسْمَعَ مَا أَقُولُ؟»

وكانَ هذا الشابُّ يُدعى ليفينَ، وهوَ أقربُ أصدِقاءِ ستيفانَ إلى قلبِهِ. فقد تبادَلَ الشَّابانِ الحُبَّ وهُما طفلانِ، ولَمَّا ترعرعا وشبَّا عَنِ الطَّوقِ مَحْضٍ^(١) الواحِدُ مِنْهُما الآخرَ الوُدَّ والصَّفاءَ، وأَخْلَصَ لَهُ أَيُّما إِخْلاصِ.

وعَمِلَ ستيفانُ في الحُكُومَةِ؛ أَمَّا صَدِيقُهُ ليفينُ، وكانَ نَفورًا بِطَبِيعِهِ مِنَ المُجْتَمَعاتِ، فقد فرَّ هارِبًا مِنَ موسكو، وانْتَجَعَ الرِّيفَ حَيْثُ عاشَ هانِئًا سَعِيدًا مُرتاحًا مِنَ مَشاكِلِ المَدِينَةِ ومَتاعِهَا.

ولَمَّا اسْتَبَّ بالشَّابِّ المُقامُ عادَ ستيفانُ يَقولُ بِلَهْجَةٍ تَشِفُّ عَن طَبِيعِهِ وَصِراحيَتِهِ: «إِنِّي سَعِيدٌ بِرُؤيتِكَ يا صَدِيقِي، فَأَيْنَ كُنْتَ؟ وما الَّذِي حَبَسَكَ عَنَّا؟»

فأَجابَ ليفينُ: «كُنْتُ في الرِّيفِ كما تَعَلَّم، أَمَّا مِشاعِرِي فقد كَانَتْ في موسكو!»
- «وَسَتَنأولُ طَعامَ العَداءِ مَعًا اليَومَ».

- «بُودِي لو قَدَرْتُ؛ وما سَوفَ أَقولُهُ لَكَ، لا يَسْتَعْرِقُ بَنُهُ أَكثَرَ مِنَ دَقائِقِ».

- «قُلْ ما تَشاءُ بِإيجازِ، ثُمَّ بِإِسهابٍ حَولَ مائِدَةِ العِشاءِ».

فَتَمَلَّمَ ليفينُ مُتَحَرِّجًا، ثُمَّ تَضَرَّجَ وَجْهُهُ حَياءً، وأُلْجِمَ لِسانَهُ. وَلَكِنَّهُ اسْتَجَمَعَ قَواهُ بَعْدَ لَأْيٍ^(٢)، وَقَالَ وَهُوَ مُطَرِّقٌ: «أَرَدْتُ أَنْ أَجْتَمِعَ إِلَيْكَ لِأُخْبِرَكَ أَنِّي... أَنِّي...!»

وَصَمَّتْ كَأَنَّ القَولَ أُزِيجَ^(٣) عَلَيهِ، وما عَتَمَ أَنْ أَرَدَفَ يَقولُ: «لن أَكثِرَ القَولَ في ما لا مَنفَعَةَ فِيهِ، فَمَماذا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَرِفَّ إِلَيَّ مِنَ أَخبارِ الأَميرِ شِرباتسكي وَعائِلَتِهِ؟ قُلْ كُلَّ شَيْءٍ وَسأكونُ لَكَ مِنَ الحامِدينَ!»

فَضَحِكَ أوبلنسكي ضِحكةَ المَرَحِ، وكأَنَّهُ نَسِيَ مُشكِلتَهُ المُستَعصِيَةَ وَقَالَ: «إِنَّهُمُ على خَيرِ ما يُرامُ».

واستَعْرَضَ في ذَهِبِهِ صَورَةَ كاترينِ ابْنَةِ الأَميرِ وشَقيقَةِ دارِيا زَوجَتِهِ، وَفَكَرَّ في تَعَلُّقِ ليفينَ بِهَا وَتَدَلُّهِ بِحُبِّهَا.

(١) مَحْضُهُ الرُّدُّ: أَخْلَصَهُ لَهُ.

(٢) بَعْدَ لَأْيٍ: بَعْدَ جَهِدٍ وَمَشَقَّةٍ.

(٣) أُزِيجَ عَلَيْهِ القَولَ: أَغْلِقَ بَأْهُ.

وصَعَدَ فِي صَدِيقِهِ بَصْرَهُ، ثُمَّ بَشَّ ثَانِيَةً وَقَالَ بَوَجْهِ طَلْقِي: «وإِنْ شِئْتَ رُؤْيَتَهَا، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تُوِّمَ حَلْبَةَ التَّرْلُجِ فِي حَدِيقَةِ الْحَيَوَانَاتِ.. فَهَنَّاكَ تَجِدُهَا، هَنَّاكَ تَلْقَى كَاتِرِينَ كُلَّ يَوْمٍ قَبْلَ الْأَصِيلِ، بَيْنَ الثَّالِثَةِ وَالْخَامِسَةِ!»

فَاسْتَشَعَرَ لَيْفِينَ الْإِنْشِرَاحَ، وَسَعَّتْ عَيْنَاهُ بِنُورِ الْحُبُورِ، وَلَكِنَّهُ تَنَبَّهَ إِلَى عَيْنِي صَدِيقِهِ الْمَتْرَقِبَتَيْنِ، فَتَضَرَّجَ وَجْهَهُ، وَأَيَّقَنَ أَنَّ شَوْقَهُ قَدْ فَضَحَهُ. وَلَكِنَّهُ أَنْشَأَ يَقُولُ وَهُوَ يُغَالِبُ حَيَاءَهُ: «وَسَأَلْفَاكَ هُنَاكَ إِذَا فِي الْحَلْبَةِ... أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

قَالَ: «أَجَلْ، أَجَلْ... وَسَتَتَنَاوَلُ طَعَامَ الْعِشَاءِ مَعًا فِي مَا بَعْدُ».

وَأَسْرَى هَمُّ لَيْفِينَ، وَتَلَاشَى اضْطِرَابُهُ، وَأَقْبَلَ عَلَى صَدِيقِهِ يُصَافِحُهُ وَيَشْكُرُ لَهُ صَنِيعَهُ.

وَمَا أَبْطَأَ أَنْ انْصَرَفَ لَا يُلُوي عَلَى أَحَدٍ، وَقَدْ أَنْحَى عَلَى نَفْسِهِ بِاللَّائِمَةِ، وَعَدَلَهَا عَلَى تَرْدُودِهَا وَخَوَرِهَا وَحَيَائِهَا... وَعَتَفَتْ تِلْكَ النَّفْسَ الْخَائِرَةَ عَلَى فُقْدَانِهَا مَعَانِي الشَّجَاعَةِ، وَإِلَّا لَكَانَ ابْتَدَرَ صَدِيقَهُ أَوْلِنَسْكَي بِالْوَاقِعِ، وَقَالَ: «مَا جِئْتُ إِلَى مُسْكَو إِلَّا لَهَا، مَا تَجَسَّمْتُ مَشَاقَّ السَّفَرِ إِلَّا لِأُكْحَلَ عَيْنِي بِمَرَايِ كَاتِرِينَ، فَمَا قَوْلُكَ؟»

* * *

كَانَتْ عَائِلَتُنَا «شِرْبَاتَسْكَي» وَ«لَيْفِينَ» مِنَ الْعَائِلَاتِ الْقَدِيمَةِ الْمَعْرُوفَةِ فِي مُسْكَو، وَكَانَ بَيْنَهُمَا مِنْ أَوَاصِرِ الْقُرْبَى وَالصَّدَاقَةِ الْوَشِيجَةِ مَا جَرَى مَجْرَى الْمَثَلِ. وَقَدْ تَوَثَّقَتْ غُرَى الْمَحَبَّةِ وَالْأُلْفَةِ بَيْنَ لَيْفِينَ الشَّابِّ وَنِيْكَوَلَا شِرْبَاتَسْكَي، شَقِيقِ دَارِيَا وَشَقِيقِ الْحَسَنَاءِ كَاتِرِينَ، الَّتِي افْتَنَّ بِهَا لَيْفِينَ.

وَالْعَجِيبُ فِي الْأَمْرِ أَنَّ لَيْفِينَ تَعَثَّرَ قَلْبُهُ فِي هَوَى دَارِيَا قَبْلَ زَوَاجِهَا ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَحَوَّلَ إِلَى شَقِيقَتِهَا، فَكَانَ حُبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا مُضْطَرِّمًا لَا تَخْمَدُ لَهُ وَقْدَةٌ.

وَطَفِقَ مِنْ بَعْدِ يَتَرَدَّدُ عَلَى بَيْتِ الْعَائِلَةِ الْعَرِيقَةِ، وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يَحَوَّرَ مَعْنَمًا، وَيَفُوزَ بِضَالَةٍ. وَلَمْ يَزَلْ الْأَرْزَمُ لَهَا مِنْ ظِلِّهَا كُلَّمَا أَمَّ مُسْكَو، حَتَّى أَيَّقَنَ الْجَمِيعُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مُتَقَدِّمٍ إِلَى أَوْلِيَاءِ أَمْرِهَا لِخَطِيئَتِهَا، وَأَنَّهُ لَنْ يَلْبَثَ طَوِيلًا حَتَّى يَطْلُبَ يَدَهَا.

وَلَكِنَّهُ وَقَدْ لَزِمَهَا شَهْرَيْنِ، وَرَاقَبَهَا عَنْ كَثْبٍ، وَسَبَرَ غَوْرَهَا وَأَصْغَى لِحَدِيثِهَا، رَاعَهُ مَا رَأَاهُ مِنْ سُمُو خُلُقِهَا، وَحَصَافَةِ تَفْكِيرِهَا، وَالتَّزَامِهَا جَادَةَ الشَّرْفِ وَالِاسْتِقَامَةِ، وَأَيَّقَنَ أَنَّ تَصَدِيقَهُ

لِلظَّفَرِ بِهَا حَلِيلَةً، أَمْرٌ دُونَهُ خَرْطُ الْقَتَادِ^(١)، وَلَمْ يَجِدْ مَدْوَحَةً فِي النَّهْيَةِ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى قَرِيْبِهِ وَالْإِنْطِوَاءِ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى سَقَمِ قَلْبِهِ وَدَنْفِهِ^(٢)!

وَلَمَّا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِتَقْوِيَةِ نَفْسِهِ، أَفَاقَ مِنْ غَيْبُوْبَتِهِ الَّتِي رَمَاهُ فِيهَا الْحُبُّ الْمُبْرَحُ، وَعَجِبَ كَيْفَ دَاخَلَ حِسَّهُ وَتَفَكَّرَهُ أَنَّ كَاتَرِيْنَ لَنْ تُجِبَّهُ قَطُّ، وَلَنْ تُقْبَلَ بِهِ بَعْلًا. كَمَا أَنَّ أَفْرَادَ عَائِلَتِهَا سَيَرْفُضُوْنَ طَلْبَهُ وَيُرَدُّوْنَهُ خَائِبًا خَاسِتًا... أَلَيْسَ هُوَ شَابًا يَتَمِي بِعَمَلِهِ إِلَى طَبَقَةِ الْفَلَاحِيْنَ؟ أَلَيْسَ هُوَ شَابًا مَنَسِيًّا، لَا تَعْرِفُ بِهِ أُنْدِيَةَ مُوسِكُو اللَّيْلَةِ؟ أَلَا يُعْنَى بِالسَّائِمَةِ^(٣)، فِيرِيْبُهَا وَيَتَعَهَّدُهَا وَيُنَاجِرُ بِهَا؟ فَأَيْنَ هُوَ إِذَا مِنْ كَاتَرِيْنَ؟ وَأَيْنَ مَكَائِثُ الْمَرْمُوقَةِ فِي الْحُكُومَةِ؟

فَمَا إِنْ فَتَلَ رَاجِعًا إِلَى مُوسِكُو حَتَّى هَاجَ الْحَنِيْنُ بِقَلْبِهِ، وَثَارَتْ كَوَامِيْنُ شَوْقِهِ وَحَنِيْنِهِ، وَعَزَمَ وَقَدْ أَذْنَقَتْهُ هَلِيْبَةُ التَّبَارِيْحِ أَنَّ يَسْتَطْلِعَ طَلْعَ مَحْبُوْبَتِهِ، وَيَكْتَنِيَنَّ رَأْيَ أَهْلِهَا فِي شَخْصِيَّتِهِ، وَلِيَفْعَلَ اللهُ مَا يَرَاهُ أَمْرًا عَقْضِيًّا، وَلِيَقْضِ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَرَاهُ... .

وَقَرَّرَ أَنْ يَتَقَدَّمَ مِنْ أَبِيْهَا فَيَطْلُبُ يَدَهَا، فَمَنْ يَعْلَمُ؟ قَدْ يُكْرِمَانِ وَفَادَتُهُ، وَيُبَلِّدَانِ مَخَافَتَهُ، وَيَسْتَجِيْبَانِ إِلَى طَلْبِهِ، فَيُحَقِّقَانِ بِذَلِكَ سَعَادَةَ قَلْبِهِ وَرُوحِهِ!

فَإِذَا رَفُضَا، وَإِذَا رَفُضَتْ؟

وَيَلَاهُ! مَاذَا هُوَ صَانِعٌ إِنْ رَفُضُوا؟

وَطَرَدَ مِنْ رَأْسِهِ هَذِهِ الْأَفْكَارَ، وَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى اللهِ مُسَهِّلِ الْأَوْطَارِ، وَعَالِمِ الْأَسْرَارِ!

(١) خَرْطُ الْقَتَادِ: انْتِزَاعُ شَوْكِ الْقَتَادِ بِالْيَدِ وَهُوَ أَمْرٌ بِالْغِ الصُّعُوْبَةِ.

(٢) دَنْفُهُ: مَرَضُهُ الثَّقِيْلُ الْمَلَاذِمُ لَهُ.

(٣) السَّائِمَةُ: الْمَاشِيَةُ.

أسئلة تحليلية

- ١ - ضَعُ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا .
- ٢ - ما الخِصَالُ التي جعلتْ ستيفان أويلنسكي محبوبًا لدى أقربائِهِ وأصدقائِهِ؟
- ٣ - أَتَرْضَى أَنْتَ عن هذه الخِصَالِ في المرءِ؟
- ٤ - حَدِّدْ خِصَالَ شَخْصِيَّةِ ليفين كما بَدَتْ لك من خلالِ هذا الفصلِ .
- ٥ - أَتَقَعُ في ما قرأتَ حتَّى الآنَ، ولا سيَّما في هذا الفصلِ، على ملامحَ طبقيَّةٍ في المجتمعِ الروسيِّ؟ وما هي؟
- ٦ - أَنْتَ، في هذا الفصلِ، أمامَ ملامحِ عقدةٍ جديدةٍ، أتستطيعُ أن تُحدِّدها؟ مَنْ بطلُها؟ وماذا تتوقَّعُ لها حلًّا؟
- ٧ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أسطرٍ قليلةٍ .

الفصل السادس

إِسْتَقَلَّ لَيْفِينُ الْعَرَبَةَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ، وَتَرَجَّلَ مِنْهَا فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنِ حَلْبَةِ التَّرْلُجِ، ثُمَّ مَشَى إِلَيْهَا بِخُطَوَاتٍ بَطِيئَةٍ مُتَرَدِّدَةٍ، وَنَفْسٍ هَاجِسَةٍ مُتَوَجِّسَةٍ، وَهُوَ يُوَدُّ لَوْ عَادَ أَدْرَاجَهُ حَتَّى يَسَلَّمَ مِنْ هَذَا الْقَلَقِ الشَّدِيدِ الَّذِي طَفِقَ يَمْلَأُ صَدْرَهُ. وَلَكِنَّهُ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ خَوْفِهِ وَذُعْرِهِ، مَشَى مُتَّجِهَاً إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ حَتَّى لَا يَهْدِمَ بَحْيَائِهِ وَتَرُدُّدِهِ مَا سَعَى إِلَيْهِ لِلْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ، وَحَتَّى لَا يَلُومَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ نَفْسَهُ الَّتِي أَضَاعَتْ بِجُبْنِهَا مِئَةَ قَلْبِهِ وَهِنَاءَةَ رُوحِهِ. وَقَدْ يَقِيهِ اللَّهُ، إِنْ أَقْدَمَ، مَرَارَةَ الْحَبِيبَةِ، فَيُنَجِّيهِ مِنَ الْعَثَرَاتِ، وَيُوصِلُهُ إِلَى شَاطِئِ السَّلَامَةِ مَوْفُورَ الْقُوَّةِ وَالْكَرَامَةِ.

وَقَالَ وَهُوَ يُشْرِفُ عَلَى الْحَلْبَةِ: «وَيْلَكَ يَا نَفْسُ!»^(١) قَدَّمِي لِصَاحِبِكَ صَالِحًا! وَيْلَكَ يَا نَفْسُ! لَا تُرَاعِي، وَازْدَرِي الْخَوْفَ كَمَا اذْدَرَيْتِ مِنْ قَبْلِ زُخْرَفِ الْحَيَاةِ.

وَضَعُفَتْ ثِقَتُهُ بِنَفْسِهِ سَاعَةَ ظَهَرَ النَّاسُ لِبَصَرِهِ، وَشَعَرَ بِالشَّرُورِ وَالغَيْطَةِ، كَمَا دَاخَلَهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنَ الْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ.

وَأَيْقَنَ مِنْ لَمَحَاتِ فِكْرِهِ وَاضْطِرَابَاتِ إِحْسَاسِهِ أَنَّ حَبِيبَةَ قَلْبِهِ مَوْجُودَةٌ لَا مَحَالَةَ.

فَمَنْ، مَنْ يُوَصِّلُهُ إِلَى نَيْلِ الْمُرَادِ؟ وَحَرِّضَهُ الشُّوقُ عَلَى أَنْ يَخْطُوَ إِلَى الْأَمَامِ مُتَعَلِّبًا عَلَى حَيَائِهِ وَفَزَعِهِ.

وَمَا هِيَ إِلَّا دَقِيقَةٌ حَتَّى بَدَتْ لَهُ كَاتِرِينَ، وَتَرَاءَتْ كَأَنَّهَا وَرْدَةٌ بَيْنَ حَشَائِشٍ، إِنْ لَمْ تَقُلْ بَيْنَ أَشْوَاكِ! وَكُلُّ شَيْءٍ سَطَعَ حَوْلَهَا، فَكَانَتْ كَالْإِتْسَامَةِ الَّتِي أَضْفَتِ النُّورَ عَلَى مَنْ يُحِيطُ بِهَا.

«فَهَلْ يُمَكِّنُنِي أَنْ أُسِيرَ إِلَيْهَا؟ هَلْ أَجْرُؤُ عَلَى الْإِقْتِرَابِ مِنْهَا؟» جَعَلَ لَيْفِينُ يُنَاجِي نَفْسَهُ.

(١) وَيْلَكَ: وَيْحَكَ.

وَحَيْلَ إِلَيْهِ أَنْ الْمَكَانَ الَّذِي اخْتَلَتْهُ مَا هُوَ إِلَّا مِحْرَابٌ مُقَدَّسٌ لَا يَرْقَى إِلَيْهِ أَحَدٌ. وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الْهَلَعُ، وَانْتَنَى يُزِمِعُ الرُّجُوعَ مِنْ حَيْثُ أَتَى. لَكِنَّهُ تَغَلَّبَ عَلَى خَوْرِهِ وَوَهِنِ عَزِيمَتِهِ، وَتَدَكَّرَ وَهُوَ يَبْتَسِمُ ابْتِسَامَةً فَاتِرَةً أَنْ غَيْرَهُ يَحُومُ حَوْلَهَا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ضِيَائِهَا وَبَهَائِهَا وَرُؤَائِهَا! وَمَشَى مِنْ بَعِيدٍ، مَشَى لِذَقَائِقِ عَدِيدَةٍ يَزْنُو وَلَا يَدْنُو، وَيَخْتَلِسُ التَّطَرَّ وَلَا يَتَقَدَّمُ!

فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ كَانَ يُؤْمُ حَلَبَةَ التَّرْلُجِ خَلِيطَ مِنَ النَّاسِ. كَانَ مِنْهُمْ أَبْطَالُ اللَّعِبِ عَلَى التَّلَجِ، وَكَانَ مِنْهُمْ الْمُبْتَدِئُونَ. كَانَ مِنْهُمْ طُلَّابُ الْمُتَعَةِ، وَكَانَ مِنْهُمْ الْبَاحِثُونَ عَنِ الشُّهُورَةِ... وَرَمَقَ لَيْفِينُ حَبِيبَةَ قَلْبِهِ، وَتَفَرَّسَ فِي الْقَوْمِ الْآخَرِينَ، وَأَيَّقَنَ سَاعَتَ ذَلِكَ أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ جَمِيعًا، لِأَنَّهُمْ يُحِيطُونَ بِهَا إِحَاطَةَ الْهَالَةِ بِالْقَمَرِ.

وَبِينَا هُوَ مُنْصَرِّفٌ إِلَى هَوَاجِسِهِ وَأَفْكَارِهِ، لَا تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ التَّقَدَّمَ، إِلَّا وَيَذْفَعُهُ خَوْفُهُ وَيَذَرُّهُ، إِذْ بِقَائِلٍ يَهْتَفُ: «هَذَا هُوَ بَطْلٌ رُوسِيَا الْأَوَّلُ فِي التَّرْلُجِ! فَمَتَى قَدِمْتَ يَا لَيْفِينُ؟ وَكَيْفَ لَمْ نَسْمَعْ بِمَقْدَمِكَ؟»

وَكَانَ الْمُتَكَلِّمُ يُدْعَى «نِيكُولَاي شِيرْبَاتسْكِي»، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ كَاتَرِينَ.

وَافْتَرَبَتْ كَاتَرِينَ فِي حَذَرٍ كَأَنَّهَا تَخَافُ السَّقُوطَ، وَوَجَفَ قَلْبُ لَيْفِينِ، وَتَحَجَّرَتْ نَظْرَتُهُ، وَطَفِقَ يَتَأَمَّلُ صَامِتًا فِي هَذَا الْحُسْنِ الرَّائِعِ. ثُمَّ صَعَدَ طَرْفُهُ إِلَى عَيْنَيْهَا اللَّتَيْنِ تَنْطِقَانِ دَوْمًا بِالطَّبِيبَةِ وَالْإِبَاءِ وَالصَّدَقِ.

وَقَالَتْ بِصَوْتِهَا الْحَنُونِ الْهَادِي: «وَمَتَى قَدِمْتَ مُوسِكُو؟» وَأَعْطَتْهُ يَدَهَا، وَاسْتَشَلَّتْ وَهُوَ يُقَدِّمُ لَهَا مِندِيلَهَا الَّذِي سَقَطَ مِنْهَا: «لَكَ شُكْرِي وَامْتِنَانِي».

وَقَالَ: «أَنَا؟ لَمْ آتِ... إِلَّا... الْبَارِحَةَ... أَعْنِي الْيَوْمَ... وَكُنْتُ أَنْوِي زِيَارَتِكَ!» وَكَأَنَّهُ تَدَكَّرَ أَنَّهُ كَانَ عَازِمًا عَلَى الْاجْتِمَاعِ إِلَيْهَا، فَتَضَرَّجَ وَجْهُهُ حَيَاءً!

وَتَأَلَّقَتْ شَفَاتُهَا بِابْتِسَامَةٍ سَاحِرَةٍ خَالِيَةٍ، فَمَادَتْ الْأَرْضُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، وَكَادَ يَتَهَاوَى مِمَّا حَلَّ بِهِ. وَلَكِنَّهَا أَنْقَذَتْهُ فَقَالَتْ: «أَنَا جِدُّ مَسْرُورَةٍ بِمَجِيَّتِكَ!»

فَقَالَ: «لَمْ أَكْ أَعْلَمُ أَنَّكَ مَاهِرَةٌ فِي التَّرْلُجِ».

فَتَمَعَّتْ فِي وَجْهِهِ، وَكَأَنَّهَا تَرُومُ سَبْرَ غُورِهِ، وَاسْتِشْفَافَ مَا يُرْبِكُهُ وَيُثْلِقُهُ، وَمَا لَبِثَتْ أَنْ أَجَابَتْ: «تَنَاوُكَ عَلَيَّ لَهُ قِيمَتُهُ، فَكُلُّ امْرِئٍ يَعْرِفُ أَنَّكَ أَمْهَرُ مَنْ تَرْلُجَ فِي مُوسِكُو».

وَنَقَصْتُ بِأَضْبَعِهَا مَا عَلِقَ بِشِيبِهَا مِنْ ذَرَاتِ الثَّلْجِ .

قال: «لقد استهوتني هذه الرياضة، وملكت لبي، لهذا عزمْتُ منذ زمنٍ على التفرُّغ لها والتمرُّس فيها».

فأجابَتْ ضاحكةً: «كُلُّ ما يَسْتَهْوِيكَ، نُصِرُّ على نَيْلِهِ كما أرى، فهلَمَّ، ضَع في رِجْلَيْكَ عُدَّةَ التَّرَلُّجِ ولْتَلْعَبَ مَعَا».

وَفَكَّرَ لِيَفِينُ: «تَرَلُّجٌ مَعَا! أنا وهي! هل أَصَدِّقُ سَمْعِي؟ أَعَدَّوْتُ مِنَ السُّعْدَاءِ؟»

وما عَتَمَ أَنْ ذَهَبَ إلى مَكَانِ اسْتِيْدالِ المَلابِسِ . فَرَحَّبَ بِهِ الخَدَمُ، وجاؤوا إِلَيْهِ بما أَرادَ، وساعَدوه على الاستعدادِ . ثُمَّ خَرَجَ إلى الحَلِيَّةِ، فدنا من كاترينَ بِخُضوعِ العَبْدِ وِرْقَتِهِ . ولكنَّ ابْتِسامَها شَدَدَتْ قَلْبَهُ وعَزِمَتُهُ، فأَمْسَكَ يَدَها وانسابَ مَعها على الثَّلْجِ ببطءٍ ثُمَّ بِسُرْعَةٍ مُتزايدةً .

وَبَرَّقَتْ عَيْنَا الحَسَناءِ وهي تَشعُرُ بالثِقَةِ والقُدْرَةِ، وجَعَلَتْ تَضَعُطُ على يَدِهِ وتقولُ: «مَعَكَ أَستَطِيعُ أَنْ أَبدُّ غَيْرِي، فأَنْتَ حَقًّا مِنْ أَمْهَرِ مَنْ تَرَلُّجٌ . أما تراني كيفَ أَنسابُ دونَ وَجَلٍ؟»
فأجابَ: «وأنا أَشعُرُ بالثِقَةِ وأنتِ بجانيبي!»

وَقَفَرَ قَلْبُهُ بَيْنَ ضُلوعِهِ . . . ما هَذَا؟ ما هَذِهِ الجُرْأَةُ التي لَم يَعْهَدْها مِنْ قَبْلُ؟

وقد أَثَرَتْ هَذِهِ الكَلِماتُ في الصَّلَةِ التي تَرَبَّطُ بَيْنَها، فهي ما كادَتْ تَسْمَعُها وتَنفَهِمُها حَتَّى قَطَبَتْ حاجِبَيْها، وَقَدَّ وَجْهَها تِلْكَ المَسحَةَ الواضِحَةَ مِنَ الصِّداقَةِ، وكأَنَّه السَّمْسُ تَحْتَجِبُ خَلْفَ عَيْمَةٍ .

ورأى لِيَفِينُ ذَلِكَ، فأيقَنَ أَنَّها تُفَكِّرُ، فقالَ مُتَرَدِّداً: «أَئِمَّةٌ ما يُزْعِجُكَ؟ هل هُنَاكَ ما يُقْلِقُ بِالكَ؟»

فأجابَتْ بشيءٍ مِنَ الجَفَاءِ: «لا، لا شيءَ البتَّة!»

وصَمَّتْ ثُمَّ اسْتَلَّتْ: «وهل تُزِمُّعُ المَكْتُ في موسكو طويلاً؟»

فأجابَ مِنْ دونِ إعمالِ الرَوِيَّةِ: «لا أَذري!» .

- «وكيفَ لا تَدْرِي؟ بَيِّنْ لي ما تقولُ!» -

- «لا أدري متى أرحل، لأنَّ رَحيلي مَسْأَلَةٌ لا يُبْتُ فيها قَبْلَ التَّثْبُتِ مِنْ أَمْرِكِ!». .

وأَجْفَلَ، وَعَجِبَ لِإِقْدَامِهِ عَلَى الْإِفْصَاحِ عَمَّا يُخَالِجُهُ مِنْ مَارَبٍ وَأَوْطَارٍ.

فَلَمَّا سَمِعَتْ الْحَسَنَاءُ ذَلِكَ وَجَّهَتْ إِلَيْهِ نَظْرَةً مُتَأَمِّلَةً مُتَفَحِّصَةً، وَكَأَنَّهَا أَجْمَعَتْ أَمْرَهَا عَلَى

تَغْيِيرِ الْمَوْضُوعِ، فَقَالَتْ وَهِيَ تُشِيرُ بِيَدِهَا: «هَذِهِ أُمِّي قَادِمَةٌ، أَلَمْ تَرَهَا؟»

وَذَعِرَ الْفَتَى كَمَنْ اسْتَفَاقَ مِنْ حُلْمٍ، وَمَدَّ يَدَهُ فِي شُرُودِ فَصَاحِ الْمَرْأَةِ الْكَهْلَةَ، وَحَنَى لَهَا

رَأْسَهُ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ إِنْ كَانَ قَدْ جَنَى مِنْ تَهَوُّرِهِ خَيْرًا، وَإِنْ كَانَ أَجْدَرَ بِهِ لَوْ أَنْعَمَ النَّظْرَ قَبْلَ

أَنْ يَصْنَعَ مَا صَنَعَهُ حَتَّى تَرْضَى مَحْبُوبَتَهُ، فَتَقَرَّ لِرِضَاهَا عَيْنُهُ.

وَارْتَفَعَ صَوْتُ الْأُمِّ يَقُولُ: «مَا أَرَى فِيكَ إِلَّا الْإِجْتِهَادَ فِي الْإِتِّعَادِ وَالْإِنِّزِوَاءِ، وَلَيْسَ لَكَ

فِي نَفْسِنَا يَا سَيِّدِي إِلَّا الشُّوقُ وَالْإِخْلَاصُ!»

فَأَخْنَى رَأْسَهُ ثَانِيَةً.

وَأَرْدَفَتْ وَهِيَ تَتَنَبَّأُ إِلَى ابْنَتِهَا: «هَلْمِي يَا كَاتِرِينُ، فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الذَّهَابِ».

ثُمَّ عَادَتْ تُحَدِّثُ لَيْفِينَ بِلَهْجَتِهَا الْجَافِقَةِ: «وَأَنَا يَا عَزِيزِي نَسْتَقْبِلُ الضُّيُوفَ فِي يَوْمِ

الْخَمِيسِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ».

فَقَالَ: «يَوْمَ الْخَمِيسِ! الْيَوْمَ! . . .».

قَالَتْ: «أَجَلُ، الْيَوْمَ، وَاعْلَمْ أَنَّنا نَسُرُّ بِمَجِيئِكَ، إِنْ طَابَ لَكَ الْمَجِيءُ!»

وَفَكَّرَتْ كَاتِرِينُ فِي أُمِّهَا وَكَلَامِهَا الْمُقْتَضِبِ الْجَافِي، فَأَشْفَقَتْ عَلَى الشَّابِّ، وَرَنَتْ إِلَيْهِ

بِاسْمَةٍ، وَقَالَتْ فِي دَعْوَةٍ: «وَلَنْ تُسْوَلَ لَكَ نَفْسُكَ أَنْ تَمْتَنِعَ عَنَّا، فَإِلَى الْمُتَمَتِّعِ إِذَا فِي بَيْتِنَا».

وَهَمَّتْ بِالْمُضِيِّ مَعَ أُمِّهَا، إِلَّا أَنَّ سَتِيفَانَ أُوْبِلِنْسْكِي وَصَلَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، فَتَرَيَّتِ الْأُمُّ

وَطَلَبَتْ إِلَيْهِ أَنْ يُحَدِّثَهَا عَنِ ابْنَتِهَا زَوْجَتِهِ.

فَلَمْ يَجِدِ الرَّجُلُ بُدًّا مِنْ كِتْمَانِ مَا شَجَرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، وَزَعَمَ لَهَا أَنَّهَا عَلَى خَيْرِ مَا يُرَامُ،

وَأَنَّ لَيْسَ لَهَا حَاجَةٌ إِلَى مَزِيدٍ مِنْ سَعَادَةٍ وَهَنَاءٍ.

وَأَبْسَطَتْ أَسَارِيرُ الْمَرْأَةِ لَمَّا بَلَغَهَا هَذَا الْقَوْلُ، فَرَمَقَتْ زَوْجَ ابْنَتِهَا بِنَظْرَةِ الْإِعْجَابِ

وَالشُّكْرِ، كَأَنَّهَا تَجْعَلُ لَهُ فِي نَفْسِهَا مِثَاقَ الْإِخْلَاصِ وَالْمَحَبَّةِ، وَذَهَبَتْ مَعَ ابْنَتِهَا مُؤَلِّيَةً وَجْهَهَا

شَطْرَ الْبَيْتِ.

وَتَبِعَهُمَا سَتِيفَانُ بِعَيْنَيْهِ، فَلَمَّا غَابَتَا عَنْ بَصَرِهِ تَأَبَّطَ سَاعِدَ صَدِيقِهِ لَيْفِينَ وَقَالَ: «لَقَدْ سَمِعْتُ كَلَامًا لَمْ أَضِدُقْ فِيهِ كَثِيرًا أَوْ قَلِيلًا...».

وَضَحِكَ مُقَهِّقَهَا وَأَرْدَفَ: «هَيَّا بِنَا... هَيَّا بِنَا... فَلَكَ عَلَيَّ حَقُّ الصَّدِيقِ، وَلِي عَلَيْنِكَ حَقُّ الإِطْلَاعِ عَلَى مَا جَرَى وَمَا سَوْفَ يَجْرِي!»

أسئلة تحليلية

- ١ - ضَعِّعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا .
- ٢ - أَرَأَيْتَ مِنْ كَاتِرِينَ وَأُمَّهَا احْتِفَاءً وَاضِحًا بِلَيْفِينَ؟
- ٣ - عَلَامَ تَدُلُّ قَوْلُهُ لَيْفِينَ وَهُوَ يَجِيبُ عَنْ سَوَالِ كَاتِرِينَ : «أَنَا؟ لَمْ آتِ إِلَّا . . . الْبَارِحَةَ . . . أَغْنِي الْيَوْمَ»؟
- ٤ - إِلامَ لَمَحَتْ كَاتِرِينَ إِذْ قَالَتْ لَهُ : «كُلُّ مَا يَسْتَهْوِيكَ تُصِرُّ عَلَى نَيْلِهِ كَمَا أَرَى»؟
- ٥ - أَتَرَى أَنَّ كَاتِرِينَ كَانَتْ تَمِيلُ إِلَى لَيْفِينَ كَمَا يَمِيلُ إِلَيْهَا؟ عَلِّلْ إِجَابَتَكَ بِبَعْضِ مَا قَرَأْتَهُ فِي هَذَا الْفَصْلِ .
- ٦ - مَا الَّذِي جَعَلَ لَيْفِينَ غَيْرَ مَرْغُوبٍ فِيهِ صَهْرًا فِي الطَّبَقَةِ الرَّفِيعَةِ مِنَ الْمَجْتَمَعِ؟ وَمَا رَأَيْكَ فِي ذَلِكَ؟
- ٧ - فِي هَذَا الْفَصْلِ جِوَارٌ وَسَرْدٌ وَنَجْوَى دَاخِلِيَّةٌ . هَاتِ مِثَالًا لِكُلِّ مِنْ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ .
- ٨ - أَوْجِزْ مَضْمُونِ الْفَصْلِ فِي أَسْطُرٍ قَلِيلَةٍ .

الفصل السابع

ومشياً صامتينٍ مُطْرِقَيْنِ، ثُمَّ اسْتَقَلَّ الْعَرَبَةَ إِلَى مَطْعَمٍ فَخَمَ، وَلَجَّاهُ وَانْتَبَدَا رُكْنًا مُنْفَرِدًا مُنْعَزِلًا مِنْهُ.

وَلَا حَظَّ لَيْفِينُ وَهُمَا يَذِلْفَانِ إِلَى الْمَكَانِ أَنَّ وَجْهَ صَدِيقِهِ يَنِمُّ عَنِ اضْطِرَابِ يُحَاوِلُ جَاهِدًا أَنْ يُخْفِيَهُ، فَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يَسْتَفْسِرَ مِنْهُ عَمَّا يَشْغَلُ لَبَّهُ، وَلَكِنَّهُ أَرْجَأَ ذَلِكَ، وَجَلَسَ مَعَ صَدِيقِهِ وَطَلَبَا إِلَى التَّادِلِ أَنْ يَأْتِيَهُمَا بِكَأْسَيْنِ مِنَ الْخَمْرِ، ثُمَّ مَا لَبِثَا أَنْ طَلَبَا الطَّعَامَ.

وَبَعْدَ أَنْ أَكَلَا وَشَرِبَا طَفِقَا يَخوضَانِ فِي مَوَاضِعَ شَتَّى إِلَى أَنْ سَأَلَ أوبِلَنْسْكِ صَدِيقَهُ أَخِيرًا فَقَالَ: «هَلْ تُزْمِعُ اللَّيْلَةَ الذَّهَابَ إِلَى مَنْزِلِ كَاتَرِينِ شِرْبَاتْسْكِ؟»

فَأَجَابَ لَيْفِينُ: «أَجَلُ، إِنِّي ذَاهِبٌ، مَعَ أَنَّهُ تَرَأَى لِي أَنَّ الْأَمِيرَةَ الْأُمَّ قَابَلْتَنِي بِوَجْهِ مُنْقَبِضٍ، وَدَعَّتْنِي إِلَى زيارَتِهَا بِشَيْءٍ كَثِيرٍ مِنَ الْفُتُورِ».

- «لَا تُعَجِّلْ فِي الْحُكْمِ، فَبَلِّغْ عَادَتَهَا، وَهَذَا دَيْدُنُهَا»^(١) - تَقَطَّيْبُ مُزْمِنٌ، وَعُبُوسٌ رَاسِخٌ فِي أَمَائِرِهَا! وَأَنَا الْآخِرُ أَنْوِي زِيَارَةَ الْقَوْمِ إِلَّا أَنِّي سَاتِي مُتَأَخِّرًا بَعْضَ الشَّيْءِ. وَالآنَ أَخْبِرْنِي، كَيْفَ سُئِلْتُ لَكَ نَفْسُكَ مُبَارَحَةَ مُوسْكَو فِي الْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ كَالهَارِبِ الْفَارِّ مِنْ وَجْهِ الْعَدَالَةِ؟ فَمَا أَكْثَرَ مَا سَأَلْتَنِي عَنْكَ الْأَصْدِقَاءَ، وَأَخْصُ أُسْرَةَ شِرْبَاتْسْكِ... وَكُنْتُ أَنْتَهَرْتُ مِنَ الْجَوَابِ لِخَيْرَتِي فِي مَا يَكُونُ الْجَوَابُ! فَأَنْتَ شَادٌّ عَجِيبٌ... أَنْتَ نَسِجٌ وَخَدِكُ فِي أَطْوَارِكَ وَأَعْمَالِكَ وَأَفْعَالِكَ!»

- «لَا أَنْكِرُ مَا جُبِلْتُ عَلَيْهِ يَا صَدِيقِي... وَعَوْدَتِي الْفُجَائِئَةُ الْيَوْمَ لِأَبْلُغَ دَلِيلٍ عَلَى شُدُودِي... لَقَدْ غَدْتُ، غَدْتُ مِنْ أَجْلِ...».

فَقَاطَعَهُ أوبِلَنْسْكِ: «لَكَمْ أَعْطَيْتُكَ عَلَى حَظِّكَ الْمَشْرِقِ أَيُّهَا الصَّدِيقُ!» وَحَدَّقَ إِلَى عَيْنَيْهِ.

(١) دَيْدُنُهَا: عَادَتُهَا.

- «لماذا؟»

فَقَالَ أوبلنسكي ضاحِكًا: «إِغْرِفِ الْجَوَادَ الْأَصِيلَ مِنْ خَطَرَانِهِ... والعاشقَ، إغْرِفُهُ مِنْ عَيْنِيهِ ولسانِهِ!» واستتلى: «والفُرْصَةُ مُنَاحَةٌ لَكَ فَأَقْدِمُ».

- «وَأَنْتَ، أَوْلَتْ فُرْصَتَكَ فِي الْحَيَاةِ؟»

- «كَلَّا، بَيِّدَ أَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ لَكَ، وَالْحَاضِرَ لِي... الْحَاضِرُ... ماذا أقول؟ قَدْ تَقَعُّ أَعْجُوبَةٌ».

- «ماذا تعني؟ أَوْضِحْ!»

- «أحيانًا تَنعَكِسُ الرِّيحُ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ... عَلَى أَنِّي لَا أَرَعِبُ فِي التَّحَدُّثِ عَنْ نَفْسِي، وَلَوْ أَرَدْتُ لَمَا تَسَنَّى لِي رَسْمُ صُورَةٍ صَادِقَةٍ عَنِ الْحَالَةِ... وَالآنَ أَخْبِرْنِي، مَا جَاءَ بِكَ إِلَى مَوْسِكُو؟»

فَحَدَّدَ الْفَتَى طَرْفَهُ فِي وَجْهِ أوبلنسكي وَأَجَابَ: «أَلَمْ تَحْزُرْ مُنْذُ دَفَاقٍ؟ لَقَدْ أَصَابَ حَدْسُكَ!»

- «لَا أَنْكِرُ أَنِّي عَلِمْتُ مِنَ الْوَهْلَةِ الْأُولَى مَا رَبَّكَ هُنَا، بَيِّدَ أَنِّي لَمْ أَتَكَلَّمْ، لِأَنَّكَ الْفَرِيقُ الَّذِي يَخْلُقُ بِهِ أَنْ يَسْتَهْلَ الْكَلَامُ».

فَاضْطَرَبَ لِيْفِينُ، وَصَعِدَ الدَّمُ إِلَى رَأْسِهِ وَقَالَ: «فَمَا قَوْلُكَ إِذَا؟ وَكَيْفَ تَنْظُرُ إِلَى الْمَسْأَلَةِ؟»

فَجَرَعَ سَتِيفَانُ أوبلنسكي مَا تَبَقِيَ فِي كَأْسِهِ وَأَجَابَ: «هَذَا جُلُّ مَا أَتَمَنَّا، أَتَمَنَّى أَنْ تَبْلُغَ وَطَرِكَ وَتَفُوزَ بِضَالَّتِكَ». فَتَنَظَرَ إِلَيْهِ لِيْفِينُ نَظْرَةً مِنْ غَشِيَةِ الْأَمَلِ وَالْأَلَمِ وَقَالَ مُتَسَائِلًا: «أَتَمَحْضُنِي كَاتِرِينَ الصَّدُوقِ؟ أَتَبَادِلُنِي الْمَحَبَّةَ؟ أَوَاتِقُ أَنْتَ مِمَّا تَقُولُ؟»

- «إِنِّي لَكَ مَا حِضُّ كُلِّ إِخَاءٍ يَا صَاحِبَ، فَاطْمَئِنِّ إِلَيَّ، وَاعْلَمْ أَنِّي بِأَمْرِكَ عَلِيمٌ!»

- «وَهَلْ يَسْتَوِي لِي الْأَمْرُ؟ هَلْ أَنَا الْجَمَالَ؟»

- «لَا تَتَطَيَّرُ وَلَا تَتَشَاءَمُ، فَكُلُّ شَيْءٍ جَائِزٌ فِي الدُّنْيَا».

- «لَا تَتَعَلَّقْ بِخِيوطِ الْأَوْهَامِ، بَلْ أَخْبِرْنِي صِرَاحَةً، هَلْ تَنْظُرُ أَنِّي لَنْ أَرْجِعَ بِخَفْنِي حُنِينٍ؟ هَلْ تُرَجِّحُ الْقَبُولَ؟ لَسَدًا مَا أَخَافُ الرَّفْضَ، لَسَدًا مَا أَرْتَعِشُ خَوْفًا مِنَ الْإِنْخِاقِ».

- «تُرْهَاتُ . . . أَبَاطِيلُ . . . أَوْهَامٌ» .

- «كَلَا، كَلَا . . . بَلْ إِنَّ الرَّفْضَ يَضِيرُنِي، وَهُوَ كَذَلِكَ يَحْمِلُ الْأَذَى لَهَا» .

- «وَلِمَ ذَلِكَ؟ وَهَلْ تُضَارُ فِتَاءً مَتَى كَثُرَ الرَّاعِبُونَ فِي زَوَاجِهَا؟»

- «قَدْ يَنْطَبِقُ ذَلِكَ عَلَى سَائِرِ الْفِتَيَاتِ، أَمَا هِيَ فَلَا . . . لَا . . .» .

وَابْتَسَمَ سَتِفَانُ . . . وَقَرَأَ أَفْكَارَ لَيْفِينِ، وَأَيَّقَنَ أَنَّ الْعَاشِقَ الْمُتَمِّمَ يَفْسِمُ فِتَيَاتِ الْعَالَمِ إِلَى قِسْمَيْنِ: الْقِسْمِ الْأَوَّلِ، الْفِتَيَاتِ جَمِيعًا إِلَّاهَا، وَهُنَّ مُتَّصِفَاتٌ بِالضَّعْفِ الْبَشَرِيِّ، وَالْحَوْرِ، وَالْوَهْنِ . . . وَالْقِسْمِ الثَّانِي هِيَ وَخِذَهَا، الْكَامِلَةُ، الْقَوِيَّةُ، الْمُتَسَنِّمَةُ الدَّرْوَةَ، فَوْقَ الْجَمِيعِ، فَوْقَ الْجَمِيعِ!

وَاسْتَتَلَى لَيْفِينُ يَقُولُ: «وَاعْلَمُ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ هِيَ مَسْأَلَةُ حَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ. وَلَمْ يَسْبِقْ أَنْ بُحْتُ بِسِرِّي لِأَحَدٍ قَبْلَ الْيَوْمِ، وَلَيْسَ فِي نِيَّتِي إِمَاطَةَ اللَّثَامِ عَنِ عَاطِفَتِي إِلَّا لَكَ وَحْدَكَ . . . نَحْنُ ضِدَانِ فِي الْمَشْرَبِ وَالطَّبْعِ وَالْعَادَةِ إِلَّا أَنِّي مُوقِنٌ بِأَنَّكَ تُحِبُّنِي وَتَقَهَّمُنِي؛ وَلِهَذَا تَرَانِي كَلِيفًا بِكَ إِلَى أْبَعَدِ حُدٍّ . . . وَأَنَا شَيْدُكَ اللهُ أَنْ تُضَدِّقَنِي الْقَوْلَ، كُنْ صَرِيحًا مَعِي!»
فَقَالَ أَوْلِبْنَسْكَي ضَاحِكًا: «أَلَمْ أَكَاشِفُكَ بِمَا أَرَاهُ وَأَعْتَقِدُهُ؟ وَأَزِيدُكَ الْآنَ، فَأَنْتِ كَ أَنْ زَوْجِي امْرَأَةٌ مُدْهِمَةٌ» .

وَتَهَدَّدَ سَتِفَانُ أَوْلِبْنَسْكَي تَهْدَةً الْكَابِيَةَ، فَقَدْ تَذَكَّرَ الْخِلَافَ الْمُحْتَدِمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجِهِ، وَلَكِنَّهُ أَرْدَفَ يَقُولُ: «وَلِهَا الْقُدْرَةُ عَلَى التَّكْهُنِ بِمَا تَأْتِي بِهِ الْأَيَّامُ، إِنَّهَا تُرْجِمُ بِالْغَيْبِ^(١)، وَخُصُوصًا فِي مَا يَمُتُّ إِلَى أُمُورِ الزَّوْجِ . . . وَهِيَ تُظَاهِرُكَ الْآنَ وَتَحْمَسُ لَكَ» .

- «أَوْضِحْ، أَوْضِحْ . . .» .

- «إِنَّهَا تَمِيلُ إِلَيْكَ، وَتَزْعَمُ أَنَّ كَاتِرِينَ سَتَكُونُ لَا مَحَالَةَ زَوْجَتَكَ» .

فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ لَيْفِينِ، وَأَشْرَقَ مُحْيَاهُ، وَكَادَتْ دُمُوعُ التَّأَثُّرِ تَطْفُرُ مِنْ عَيْنَيْهِ، وَلَكِنَّهُ كَتَمَ مَا دَاخَلَهُ، وَصَاحَ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ مُتَفَعِّلٍ: «هَذَا مَا تَقُولُهُ؟ إِنَّتِي دَائِمًا جَهَرْتُ بِرَأْيِي فِيهَا- فِي زَوْجَتِكَ- إِنَّهَا امْرَأَةٌ رَائِعَةٌ مِثَالِيَّةٌ . . . وَنَعْمَ الزَّوْجُ هِيَ!»

(١) تُرْجِمُ بِالْغَيْبِ: تَنْبَأُ بِمَا يَأْتِي بِهِ الْغَيْبُ .

وَنَهَضَ وَاقْفَا، وَجَعَلَ يَذْرَعُ ذَلِكَ الرُّكْنَ جِيئَةً وَذَهَابًا وَيَقُولُ: «وَاعْلَمَ أَنَّ مَا أَشْعُرُ بِهِ لَيْسَ حُبًّا، إِنَّهُ قُوَّةٌ خَارِقَةٌ اسْتَوْلَتْ عَلَى مَشَاعِرِي، وَأَحَاسِيسِي، وَإِرَادَتِي...» وَقَدْ اخْتَفَيْتُ مِنْ مَوْسُكُو ظَنًّا مِنِّي أَنَّ مَا أَتَطَّلَعُ إِلَيْهِ هُوَ الثَّرِيَّا، هُوَ سَعَادَةٌ لَا يَلْقَاهَا الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا. وَخَلَفْتَنِي الذِّكْرَى حَلِيفَ عِرَاكٍ مُمِضٌ مُضِنٌ... كُنْتُ أَفَكِّرُ لَيْلَ نَهَارٍ... كُنْتُ أَفَكِّرُ، وَأَفَكِّرُ... حَتَّى دَاخَلَ رَوْعِي آخِرًا أَنِّي لَنْ تَطْمَئِنَّ بِي حَيَاةٌ وَلَنْ يَسْتَقِيمَ أَمْرٌ إِلَّا بِكَاتِرِينَ... أَجَلٌ، إِنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ لِي... أَفَمَا تَرَى أَنَّ مَشَاعِرِي الْحَقِيقِيَّةَ هِيَ قُوَّةٌ تَبْدُ الْحُبَّ بِمَرَاجِلٍ؟!»

وَاعْرُورَقَتْ عَيْنَا لَيْفِينَ بِالذَّمُوعِ، فَفَطَعَ حَدِيثَهُ كَيْمَا يُكْفِكِفُهَا ثُمَّ جَلَسَ ثَانِيَةً إِزَاءَ صَدِيقِهِ وَاسْتَعْرَقَ فِي الْفِكْرِ.

وَتَمَلَّمَلْ أُولِنْسْكِ فِي مَقْعَدِهِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ هَادِيٍّ رَصِينٍ: «وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَطَّلِعَ عَلَى الْأُمُورِ كُلِّهَا يَا لَيْفِينُ، فَهَلْ لَكَ سَابِقُ مَعْرِفَةٍ بِالشَّابِّ «فِرُونْسْكِ»؟»

- «لا، لا أعرفه، فمن هو؟ ولم السؤال؟»

- «لأن في نفسه حاجة، لأنه طالبٌ زواج، وبصره وقلبه مطمئحهما كاترين...».

وَاسْتَحَالَ وَجْهُ لَيْفِينَ فِي مِثْلِ لَمَحِ الْبَصْرِ مِنَ النَّضْرَةِ وَالذَّعَةِ، إِلَى الْإِمْتِقَاعِ وَالْإِحْتِدَامِ وَالتَّوَعُّدِ، حَتَّى إِنَّ سَتِيفَانَ بُهَتَ مِمَّا رَأَى، وَنَفَرَ قَلْبُهُ قَلِيلًا، وَسَارَعَ يَقُولُ: «هُوَ نَجَلٌ الْكُونِتِ إِيْفَانَ فِرُونْسْكِ، فَتَى غُرَانِقُ^(١) يَشْدُهُ مَرَاةَ النَّاطِرِينَ، وَتُلْقِي إِلَيْهِ الْجِسَانَ الْمَقَادَةَ وَالزَّمَامَ. وَهُوَ كَأَبِيهِ أَرْجِيحِي جَوَادٌ لَا ضَهِيَّ^(٢) لَهُ فِي بَطْرَسْبِرْج، وَقَدْ تَقَابَلْنَا وَتَعَارَفْنَا فِي «تَغِير»، يَوْمَ فَصَدْتُ الْمَدِينَةَ فِي عَمَلٍ لِي... أَمَا تَرَاؤُهُ فَوَاسِعٌ، وَأَمَا جَاهُهُ فَمُنْبَسِطٌ عَرِيضٌ... وَنُفُودُهُ لَا يُقَارِنُهُ نُفُودُ سَرِيَّ^(٣) آخَرَ فِي الْبِلَادِ... وَلَا جَرَمَ أَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ مَفْتُوحٌ أَمَامَهُ، وَتَقَدَّمَهُ فِي مِضْمَارِ السِّيَاسَةِ وَالْمَرَاتِبِ الْعُلْيَا أَمْرٌ لَا يَشْكُ فِيهِ إِنْسَانٌ!»

فَحَفَقَ قَلْبُ لَيْفِينَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُجِزْ جَوَابًا، بَلْ أَخْلَدَ إِلَى الصَّمْتِ مُفَكِّرًا.

(١) غُرَانِقُ: شَابٌّ أبيضٌ جميلٌ.

(٢) لَا ضَهِيَّ لَهُ: لَا مُنَافِسَ لَهُ.

(٣) سَرِيَّ: شَرِيفٌ.

واستمرَّ ستيفان أوبلنسكي يقول: «وجاء عَقِبَ رَحِيلِكَ إِلَى مَوْسَى، فَفَتَنَتْهُ الْعَادَةُ
وَاسْتَوَلَّتْ عَلَى لُبِّهِ، وَهُوَ الْآنَ غَارِقٌ فِي حُبِّهَا، وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ أُمَّهَا...».

فقاطَعَهُ لَيْفِينُ: «كَلَّا، لَا أَعْرِفُ شَيْئًا!»

- «لَا تُسَلِّمْ أَمْرَكَ لِلْيَاسِ، فَمَا كَانَ لِي مَحِيصٌ عَنْ كَشْفِ الثَّقَابِ عَنْ كُلِّ مَا أَعْرِفُ،
حَتَّى تَكُونَ عَلَى بَيْتِي مِنْ أَمْرِكَ، فَتَصَرَّفَ تَصَرَّفَ الْعَارِفِ الْمَلِمِ. وَأَنَا، إِنْ أَرَدْتُ أَنْ تَسْمَعَ
مِنِّي رَأْيِي، أَعْتَقِدُ يَقِينًا أَنَّ كِفْتِكَ هِيَ الرَّاحَةُ...».

وَتَهافتَ^(١) لَيْفِينُ وَأَطْرَقَ بِرَأْسِهِ.

وَأَتَمَّ أوبلنسكي: «وَأُزْجِي إِلَيْكَ التُّضْحَ فِي الْمَبَادِرَةِ إِلَى إِتْمَامِ الْأَمْرِ، اللَّيْلَةَ...
اللَّيْلَةَ...».

وَأَتَرَخَ الْكَاسِيَيْنِ الْخَاوِيَتَيْنِ.

فَقَالَ لَيْفِينُ: «شُكْرًا... لَا أُرِيدُ أَنْ أَزِيدَ حَتَّى لَا تَصْعَدَ سُورَةُ الشَّرَابِ^(٢) إِلَى رَأْسِي.
هَلَّا خَبَّرْتَنِي عَنْ نَفْسِكَ شَيْئًا! تَكَلَّمْ أَتَيْهَا الصَّدِيقُ، قُلْ لِي أَخْبَارَكَ».

فَلَمْ يَكْتَرِثْ أوبلنسكي لِكَلِمَاتِهِ الَّتِي أَرَادَ مِنْهَا تَغْيِيرَ دَفْعَةِ الْحَدِيثِ، بَلْ أُنشَأَ يَقُولُ: «أَجَلْ،
أُنْصَحُكَ بِالتَّقَدُّمِ إِلَى أُمَّهَا فِي طَلَبِ يَدِهَا مِنْ دُونِ أَنْ تُوجَلَ الْمَسْأَلَةُ إِلَى الْغَدِ!»

فَقَالَ: «أَلَا تَأْتِي إِلَيْنَا فِي الرَّبِيعِ لِلتَّمَتُّعِ بِمَبَاهِجِ الرَّيْفِ وَمُزَاوَلَةِ الصَّيْدِ الَّذِي حَبَسْتِكَ عَنْهُ
شَوْاعِلُكَ؟».

وَلَا شَكَّ أَنَّهُ نَدِمَ كَثِيرًا عَلَى إِطْلَاعِ سْتِيفَانَ أوبلنسكي عَلَى سِرِّهِ، وَخَيَّلَ إِلَيْهِ الزَّهْوُ أَنَّ
كَرَامَتَهُ قَدْ جَرَحَهَا وَجُودُ مُنَافِسٍ لَهُ فِي حُبِّ كَاتِرِينَ.

وَفَطِنَ سْتِيفَانَ إِلَى مَا دَارَ فِي خَلْدِ صَدِيقِهِ مِنْ عَوَامِلِ النَّدَامَةِ، فَتَبَسَّمَ وَقَالَ: «سَوْفَ آتِي
فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ؛ غَيْرَ أَنَّ النِّسَاءَ يَا عَزِيزِي هُنَّ الْمَحْوُورُ الَّذِي تَدُورُ حَوْلَهُ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا،
وَعَقْدِي فِي الزَّوْقِ الْحَاضِرِ كَثِيرَةٌ، وَلَيْسَ لَهَا حَلَالٌ، وَالسَّبَبُ فِي كَارِثَتِي هُوَ الْمَرْأَةُ...».

وَأَشْعَلَ سْتِيفَانَ سِيَجَارَةَ وَاسْتَطَرَّدَ يَقُولُ: «هَبْ أَنْكَ رَجُلٌ مُتَزَوِّجٌ، تُحِبُّ زَوْجَكَ، وَلَكِنَّ

(١) تَهافتَ: ضَعَفَتْ نَفْسُهُ.

(٢) سُورَةُ الشَّرَابِ: حِدَّتُهُ.

امرأةً أخرى تَعْرِضُ طَرِيقَكَ وَتَسْتَوْلِي عَلَى قَلْبِكَ، وَتَفْتِنُكَ...» .

فَعَارِضُهُ لَيْفِينُ قَائِلًا: «إِضْفَحْ عَنِّي إِنْ اغْتَرَضْتُ عَلَيْكَ- فَاَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْتَوْعِبَ مَا قُلْتَ الْآنَ، كَمَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْهَمَ كَيْفَ يَسْتَسِي لِي، بَعْدَ أَنْ شَبِعْتُ هُنَا، أَنْ أَسْتَرِقَ الْخَطْوَةَ إِلَى دُكَّانِ خَبَازٍ وَأَسْرِقَ مِنْهُ رَغِيفًا!»

فَبَرَقَتْ عَيْنَا سَتِيفَانَ أوبلنسكي أَكْثَرَ مِنَ الْمُعْتَادِ وَقَالَ: «وَمَا الْمَانِعُ؟ قَدْ يَكُونُ لِلرَّغِيفِ الْمَسْرُوقِ رَائِحَةٌ لَذِيذَةٌ لَا قِبَلَ لَكَ عَلَى مُقَاوَمَةِ إِغْرَائِهَا... وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ، مَخْلُوقٌ أَنِيسٌ جَمِيلٌ، ضَحَّتْ بِكُلِّ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ حُبِّهَا وَمِنْ أَجْلِ حَبِيبِهَا الْمُتَزَوِّجِ، فَكَيْفَ يُطَاوَعُكَ قَلْبُكَ عَلَى إِهْمَالِ أَمْرِهَا بَعْدَ الَّذِي ظَهَرَ مِنْهَا؟ وَلَوْ سَلَّمْنَا جَدَلًا أَنَّ الرَّجُلَ يُفَارِقُهَا إِيقَاءً عَلَى حَيَاتِهِ الْعَائِلِيَّةِ وَصَوْنًا لِمُسْتَقْبَلِ أَوْلَادِهِ، فَهَلْ يَقْدِرُ عَلَى مَحْوِهَا مِنْ ذَاكِرَتِهِ؟ هَلْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَطْمَوسَ شَبَحَهَا فِي عَحِيلَتِهِ؟»

- «وَلَكِنَّ... وَلَكِنَّ...» .

- «إِنَّ زَوْجَكَ، تَتَقَدَّمُ فِي الْعُمْرِ، إِنَّهَا تَفْقُدُ رَوَاءَهَا، وَتُخَلِّفُ وَتَسْتَهَا وَرَاءَهَا، بَيْنَمَا تَحْتَفِظُ أَنْتَ بِحَيَوِيَّتِكَ وَرَعْبَتِكَ وَشَهْرَتِكَ... وَقَبْلَ أَنْ يَسْمَحَ لَكَ الْوَقْتُ بِالْإِلْتِفَاتِ إِلَى الْخَلْفِ، تَشْعُرُ يَأْتُهُ يَتَعَدَّرُ عَلَيْكَ مُبَادَلَةٌ زَوْجَتِكَ الْحُبِّ، مَهْمَا كَانَ أَحْتَرَامُكَ وَتَقْدِيرُكَ لَهَا، وَعَلَى حِينٍ بَعْتَهُ يَتَغَلَّغُلُ الْحُبُّ مِنْ جِهَةٍ مَا إِلَى قَلْبِكَ، يَخْتَرِقُ شِعَافَ هَذَا الْقَلْبِ كَالْتَّضَلِّ، وَيَجْتُمُّ فِي سُؤْيَدَائِهِ، فِي حَبِيبِهِ... وَتَقَعُ حِينِذَاكَ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى، وَتَجِلُّ النَّازِلَةُ، وَتَلُمُّ الْمُصِيبَةُ!» .

وَتَفَسَّسَ سَتِيفَانُ الصُّعْدَاءُ مِنْ شِدَّةِ الْكَرْبِ وَاسْتَطْرَدَ: «لَقَدْ قُضِيَ عَلَيْكَ إِذَا مَتَى وَقَعْتَ، فَمَا الْعَمَلُ؟»

فَقَالَ لَيْفِينُ بَابْتِسَامَةٍ عَاسِيَةٍ: «لَا تَسْرِقِ الْخَبْرَ!»

فَاسْتَعْرَبَ سَتِيفَانُ ضَاحِكًا وَكَأَنَّهُ نَسِيَ مُصِيبَتَهُ، وَكَأَنَّهُ مَا سَبَرَ الْبُلُوِي النَّبِي تُوْشِكُ أَنْ تُطَوِّحَ بِدَعَائِمِ بَيْتِهِ، وَقَالَ بَعْدَ يَسِيرٍ: «لَا تُلْجِئْنِي، يَا لَيْفِينُ، إِلَى مُبَادَلَتِكَ دُعَابَةَ بُدْعَابِيَّةِ، فَالْمَوْقِفُ يَسْتَوْجِبُ الرُّوِيَّةَ وَإِعْمَالَ الْفِكْرِ. هُنَاكَ امْرَأَتَانِ، إِحْدَاهُمَا تُطَالِبُ فَقَطْ بِحُقُوقِهَا، وَهَذِهِ الْحُقُوقُ هِيَ حُبُّكَ الَّذِي لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَبَرَّعَ بِهِ لِأَيِّ كَانَ، وَالْأُخْرَى تُضْحِي بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِكَ، وَلَا تَطْلُبُ مِنْكَ شَيْئًا. فَمَاذَا يَا تُرَى تَفْعَلُ؟ وَكَيْفَ تَتَصَرَّفُ؟ وَفِي أَيِّ طَرِيقَةٍ تَرَقُّأُ دُمُوعَ هَذِهِ، وَتُلَاشِي زَفْرَاتِ تِلْكَ؟ إِنَّ فِي هَذَا الْأَمْرِ مَأْسَاءً وَأَيُّ مَأْسَاءٍ، يَنْطَوِي عَلَيْهَا وَقُوعُ

الرَّجُلِ بَيْنَ مِطْرَقَةٍ وَسِنْدَانٍ!»

- «لو عَشِيتَ برَأْيِي، فَإِنِّي أَقُولُ صِرَاحَةً أَنْ لَا وُجُودَ لِهَذِهِ الْمَأْسَاءِ، إِنَّ الْحُبَّ بِحَسَبِ وُجْهِةٍ نَظَرِي، الْحُبُّ الْمُتَعَرِّعُ إِلَى فَرْعَيْنِ، الَّذِي يَصْعُقُ أَفْلَاطُونَ كَمِحْكَ لِلرِّجَالِ، لَا يَفْهَمُ فَرْعِيهِ أَحَدٌ، بَلْ هُنَاكَ فَرِيقٌ يَفْهَمُ هَذَا وَفَرِيقٌ يَفْهَمُ ذَلِكَ. أَمَا أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَا يَعْتَرِفُونَ بِالْحُبِّ الْأَفْلَاطُونِيِّ الْمُجَرَّدِ، فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَتَكَلَّمُوا عَلَى الْمَأْسَاءِ وَوُجُودِ الْمَأْسَاءِ، لِأَنَّهُ لَا يُعْزِزُهُمْ أَكْثَرُ مِنْ بَضْعِ كَلِمَاتٍ يَقُولُونَهَا فِي مَجَالِ التَّرْضِيَةِ وَالِاسْتِرْضَاءِ، كَأَنْ يَقُولُوا لِلْمَرْأَةِ الْمَنْكُودَةِ: «لَكَ مِنَّا أَبْلَغُ شُكْرِنَا، فَقَدْ يَسَّرْتَ لَنَا مُتَعَةً وَلَذَّةً وَشَهْوَةً».

وكذلك لا ينطوي الحُبُّ الأفلاطونيُّ على الْمَأْسَاءِ، لِأَنَّهُ حُبٌّ نَقِيٌّ، طَاهِرٌ، خَالٍ مِنَ الشَّوَابِ، وَمِثْلُ هَذَا الْإِحْسَاسِ الْمُصَفَّى لَا يُمَكِّنُ لِلْمَأْسَاءِ أَنْ تَتَغَلَّعَلَ إِلَيْهِ، أَوْ تَتَرَعَّرَعَ فِيهِ! وَتَنَهَّدَ أوبلنسكي وَحَبَسَ لِسَانَهُ فَلَمْ يَتَكَلَّمْ، وَأَمْسَكَ عَنْ زَفْرَةٍ كَادَتْ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ فِيهِ.

واشْتَرَسَلَ الْإِثْنَانِ فِي الْفِكْرِ، وَاعْتَمَلَ فِي صَدْرَيْهِمَا خَلِيطٌ عَجِيبٌ مِنَ الْإِحْسَاسِ وَالْمَشَاعِرِ... وَلَا رَبِّبَ أَنْهُمَا، بِالرَّغْمِ مِنَ الصَّدَاقَةِ الْوَثِيقَةِ الْعُرَى الَّتِي تَرِبَطُ بَيْنَهُمَا، وَبِالرَّغْمِ مِنَ مَجَالِسِ الْأَنْسِ وَاللَّهْوِ الَّتِي جَمَعَتْ بَيْنَهُمَا، وَبِالرَّغْمِ مِنَ الْوُدِّ الْمَتِينِ الْوَشَائِحِ الَّذِي كَانَ الصِّفَةَ الْمَأْتُورَةَ عَنْهُمَا، شَعَرَا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ بِالِابْتِعَادِ وَالْتِنَائِي، بَلْ خُيِّلَ إِلَى كُلِّ مِنْهُمَا أَنَّ الْآخَرَ غَرِيبٌ لَمْ يَرَهُ مِنْ قَبْلُ، وَأَنَّهُ ذُو مَطَامِحَ وَمَطَامِعَ وَمُيُولِ.

ولم يَجِدَا مَنْدُوحَةً فِي نِهَآيَةِ الْأَمْرِ، وَقَدْ ضَاقَا دَرْعًا بِالصَّمْتِ، وَبَرِمَا بِهَذَا الشُّعُورِ، وَتَرَمَّضَتْ نَفْسَاهُمَا بِذَلِكَ الْإِحْسَاسِ الْمُبْهَمِ الْغَامِضِ الَّذِي طَفِقَ يَوْسِعُ الشَّقَّةَ بَيْنَ قَلْبَيْهِمَا، لَمْ يَجِدِ الْإِثْنَانِ بَعْدَ هَذَا التَّنَافُرِ الْبَاطِنِيِّ إِلَّا أَنْ يَبْرَحَا الْمَكَانَ إِبْقَاءً عَلَى مَا رَبَطَ بَيْنَهُمَا مِنَ أُلْفَةٍ، وَإِشْفَاقًا عَلَى تِلْكَ الصَّدَاقَةِ الْوَثِيقَةِ مِنَ التَّصَدُّعِ وَالزَّوَالِ!

أسئلة تحليلية

- ١ - ضَعُ لهذا الفصل عنوانًا مناسبًا.
- ٢ - بدأتْ تتوضَّحُ في هذا الفصلِ خيوطُ العُقْدَةِ الثَّانِيَةِ في الرِّوَايَةِ؛ فَهَلَّا حَدَّدْتَ مَكَانَ بَدْئِهَا!
- ٣ - لِمَ حَاوَلَ لَيْفِينُ أَنْ يَغَيِّرَ الْحَدِيثَ فَيَحِيدَ عَنِ حَدِيثِ حَبَّةٍ لِكَاتِرِينَ؟
- ٤ - مَا مَعْنَى قَوْلِ لَيْفِينِ: «لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْهَمَ كَيْفَ يَسْتَنِي لِي، بَعْدَ أَنْ شَبِعْتُ هُنَا، أَنْ أَسْتَرِقَ الْخَطْوَةَ إِلَى دُكَّانِ حَبَّازٍ وَأَسْرِقَ مِنْهُ رَغِيْفًا.»؟
- ٥ - مَا الْمَعْنَى الْمَقْصُودُ بِالْحُبِّ الْأَفْلَاطُونِيِّ؟
- ٦ - مَنْ هُوَ مُنَافِسُ لَيْفِينِ عَلَى قَلْبِ كَاتِرِينَ؟
- ٧ - بِمَ وَصَفَ سَتِيفَانُ هَذَا الشَّابَّ؟
- ٨ - بِمَ اِمْتَازَتْ شَخْصِيَّةُ السَّيِّدَةِ شَرِبَاتَسْكِ كَمَا بَدَتْ مِنْ خِلَالِ وَصْفِ صَهْرِهَا سَتِيفَانَ؟
- ٩ - لِلْحَوَارِ دَوْرٌ فِي رَسْمِ الشَّخْصِيَّاتِ. اذْكَرْ نِقَاطَ التَّنَاقُضِ بَيْنَ شَخْصِيَّتَيْ لَيْفِينِ وَسَتِيفَانَ كَمَا بَدَتْ لَكَ مِنْ خِلَالِ الْحَوَارِ بَيْنَهُمَا فِي هَذَا الْفَصْلِ.
- ١٠ - أَوْجِزْ مَضْمُونَ الْفَصْلِ فِي أَسْطُرٍ قَلِيلَةٍ.

الفصل الثامن

لا يَخْتَلِفُ اثْنَانِ فِي أَنَّ كَاتِرِينَ شَرِبَاتَسْكَي زَهْرَةَ اِكْتَمَلَ طَلْعُهَا وَسَطَعَ عَبِيرُهَا. لَا يَخْتَلِفُ اثْنَانِ فِي أَنَّهَا مَا كَادَتْ تَتَرَعَّرَعُ وَتَبْلُغُ مِنَ الْعُمُرِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ عَامًا حَتَّى زَهَا حُسْنُهَا بِهَا، وَكَأَنَّ الْحُسْنَ يَفْخَرُ بِأَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهَا؛ وَتَأَلَّقَ الْجَمَالُ بِسَنَاهَا، وَكَأَنَّ الْجَمَالَ يُغَوِّزُهُ نَوْرٌ يَنْبِئُ مِنَ ثَنَائِهَا.

وَمَا كَانَتْ أُمُّهَا لِتُصَدِّقَ، لَوْلَا وَقُوفُهَا مِنَ الْمُجْتَمَعِ عَنِ كَتَبِ، مَا لَاقَتْهُ كَرِيمَتُهَا مِنْ إِعْجَابٍ فِي الْوَسْطِ الرَّاقِي، فَمَا مِنْ شَابٍّ فِي مَوْسِكُو إِلَّا وَزَارَهُ طَيْفُهَا مِرَارًا، وَمَا مِنْ فَتَى عَرَبِيٍّ عَرِيضِ الْجَاهِ إِلَّا وَأَدْرَكَهُ مِنْ عَزْفِهَا^(١) شَذَا.

وَسُرْعَانَ مَا بَرَزَ إِلَى الْأَمَامِ شَابَانٍ مِنْ خَيْرَةِ الشَّبَابِ، هُمَا لَيْفِينُ الشَّبَابِ الْقَوِيُّ الْجَادُّ، وَالْكُونْتُ فَرُونَسْكَي الْمُتَرَفِّ الْأَنْبِيُّ الَّذِي تَعْنُو^(٢) لِسِحْرِهِ الْجِبَاهُ.

وَلَمْ يَكُنْ لَيْفِينُ مِنْ رَهْطِ اللَّهْوِ، بَلْ كَانَ طَالِبَ مُصَاهَرَةٍ.. فَمَا كَادَ يُظْهِرُ رَغْبَتَهُ فِي تَرُدِّهِ عَلَى بَيْتِ كَاتِرِينَ، حَتَّى فَطِنَ أَبُوَاهَا إِلَى اِكْتِمَالِ أُنُوثَتِهَا وَنُضْجِ جَمَالِهَا، وَحَتَّى آلَى كُلُّ مِنْهُمَا أَنْ يَبْحَثَ لَهَا عَنْ أَكْرَمِ صَهْرٍ، لِتَدُومَ بِذَلِكَ سَعَادَتُهَا، وَتَعِيشَ أَيَّامَهَا فِي نِظَامٍ مِنَ الْهَنَاءِ وَالصَّفَاءِ بَدِيع!

إِلَّا أَنْ رَغْبَتُهُمَا تَسَعَّبَتْ، وَأَمَرَ زَوَاجِهَا مِنَ الرَّجُلِ الْأَفْضَلِ أَنْتَارَ بَيْنَهُمَا عَاصِفَةً مِنَ الشُّجَارِ وَالْمُشَاحِنَةِ. فَالْأَبُ يَمِيلُ كُلَّ الْمَيْلِ إِلَى لَيْفِينِ، وَيَرَى فِيهِ مِثَالَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ الْكَرِيمِ، وَالْأُمُّ هِيَ، الْأُمُّ، وَقَبِلَ أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ، هِيَ امْرَأَةٌ. وَمِنْ عَادَةِ الْمَرْأَةِ أَنْ لَا تَسْتَقِيمَ عَلَى أَمْرِ، بَلْ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُمَاطِلَ وَتُسَوِّفَ وَتَتَرَدَّدَ. فَكِرَّةٌ تَقُولُ إِنَّ كَاتِرِينَ طِفْلَةٌ لَمْ تَبْلُغْ طَوْرَ الشَّبَابِ، وَأُخْرَى تَزْعُمُ أَنَّ لَيْفِينَ مُحْتَارًا فِي أَمْرِهِ، يُقَدِّمُ ثُمَّ يُحْجِمُ، وَأَنَّ كَاتِرِينَ لَمْ تُظْهِرْ نَحْوَهُ أَيَّ حُبِّ

(١) العزف: الرأحة الطيبة.

(٢) عنا (يعنوا) له: خضع له.

أَوْ رِضًا .

وقد جابَهَتْ زَوْجَهَا أَخِيرًا بِرَفْضِهَا، وَأَخْبَرَتْهُ صِرَاحَةً أَنَّ أَحْرَ زَوْجَ تَمَنَّاهُ لِابْتِيهَا هُوَ لِيَفِينُ .

وَدَرَى لِيَفِينُ بِمَا شَجَرَ مِنْ خِلَافِ بَيْنِ الزَّوْجَيْنِ بَسْبِيهِ، فَارْتَحَلَ عَنْ مُوسَكَو . وَكَانَ رَحِيلُهُ الْبَشِيرَ بَزْوَالِ الْعِمَامَةِ الَّتِي ظَلَلَتْ سَمَاءَ الْبَيْتِ السَّعِيدِ رَدْحًا مِنَ الْوَقْتِ . وَلَمْ تَكُنْ الْأُمُّ فَرَحَتْهَا، بَلْ إِنَّهَا خَاطَبَتْ زَوْجَهَا عَقَبَ ذَهَابِهِ بِقَوْلِهَا: «هَا هُوَ صَاحِبُكَ يَتَصَرَّفُ كَالْأَخْرَقِ الَّذِي لَا يَفْهَمُ مِنْ مَعَانِي الْأَدَابِ إِلَّا اسْمَهَا مُجَرَّدًا مِنْ كُلِّ صِفَةٍ! لَقَدْ ظَنَّ^(١) مِنْ دُونِ أَنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ مَنْ يَرْمِي إِلَى الْبَتِّ فِي أَمْرٍ!»

وَلَمَّا بَزَغَ نَجْمُ الشَّابِّ فِرُونَسْكِ فِي مُوسَكَو، وَعَدَا مَطْمَحَ أَنْظَارِ الْحِسَانِ، تَضَاعَفَ ارْتِيَاخُ الْأُمِّ لِدَهَابِ لِيَفِينِ، وَجَعَلَتْ تَحْتَفِي بِفِرُونَسْكِ وَتُظْهِرُ لَهُ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ مِنْ ضُرُوبِ الْمَوَدَّةِ .

فَمَنْ الَّذِي يَجْرُؤُ عَلَى الْمُقَارَنَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ لِيَفِينِ؟ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقَارِنَ بَيْنَ الْمَحْبُوبِ وَالْمَكْرُوهِ، أَوْ بَيْنَ الزَّهْرِ وَالشُّوْكِ؟

كَانَ لِيَفِينُ خَشِينًا يَنْفَرُ مِنَ النَّاسِ، وَيَتَّعِدُ عَنِ الْمُجْتَمَعِ . كَانَ يُعْنَى بِسَائِمَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ عِنَايَتِهِ بِالنَّاسِ، وَكَانَتْ حَظَائِرُ الْخَنَازِيرِ أَدْعَى لِهَنَائِهِ وَرَاحَتِهِ مِنْ رُدْهَاتِ الْاسْتِقْبَالِ!

تُمْ، هَلْ عَزَمَ عَلَى أَمْرٍ؟ هَلْ تَقَدَّمَ طَالِبًا يَدَ كَاتِرِينَ؟ لَا، لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، مَعَ أَنَّهُ غَشِيَّ مَنْزِلَهَا أَسَابِيعَ وَأَسَابِيعَ . لَقَدْ تَرَدَّدَ كَثِيرًا، كَأَنَّهُ يَضِنُّ عَلَى أَهْلِهَا بِهَذَا الشَّرَفِ، وَكَأَنَّهُ يَعْتَبِرُ نَفْسَهُ أَعْلَى مَرْتَبَةٍ مِنْهُمْ، أَوْ كَأَنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَفْهَمَ وَاجِبَهُ الَّذِي يَفْرِضُهُ عَلَيْهِ الْعُرْفُ وَالْعَادَةُ .

وَعَلَى حِينِ فَجَاءَتْ يَلُودُ بِأَذْيَالِ الْهَرَبِ، فَيَفِرُّ مِنَ الْمَدِينَةِ، كَأَنَّ الْمَقَامَ فِي مُوسَكَو نَبَا^(٢) بِهِ، لِحَوْفِ غَشِيَّتِهِ مِنْ كَاتِرِينَ وَعَائِلَتِهَا، وَلِمَكْرُوهِ حَشِيَّتِي أَنْ يُصِيبَهُ مِنْهُمْ!

وَعَلَى نَقِيضِهِ كَانَ فِرُونَسْكِ - فَهَوَ فِي رَأْيِهَا الشَّابُّ السَّعِيدُ الَّذِي رَزَقَهُ اللَّهُ مِنَ الْعَقْلِ

(١) ظَنَّ: رَحَلَ .

(٢) نَبَا بِهِ: جَفَاهُ، لَمْ يَطْبُ لَهُ .

أَفْضَلَ الْحَظِّ، وَمِنَ الْحَصَافَةِ^(١) أَجْرَلَهَا، وَمِنَ الْغِنَى أَكْثَرَهُ. وَهُوَ الشَّابُّ الَّذِي سَدَّدَ اللَّهُ خُطَاهُ فِي أَنْفَعِ السُّبُلِ، وَجَلَبَ لِكُلِّ مَنْ أَلَمَّ بِهِ الْحَظُّ وَالسَّعْدُ، وَبَلَغَ الرُّبْنَةَ الْقُضَى بِأَفْعَالِهِ وَخِصَالِهِ! وَقَدْ أَنْطَبَعَتْ فِي ذَهْنِهَا صُورَةٌ رَائِعَةٌ لَهُ كَزَوْجِ لَابِتْنِهَا. وَهُوَ فَوْقَ هَذَا ضَابِطٌ رَفِيعٌ فِي الْبَلَاطِ، وَمُسْتَقْبَلُهُ فِي الْمَجَالِ الْعَسْكَرِيِّ يُبَشِّرُ بِكُلِّ تَقْدَمٍ... وَحَدَّثَ وَلَا حَرَاجَ عَنْ حُسْنِ طَلْعَتِهِ وَأَنَاقَةِ مَظْهَرِهِ... وَهَذَا مَا تَرَعَبُ فِيهِ الْمَرَأَةُ وَتَتَوَقُّ إِلَيْهِ!

وَلَمَّا فَرَعَتْ مِمَّا أَرَادَتْ مِنْ تَكْوِينِ الرَّأْيِ، بَدَأَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْرَهَا إِلَى صَهْرِهَا، وَتُظْهِرُ كَثِيرًا مِنْ ضُرُوبِ الْحَفَاوَةِ وَالشُّرُورِ، إِذَا مَا جَاءَ زَائِرًا، فَتُحِيطُهُ بِعِنَايَتِهَا، وَتُمَهِّدُ لَهُ سَبِيلَ الْخَلْوَةِ بِابْتِنِهَا... وَقَدْ وَقَعَتْ كَاتِرِينَ فِي قَلْبِهِ مَوْقِعًا حَسَنًا فَهَوَ لَا يُفَارِقُهَا كُلَّمَا اجْتَمَعَا فِي حَفْلٍ، وَهَوَ لَا يُرَاقِصُ سِوَاهَا، وَهَوَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظْرَهُ إِلَى سَيِّدَةٍ مُحْتَرَمَةٍ جَدِيرَةٍ بِالتَّقْدِيرِ وَالتَّبْجِيلِ، خَلِيقَةٍ أَنْ يَتَّخِذَهَا الْإِنْسَانُ لَهُ حَلِيلَةً.

وَاسْتَبَشَّرَتْ الْأُمُّ سَاعَةَ لَمَحَ لَهَا الشَّابُّ بِرَغْبَتِهِ. لَمْ يُقَلِّ لَهَا مُبَاشَرَةً إِنَّهُ يَهْوَى ابْنَتَهَا وَيُودُّ لَوْ تَزَوَّجَهَا، بَلْ قَالَ مِنَ الْكَلَامِ مَا فَهَمَتْ مِنْ فَحْوَاهُ أَنَّهُ يَضْبُو إِلَى تَحْقِيقِ هَذِهِ الْأُمْنِيَةِ.

فَقَدْ انْتَهَزَ فُرْصَةً انْشِغَالِهِ بِالْحَدِيثِ مَعَ الْفَتَاةِ، فَقَالَ لَهَا إِنَّهُ لَا يَنْقُضُ رَأْيِي وَإِدْبَتِي، بَلْ يَسْتَشِيرُهَا فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، وَإِنَّ الْوَالِدَتَهُ آتِيَةٌ عَنْ قَرِيبٍ إِلَى مُوسِكُو، وَسَيَأْخُذُ رَأْيَهَا فِي أَمْرِ عَلَى جَانِبِ عَظِيمٍ مِنَ الْخُطُورَةِ.

أَلَيْسَ هَذَا مِنْ قَبِيلِ التَّلْمِيحِ؟ أَلَا يَعْنِي بِكَلِمَاتِهِ أَنَّهُ تَوَاقُّ إِلَى مُبَاحَثَةِ أُمِّهِ فِي أَمْرِ زَوَاجِهِ مِنْ كَاتِرِينَ؟!

وَلَمْ تَحْدُسْ كَاتِرِينَ مَغْزَى كَلِمَاتِهِ، بَلْ إِنَّهَا نَقَلَتْ عِبَارَتَهُ إِلَى أُمِّهَا، فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَّا أَنْ مَدَحَتْهُ وَأَطْرَتْ شِمَائِلَهُ وَصَفَاتِهِ.

لِهَذَا، فَمَا رَجَعَ لِيَفِينُ إِلَى مُوسِكُو حَتَّى تَوَلَّى الْأُمُّ قَلْقَ وَانْزِعَاجَ، وَآلَتْ أَنْ تَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كَرِيمَتِهَا، حَتَّى وَلَوْ قَدَّرَ أَنْ يَجْمَعَ لَهَا بَيْنَ شَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَدْ جَرَى الْحَدِيثُ التَّالِي بَيْنَ الْأُمِّ وَالْإِبْنَةِ فِي أَثْنَاءِ أَوْبَتَيْهِمَا مِنْ حَلِيَةِ التَّرْلِجِ؛ قَالَتْ الْأُمُّ مُتَسَائِلَةً: «مَتَى عَادَ لِيَفِينُ؟ هَلْ تَبَيَّنَ مِنْ أَمْرِهِ؟»

(١) الْحَصَافَةُ: الْفِطْنَةُ وَجُودَةُ الرَّأْيِ.

- «إِنَّهٗ جَاءَ مُوسِكُو الْيَوْمَ يَا أُمَاهُ» .

- «ثُمَّ شَيْءٌ أَوْدُ أَنْ أُطْلِعَكَ عَلَيْهِ...» .

فَقَاطَعَتْهَا الْفَتَاةُ وَوَجَّهَهَا يَتَضَرَّجُ حَيَاءً: «أُمَاهُ، أَرْجُوكِ، أَرْجُوكِ أَنْ لَا تَقُولِي شَيْئًا، فَأَنَا أَعْرِفُ، أَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ» .

كَانَتْ رَغْبَتُهَا مُتَّفِقَةً مَعَ رَغْبَةِ أُمِّهَا، إِلَّا أَنَّ الْعَوَامِلَ الَّتِي كَوَّنَتْ رَغْبَةَ أُمِّهَا، أَلَمَتْهَا .
وَقَالَتِ الْأُمُّ: «وَدِدْتُ أَنْ أَقُولَ إِنْ بُعِثَ الْأَمَلُ...» .

- «أَرْجُوكِ، نَاشِدْتُكَ اللَّهُ أَنْ لَا تَفْعَلِي، فَالْتَكَلَّمُ فِي هَذَا الْأَمْرِ يُرْمِضُ نَفْسِي وَيُكْرِبُنِي!»
- «لَا تُرَاعِي يَا حَبِيبَتِي، لَا تَبْكِي، فَلَنْ أَتَكَلَّمَ، مَعَ أَنَّكَ طَالَمَا أَكَّدْتِ أَنْ لَنْ يَكُونَ بَيْنَنَا سِرٌّ مَكْتُومٌ» .

- «كَلَّا لَنْ يَحُولَ بَيْنِي وَبَيْنَ قَلْبِكَ أَمْرٌ يَا أُمَاهُ، وَلَكِنِّي لَا أَعْلَمُ مَاذَا أَقُولُ، وَلَوْ شِئْتُ الْحَدِيثَ لَجْهَلْتُ مِنْ أَيْنَ أَبْدَأُ، وَلَوْ خَيْرْتُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ لَأَخْتَرْتُ وَلَمْ أَخْتَرُ» .

إِنَّهَا صَادِقَةٌ... صَادِقَةٌ... وَلَا يَسْنَى لَهَا تَيْنِ الْعَيْنَيْنِ الصَّافِيَتَيْنِ الصَّرِيحَتَيْنِ أَنْ تَأْفِكَ^(١) وَتُنَافِقًا .

وَابْتَسَمَتِ الْأَمِيرَةُ الْأُمُّ وَهِيَ تَرْمُقُ ابْتِهَاءً بِنَظَرَةِ الْمَحَبَّةِ وَالْإِعْزَازِ، وَتُفَكِّرُ فِي مَا هِيَ مُقَدِّمَةٌ عَلَيْهِ مِنْ زَوَاجٍ، دَاعِيَةً اللَّهُ فِي مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا أَنْ يُمَهِّدَ أَمَامَهَا طَرِيقَ السَّعَادَةِ وَالسَّلَامِ .

* * *

بَعْدَ الْعِشَاءِ وَفِي الْفَتْرَةِ الَّتِي سَبَقَتِ الْحَفْلَةَ السَّاهِرَةَ كَانَ شُعُورُ كَاتِرِينَ أَشْبَهَ بِشُعُورِ الْجُنْدِيِّ الْمُقْبِلِ عَلَى مَعْرَكَةٍ .

وَرَأَتْ نَفْسَهَا فِي مَفْرَقِ طُرُقٍ، وَأَيَّقَنْتْ أَنَّ مُسْتَقْبَلَهَا سَيَقَرُّ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مَتَى التَّقَى الشَّابَانِ، فَالْتِقَاؤُهُمَا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ هُوَ، كَمَا أَيَّقَنْتْ، نُقْطَةُ التَّحْوُلِ فِي حَيَاتِهَا .

وَارْتَعَشَتْ مِنَ الْهَلَعِ، وَأَنْشَأَتْ تُفَكِّرُ فِي كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى حِدَةٍ وَتُقَابِلُ بَيْنَ النَّدَّيْنِ، وَتُفَاضِلُ وَتَخْتَارُ، وَتُعْجَبُ وَتَسْتَهْجِنُ .

(١) أَنْ تَأْفِكَ: أَنْ تَكْذِبَا .

وأثار ليقين حنانها وعطفها، فهو صديق قديم، صديق مُخلص حميم، وإن لم يَمَادِ الشعور نحوه مُخترِقًا نِطاقَ الشَّفَقَةِ والرَّناءِ، والتَّأسُفِ على شيءٍ لا تَكُنُهُ^(١) حَقِيقَتُهُ.

أما فرونسكي فقد علق قلبها بعموضه، ولعلَّ رِواءَهُ وحُسنَ دِياجِيهِ خَلَقَا في مُخَيَّلَتِهَا البِكرِ نَوْعًا مِنَ الاغْتِقادِ الرَّاسِخِ بأنَّه قَادِرٌ على إِسعَادِهَا، مُتَمَكِّنٌ مِنْ إِحاطَتِهَا بِجَوْ مِنْ البُلْهَنِيَّةِ^(٢) والدَّعَةِ. فهو كما تَرَأَى لَهَا قد اجْتَمَعَتْ فِيهِ خِلَتَانِ حَمِيدَتَانِ: الجَمَالُ والكَمَالُ، وبهاتَيْنِ الخِلَتَيْنِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرُكْنَ إِلَى حَيَاةٍ رَضِيَّةٍ رَغِيدَةٍ.

وصعدت في السَّلايِمِ إِلَى الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ لِاسْتِبدَالِ مَلَاسِهَا اسْتِعدادًا لِلْحَفْلَةِ. فَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَى نَفْسِهَا فِي المِرآةِ، رَأَتْ، والسُّرورُ مُسْجُودٌ عَلَيْهَا، أَنَّهَا فِي أَحْسَنِ حَالَاتِهَا، وَأَنَّهَا مُتَمَلِّكَةٌ لِشَعُورِهَا، مُسَيِّطِرَةٌ عَلَى أَغْصَابِهَا، وَاثِقَةٌ مِنْ نَفْسِهَا، مُطْمَئِنَّةٌ إِلَى قُوَّتِهَا وَإِرَادَتِهَا، وَهِيَ فِي مَسِيسِ الحَاجَةِ إِلَى العَزِيمَةِ حَتَّى تَخْرُجَ سَالِمَةً القَلْبِ والإِحْسَاسِ مِنْ مَعْرَكَةِ اللِّيْلَةِ، مَعْرَكَةِ العَوَاطِفِ وَالمَشَاعِيرِ، المَعْرَكَةِ الفَاصِلَةِ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا وَإِلَى مُسْتَقْبَلِهَا!

وما كَادَتْ تَهَيِّطُ السَّلايِمَ فِي السَّابِعَةِ والنِّصْفِ حَتَّى أَعْلَنَ الحَاجِبُ قُدُومَ لَيْفِين. وَلَمْ يَكُنْ فِي القَاعَةِ أَحَدٌ سِوَاهَا، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا نُدْحَةٌ^(٣) مِنْ اسْتِقبالِهِ.

وما كَانَ لَهَا صَدِيقَةٌ مَحْضَنُهَا يَفْتَتِهَا، وَاسْتَأْمَنُهَا عَلَى سِرِّهَا، وَاضْطَفَّتْهَا لِمَشُورَتِهَا؛ لِهَذَا اتَّجَهَتْ نَحْوَ الصَّيْفِ، ثُمَّ وَقَفَتْ مُتَرَدِّدَةً فِي مُتَصَفِّفِ الطَّرِيقِ، وَقَدْ أَلَمَّهَا مَا شَعَرَتْ بِهِ، أَلَمَّهَا أَنْ تُقَرَّرَ مَشَاعِرُهَا الخَفِيَّةُ أَنَّ السَّابَّ المُقْبِلَ نَحْوَهَا لَنْ يَفُوزَ مِنْهَا بِطَائِلٍ، وَأَنَّهَا سَتُسَبِّبُ كَثِيرًا مِنَ الأَلَمِ والعَذَابِ لِرَجُلٍ يَكُنْ لَهَا أَسْمَى آيَاتِ الحُبِّ والإِخْلَاصِ.

وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ بَعِينِينَ مُتَضَرِّعَتَيْنِ، وَكَأَنَّ نَاطِرِيهَا نَطَقَا بِخَبْرِهَا، وَقَصَا عَلَيْهِ قِصَّتَهَا.

وَلِكِنَّهُ لَمْ يَقَمَّ لَعْنَةُ اللُّحَاطِ بَلْ مَدَّ لَهَا يَدَهُ مُصَافِحًا، وَضَعَطَ قَلِيلًا عَلَى الأَنَامِلِ الرَّخِصَةِ وَقَالَ: «المَعْدِرَةُ إِنْ بَكَرْتُ فِي الحُضُورِ، وَلِكِنِّي لَمْ أَجِدْ مَا يَشْغَلُنِي عَنِ الشُّوقِ...».

وَتَلَفَّتْ حَوْلَهُ فِي قَلْبِي، ثُمَّ أَرَدَفَ: «وَإِنِّي وَائِمُ الحَقِّ تَمَنِّيْتُ أَنْ أَجِدَكَ وَحِيدَةً، وَلَسْتُ فِي شَكٍّ مِنْ أَنَّكَ سَتُصَيِّحِينَ إِلَى مَا أَقُولُ حَتَّى النِّهَايَةِ...».

(١) تَكُنُهُ حَقِيقَتُهُ: تُذَكِّرُهَا.

(٢) البُلْهَنِيَّةُ: العَيْشُ الرَّخِيءُ.

(٣) نُدْحَةٌ: مَهْرَبٌ أَوْ مَفْرٌ.

وَتَمَلَّمَلْ فِي مَكَانِهِ قَلِيقًا مُضْطَرِبًا. وَقَالَتْ كَاترِينُ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «لَنْ تَلْبَثَ أُمِّي أَنْ تَأْتِي
يَا سَيِّدِي!»

وَتَضَرَّجَ وَجْهَهَا، وَأَطْرَقَ هُوَ بِرَأْسِهِ، وَقَالَ بَعْدَ لَأَيٍّ^(١): «اعْلَمِي أَنَّ مُقَامِي فِي مُوسْكَو
يَطُولُ أَوْ يَفْضُرُ تَبَعًا لِمَوْفِقِكِ». وَسَرَتْ فُشْعْرِيرَةٌ بَارِدَةٌ فِي جِسْمِهِ. كَيْفَ؟ كَيْفَ جَرُّو؟ كَيْفَ
تَجَاسَرَ عَلَى التَّنَطُّقِ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ؟

وَعَضَّتْ كَاترِينُ مِنْ طَرْفِهَا^(٢)، وَاخْتَلَجَتْ أَهْدَائِبُهَا فِي انْفِعَالٍ وَحَيْرَةٍ. وَأَزْدَفَ بَعْدَ أَنْ
اسْتَعَادَ رِبَاطَةَ جَأْشِهِ^(٣): «أَجَلٌ أَوْدٌ أَنْ أَقُولَ... أَنْ أُخْبِرَكَ... أَنْ أَفْضِي إِلَيْكَ بِأَنِّي...
بَأَنِّي... أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ رَأْيِكَ فِي شَخْصِي لَوْ تَقَدَّمْتُ إِلَيْكَ بِطَلَبِ الزَّوْاجِ! هَلْ تَقْبَلِينَ بِي؟
هَلْ تُوَافِقِينَ؟»

وظَهَرَ عَلَيْهِ فَجَاءَةٌ وَجُومٌ مَنِ اشْتَدَّ هَمُّهُ وَعَظُمَ عَمُّهُ، وَلَكِنَّهُ ظَهَرَ عَلَيْهِ أَيْضًا الْإِرْتِيَاخُ لِمَا
قَامَ بِهِ وَأَدَأُهُ، وَمَا عَلَيْهِ الْآنَ سِوَى انْتِظَارِ الْجَوَابِ، فِيمَا الْقَبُولُ وَإِمَّا الرَّفْضُ... فَإِنَّ أَجَابَتْ
بِالْقَبُولِ طَابَتْ نَفْسُهُ وَاعْتَبِطَتْ، وَإِنْ رَدَّتْهُ خَائِبًا دَاخَلَهُ مِنَ الشَّقَاءِ مَا يَنْتَزِعُهُ انْتِزَاعًا، وَيَقْتَلِعُهُ
اِقْتِلَاعًا مِنْ مُوسْكَو!

وَأَلْجَمَ لِسَانُ كَاترِينِ، وَوَجَبَ قَلْبُهَا، وَدَاخَلَهَا مِنَ الدُّعْرِ مَا سَلَّ حَرَكَتَهَا وَكَبَّلَ إِرَادَتَهَا.
وَجَعَلَتْ تَتَلَدَّدُ^(٤) فِي مَكَانِهَا مَتَمَلِّمَةً.

وَطَنَعَى عَلَيْهَا عَلَى حِينِ غِرَّةٍ شُعُورٍ عَجِيبٍ مِنَ الْإِعْجَابِ وَالشَّرُورِ وَالزَّهْوِ. ثُمَّ رَفَعَتْ إِلَيْهِ
طَرْفًا مُخْضَلًّا، فَإِذَا بَوَاجِهِ فِرُونْسْكَي يَحْجُبُ وَجْهَهُ لَيْفِينَ عَنِ نَاطِرِيهَا، وَإِذَا بِخَيَالِهِ الْجَمِيلِ يَرْنُو
إِلَيْهَا مُتَسَائِلًا، وَإِذَا بِهَا تَتَمَتُّمٌ بِجَزَعٍ: «لَا... لَا...».

وَجَمَّجَمَ الْمَسْكِينُ مِنْ دُونِ أَنْ يَنْظُرَ نَحْوَهَا: «إِنَّ الْفَاشِلَ مَأْخُودٌ دَائِمًا بِفَشْلِهِ، إِنَّ عَائِرَ
الْحِظِّ لَا يُخْطِئُهُ الْإِخْفَاقُ... وَهَذَا كَانَ مُتَنَظِّرًا».

وَأَحْنَى هَامَتَهُ بِاحْتِرَامٍ، وَتَحَوَّلَ عَنْهَا، وَهُوَ يُجَرُّ وَرَاءَ سَاقِيهِ الْمُتَرَبِّعَتَيْنِ أَذْيَالَ الْحَيِّبَةِ،

(١) لَأَيٍّ: مَشَقَّةٌ.

(٢) طَرْفِهَا: نَظَرِهَا.

(٣) رِبَاطَةَ جَأْشِهِ: شَجَاعَتَهُ.

(٤) تَتَلَدَّدُ فِي مَكَانِهَا: تَلَبَّثَتْ (تَقِيمُ) فِيهِ مَتَحَيَّرَةً.

حَتَّى لَكَأَنَّه كَانَ يَتَحَامَلُ عَلَى نَفْسِهِ حَذَرَ الْإِنْهَارِ! وَلَكِنَّ دُخُولَ الْأُمِّ فِي تِلْكَ الْهَيْئَةِ،
وَاقْتِرَابَهَا مِنْهُ، جَعَلَهُ يَتَرَيْتُ مُسْتَمَهَلًا وَيَتَمَاسِكُ مُتَجَلِّدًا.

وَصَعَدَتِ الْأُمُّ عَيْنَيْهَا فِي الشَّابِّينِ مُتَوَجِّسَةً^(١) مُسْتَرِيَةً، وَلَكِنَّهَا مَا لَبِثَتْ أَنْ انْبَسَطَتْ
أَسَارِيرُهَا؛ فَأَمَّا زُفَى الْفَتَى تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَحْظَ مِنْ ابْتِنَاهَا بِطَائِلٍ، وَتَقَاطِيعِ الْفِتَاةِ تُشِيرُ إِلَى أَنَّهَا
لَمْ تَقْضِ لَهُ مِنْ مَآرِبِهِ وَطَرًا.

لَقَدْ اسْتَجَابَتْ لَهَا كَرِيمَتُهَا، وَاتَّخَذَتْ مِنْ مِثَالِيَّةِ فِرُونْسِكِي نِيرَاسًا تَسْتَضِيءُ بِهِ وَتَسْتَرِشِدُهُ!
وَمَا هِيَ تَضَعُ حَذًا لِأَخْلَامِ لَيْفِينِ، وَتُفْهِمُهُ صِرَاحَةً أَنَّهَا لَنْ تَكُونَ لَهُ. . . فَنِعْمَ الْإِبْنَةُ ابْتِنَاهَا!

وَسُرْعَانَ مَا بَشَّتْ لَهُ حِينَ حَبَّأَهَا، وَطَلَبَتْ إِلَيْهِ بِلُطْفٍ أَنْ يَجْلِسَ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ تَسْأَلُهُ
عَنْ حَالِهِ، وَتَسْتَوْضِحُهُ أُمُورَ الْقَرِيَّةِ، وَمَا يَفْعَلُهُ هُنَاكَ، وَمَا يَقُومُ بِهِ مِنْ نَشَاطٍ.

وَاقْتَضَبَ لَيْفِينُ أَجُوبَتَهُ، وَإِنْ حَاوَلَ جَاهِدًا أَنْ لَا يَكُونَ جَافًا فِي مَقَالَتِهِ.

وَمَا مَضَى مِنَ الزَّمَنِ سَاعَةٌ حَتَّى تَوَافَدَ الْمَدْعُوعُونَ وَالْمَدْعُوعَاتُ، وَفِي مَقَدِّمَتِهِمُ النَّبِيلَةُ
الْحَسْبِيَّةُ «الْكُونْتِسْ نوردسون».

وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ، نَصَفَ بَيْنَ النِّسَاءِ، فَهِيَ نَحِيلَةٌ هَزِيلَةٌ، قَمِيئَةٌ، حَادَّةُ الطَّنَجِ، مُتَوَرِّةُ
الْأَعْصَابِ، كَلِفَتْ بِكَاتَرِينَ وَآثَرْتَهَا بِحُبِّهَا، حَتَّى إِنَّ شَوْقَهَا إِلَى ضَمَانِ الْمُسْتَقْبَلِ الزَّاهِرِ لَهَا
فَاقَ شَوْقَ أُمَّهَا. وَكَانَتْ تُشَايِعُ فِرُونْسِكِي وَتَحْقِدُ عَلَى لَيْفِينِ، لِهَذَا كَرِهَتْ كَاتَرِينَ بِالْأَخِيرِ،
حَتَّى نَفَرَ قَلْبُ الْفِتَاةِ وَخَشِيَّتِ الْاقْتِرَابَ مِنْهُ، نَاهِيكَ عَنِ الْاقْتِرَانِ بِهِ.

وَلَوْلَا مَا حَظَّرَهُ الْأَدَبُ عَلَيْهَا مِنْ مُعَامَلَةِ النَّاسِ بِالْقَسْوَةِ وَالسُّدَّةِ لَمَا تَوَرَّعَتْ كَاتَرِينَ عَنِ
مُجَابَهَةِ لَيْفِينِ بِمَا لَا يُحِبُّ فِي حَلْبَةِ التَّرْجُحِ!

لَقَدْ أَثَرَتْ فِيهَا هَذِهِ الْمَرْأَةُ تَأْثِيرًا كَبِيرًا، وَلَا غَرَوْ، فَالْمَرْأَةُ مَتَى مَقَّتَتْ، كَادَتْ^(٢)
وَأَوْقَعَتْ. . . . وَقد مَقَّتَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ لَيْفِينِ، فَالْتَّ أَنْ تَقْهَرَهُ وَتَكِيدَ لَهُ، وَقد طَالَمَا رَدَّدَتْ:
«أَعْجِبْ بِنَا مِنْ نِدَّيْنِ لَا نَجْتَمِعُ، هُوَ يَكْرَهُنِي وَأَنَا أَبَادِلُهُ الْبُغْضَ، وَأَجِدُ فِي مَا يَعْتَمِلُ فِي
صَدْرَيْنَا مِنْ نَزَعَاتِ الْكِرَاهِيَّةِ وَالْوَجْدِ كَثِيرًا مِنَ الْمُتَمَعَّةِ وَاللَّهْوِ».

(١) مُتَوَجِّسَةٌ: مُضْغِيَّةٌ بِخَوْفٍ.

(٢) كَادَتْ (بِكَيْدٍ) لِشَخْصٍ: اخْتَالَ فِي إِلْحَاقِ الضَّرْرِ بِهِ.

أَمَا لَيْفِينُ، فلم يَكُنْ يَمُقُّهَا، بل كَانَ يَحَقِّرُهَا، وَاخْتِقَارُهُ لَهَا كَانَ لِعُرُورِ رَبِّكَ رَأْسَهَا، فَأَعْمَاهَا عَنْ حَقِيقَتِهَا وَحَقِيقَةِ سِوَاهَا مِنَ الْخَلْقِ.

فَمَا كَادَتْ تُبْصِرُ بِهِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ حَتَّى طَابَتْ لَهَا الشَّخْنَاءُ، فَهَاجَمَتْهُ مُتَهَجِّمَةٌ وَهِيَ تُصَافِحُهُ، وَقَالَتْ: «أَرَاكَ رَجَعْتَ إِلَى «بَابِلَ»، رَجَعْتَ بَعْدَ أَنْ هَجَرْتَهَا وَنَأَيْتَ عَنْهَا، فَمَاذَا حَدَاكَ عَلَى الرَّجُوعِ؟ مَاذَا حَفَزَكَ إِلَى طَرَقِ أَبْوَابِ «بَابِلِ الْفَاسِدَةِ»؟ (كَانَ لَيْفِينُ يُشَبِّهُ مُوسَى وَمَبَادِلَهَا بَبَابِلَ وَفُسَّقَهَا) فَهَلْ تَعَيَّرْتَ بَابِلَ؟ هَلْ أَصْلَحَ مِنْ شَأْنِهَا الْمُضِلِّحُونَ، أَوْ تَدَنَيْتِ أَنْتِ حَتَّى أَصْبَحْتَ فِي مُسْتَوَى أَهْلِهَا الْفَاسِدِينَ الْمَارِقِينَ؟!»

وَكَانَ لَيْفِينُ فِي مَا مَضَى، قَدْ فَتَدَّ آرَاءَ هَذِهِ الْمَرَأَةِ الدَّعِيَّةِ، وَظَاهَرَ^(١) أَهْلَ الرَّيْفِ، وَنَصَرَهُمْ وَأَيَّدَهُمْ. فَلَمَّا جَابَهُنَّ الْكُونَتَسُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ عَلِمَ أَنَّهَا تُحَاوِلُ النَّيْلَ مِنْهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ قَالَ: «لِمَا يَمْلَأُنِي زَهْوًا أَنْ كَلَامِي رَاسِخٌ فِي مُخِيلَتِكَ يَا سَيِّدَتِي».

وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَأَسَاحَ، كَأَنَّهُ لَا يَزْعَبُ فِي مُتَابَعَةِ الْكَلَامِ. وَاسْتَرْعَى انْتِبَاهَهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ضَابِطٌ وَسَمِعَ أَنْبَقَ يَذْلِفُ^(٢) إِلَى الْقَاعَةِ بِخَطَوَاتٍ مُتَزَنَةٍ قَوِيَّةٍ.

وَأَنْبَاهُهُ حِسُّهُ أَنَّ الشَّابَّ هُوَ مُنَافِسُهُ فِي قَلْبِ كَاتِرِينَ؛ وَأَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَمَا قَابَلَتْهُ كَاتِرِينُ بِوَجْهِ طَلْقٍ، وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ تُحِيَّيَهُ وَتُرْحَبُ بِهِ. وَقَارَنَ بَيْنَ مُقَابَلَتِهَا لَهُ وَمُقَابَلَتِهَا لِلضَّابِطِ، وَأَذْرَكَ، وَالْأَسَى يَمْلَأُ صَدْرَهُ، أَنَّ كَاتِرِينَ تُحِبُّ فَرُونَسْكَ، وَأَنَّ أَمَلَهُ قَدْ انْطَفَأَتْ شُعَلَتُهُ إِلَى الْأَبَدِ.

وَتَأَهَّبَ لِيَذْهَبَ، وَتَحَرَّكَ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى يَهْرُبَ مِنَ الْجَنَّةِ الَّتِي انْقَلَبَتْ فِي مِثْلِ عَمُضَةٍ عَيْنٍ وَفَتَحَتْهَا إِلَى سَعِيرٍ مُتَلَطِّئِ النَّيْرَانِ. وَلَكِنَّهُ عَادَ فَكْتَمَ مَا فِي نَفْسِهِ وَعَزَمَ عَلَى إِطَالَةِ مَكْتَبِهِ، وَلَوْ عَلَى مَضْضٍ، حَتَّى يُشَاهِدَ مَا يَجْرِي عَنْ كَتِّبٍ، وَحَتَّى يُلِمَّ بِأَحْوَالِ نِدِّهِ وَيَعْرِفَ الْمَزِيدَ مِنْ أَمْرِهِ.

وَإِذَا هَاجَتِ الْأَحْزَانُ فِي قَلْبِ امْرِئٍ، وَتَأَلَّبَتْ عَلَيْهِ الْمِحَنُ، أَضْحَى أحيانًا خَسِيسًا لَا يَرَى إِلَّا السَّيِّئَاتِ وَالتَّقَائِصَ، أَمَا الْفَضَائِلُ فَتُضَيِّحُ كَالْقَدَى فِي عَيْنِهِ كُلَّمَا لَمَسَهَا فِي غَيْرِهِ.

(١) ظَاهَرَ الْقَوْمَ: نَصَرَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ.

(٢) ذَلَفَ (بِ) أَيْ: مَشَى مُقَابِلَ الْخَطْوَةِ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى دَخَلَ.

يَبْدُ أَنْ لَيْفِينَ كَانَ مِنْ طِينَةِ أَسْمَى، فَهُوَ لَا يَرْعَبُ فِي تَعَرُّفِ مَوَاطِنِ الضَّعْفِ فَحَسْبُ، بَلْ
يَوَدُّ مِنْ صَمِيمِ فُؤَادِهِ أَنْ يَتَحَسَّنَ مَكَامِينَ الْقُوَّةِ فِي إِنْسَانٍ غَيْرِهِ، مَهْمَا تَنَافَرَا فِي الْمِزَاجِ وَالطَّبْعِ
وَالهَدَفِ.

وَحَارَ لَيْفِينُ فِي أَمْرِهِ، فَالِإِشْفَاقُ يُبْطِطُ عَزِيمَتَهُ، وَالشُّوقُ إِلَى مَنْ خَيَّبَتْ رِجَاءَهُ يُنْشِطُ
ذَهْنَهُ، وَهُوَ بَيْنَ هَذِهِ الْإِنْفِعَالَاتِ كَرِيشَةٍ تَهْزُهَا الرِّيحُ وَتَتَلَاعَبُ بِهَا.

وَقَدْ نَظَرَ بِتَمَعْنٍ وَتَفَكَّرٍ إِلَى غَرِيمِهِ، فَأَلْفَاهُ شَابًا كَامِلَ الرُّجُولَةِ لَا يَنْقُصُهُ مِنْهَا مَنْظَرٌ وَلَا
مَظْهَرٌ وَلَا إِرَادَةٌ. وَأَلْفِي فِي رَوْعِهِ أَنَّ هَذَا الْفَتَى لَا يَمِيلُ كغَيْرِهِ مِنْ أَبْنَاءِ الطَّبَقَةِ الْمُتَرَفِّةِ إِلَى
تَكَلُّفٍ مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ يَتَكَلَّمُ مَعَ الْجَمِيعِ بِلَهْجَةٍ وَاحِدَةٍ وَابْتِسَامَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ يُصَافِحُ
الْجَمِيعَ بِطَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ يَتَحَرَّكُ مِنْ دُونِ كُلْفَةٍ.

وَتَوَعَّرَ صَدْرُ لَيْفِينَ وَهُوَ يَرَى هَاتِيكَ الْفَضَائِلَ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَمَقُتْ غَرِيمَهُ بَلْ اسْتَمَرَّ يُرَاقِبُهُ
بَانْتِبَاهٍ. وَقَدْ رَأَى يُقِيلُ عَلَى الْأَمِيرَةِ الْمُضِيفَةَ فُيَصَافِحُهَا بِحَرَارَةٍ ثُمَّ يَعْطِفُ عَلَى كَاتِرِينَ ابْنَتَيْهَا
فِيَادِلُهَا بَعْضَ الْحَدِيثِ، وَيَضْحَكُ هُوَ وَتَضْحَكُ هِيَ، وَتَحْزَنُ^(١) نَفْسُ لَيْفِينَ!

وَجَلَسَ فِرُونَسْكِ فِي مَقْعَدٍ خَالٍ مِنْ دُونِ أَنْ يَلْتَقِيَ إِلَى لَيْفِينَ أَوْ يَشْعُرَ بِوُجُودِهِ، إِلَّا أَنَّ
الْمُضِيفَةَ تَبَهَّتْ فَجَاءَتْ إِلَى مَا يَجِبُ عَلَيْهَا عَمَلُهُ، فَأَسْرَعَتْ تَقُولُ: «لَقَدْ سَهَا عَنِ الْبَالِي تَقْدِيمُ
كُلِّ مِتْكُمْ إِلَى الْآخِرِ. وَأَوْمَأَتْ إِلَى لَيْفِينَ، وَاسْتَلَّتْ: «الْكُونْتُ فِرُونَسْكِ، الْكُونْتُ لَيْفِينُ!»
وَأَنْتَصَبَ فِرُونَسْكِ وَاقْفًا، وَحَذَا لَيْفِينُ حَذْوَهُ، وَتَصَافَحَ الشَّابَانِ، وَأَخْنِيَا رَأْسَيْهِمَا قَلِيلًا؛
ثُمَّ قَالَ فِرُونَسْكِ وَوَجْهُهُ يَطْفَحُ بِشْرًا: «كُنَّا سَنَجْتَمِعُ فِي هَذَا الْمَنْزِلِ عَلَى مَانِدَةِ الْأَمِيرَةِ، يَبْدُ
أَنَّ رَحِيلَكَ الْمَفَاجِئِ، فِي ذَلِكَ الْحِينِ حَسَبَ عَنَّا نَفْحَةَ رَبَّاتِكَ».

فَقَالَ لَيْفِينُ: «وَهَذَا مِنْ بَوَاعِثِ أَسْفِي، إِلَّا أَنِّي اضْطُرَرْتُ يَوْمَئِذٍ إِلَى السَّفَرِ».

قَالَ: «وَرُدَّتْ -وَلَا شَكَّ- أَرْضَكَ فِي الرَّيْفِ يَوْمَ طَعَنْتَ^(٢) عَنِ مُوسَكَو، وَإِخَالَ كُلِّ
شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ هُنَاكَ مُمِلًّا مُضْجِرًّا، هَذَا إِذَا مَكَتَ الْإِنْسَانُ وَأَقَامَ بِصُورَةٍ دَائِمَةٍ، خُصُوصًا
فِي فَضْلِ الشِّتَاءِ، يَوْمَ يَهْبِطُ الْقَرُّ وَتَسَاقُطُ الثَّلُوجُ».

(١) تَحْزَنُ النَّفْسُ: تَغْثُو وَتَضْطَرِّبُ.

(٢) طَعَنْتَ: رَحَلْتَ.

قَالَ: «إِنَّ لِلسَّعَادَةِ مَهَابَّ مُخْتَلِفَةً، وَسَعَادَةُ الْقَرْيَةِ فِي الْعَمَلِ وَالذَّابِ، وَمَنْ يَعْمَلْ هُنَاكَ لَا يُدَاخِلُهُ السَّأَمُ».

قَالَ: «وَلَا أُخْفِيكَ أَنِّي أُحِبُّ الْحَيَاةَ الْحُرَّةَ فِي الْقَرْيَةِ السَّاكِنَةِ الْهَادِيَةِ الْمُتَحَرِّرَةِ مِنَ الْفُيُودِ».

وَحَانَتْ مِنَ الْكُونْتِسْ نوردسون لَفْتَةً، وَسَنَحَتْ لَهَا فُرْصَةَ الْقَوْلِ، فَرَاخَتْ تُخَاطِبُ فرونسكي وتَقُولُ: «وَهَلْ تُسْأَلُ لَكَ نَفْسُكَ الْمَكْتَّ فِي الْحَقْلِ؟ هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَبْقَى هُنَاكَ يَا كُونْتِ فرونسكي لَا تَبْرُحَ وَلَا تَرِيمُ؟»

فَأَجَابَهَا الشَّابُّ وَهُوَ يُهَاجِمُهَا بَطَرْفٍ مُسْتَطِيعٍ: «هَذَا سُؤَالٌ يَسْتَعْصِي الْجَوَابُ عَنْهُ، فَمَا نَزَلْتُ فِي الرَّيْفِ إِلَّا لِإِمَامًا، وَكُلَّمَا قَصَدْتُهُ زَائِرًا، وَأَلَمَمْتُ بِهِ عَامِلًا، أَقَمْتُ رَدْحًا قَصِيرًا... وَأَصْدُقُكَ أَنِّي لَمْ أَعْرِفْ مَدَاقَ الرَّيْفِ فِي رُوسِيَا، وَلَمْ أَتَعَلَّقْ بِهِ إِلَّا بَعْدَ مَا قَضَيْتُ فِي «نَيْس» شِتَاءَ الْعَامِ الْمَاضِي. هُنَاكَ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَقَارِنَ، وَهُنَاكَ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَرَى الْحَقِيقَةَ وَأَعْلَمَ أَنَّ رَيْفَنَا جَنَّةٌ نَعِيم!»

قَالَتْ: «وَمَاذَا شَاهَدْتَ فِي نَيْس؟»

قَالَ: «نَيْسُ مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ مُوحِشَةٌ، وَلَا تَقْرَأُ الْعَيْنُ بِمُلَازِمَتِهَا زَمَانًا طَوِيلًا. وَأَصْدُقُكَ أَنَّ رَيْفَنَا أَمْتَعٌ مِنْهَا وَأَبْهَجٌ مِنْ سِوَاهَا مِنَ الْمُدُنِ، كِنَابُولِي مِثْلًا».

وَأَزْدَلَفْتُ^(١) كَاتِرِينَ فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي وَفَفَ فِيهِ لَيْفِينُ، وَنَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ الْمُتَقَبِّضِ، وَالتَّقَبُّ الْعُيُونُ فِجَاءً، فَبَرَزَ مِنْ عَيْنَيْهِ أَسَى بِالْغُ، وَنَطَقَ لِسَانُ عَيْنَيْهَا فَقَالَ: «أَلَا أَصْفَحُ... إِعْفُ... لَقَدْ تَحَقَّقَتِ الْأَمَالُ فَلَا تَزْجُرُ، وَلَا تَنْقُمُ...».

وَأَجَابَهَا لَيْفِينُ، أَجَابَهَا بِاللَّحْظِ أَيْضًا فَقَالَ: «أَلَا تَبَّا لَكَ! لَقَدْ جَرَّ عَلَيَّ حُبُّكَ الْعَصَصَ، وَكَرَّهَنِي بِالْحَيَاةِ. فَأَنَا أَبْغُضُكَ، وَأَنَا أَمُتُّ نَفْسِي، وَأَنَا أَكْرَهُ الدُّنْيَا قَاطِبَةً!»

وَتَسَعَّبَتِ الْأَحَادِيثُ وَتَفَرَّعَتْ، وَطَفِقَ الْقَوْمُ يَبْدُلُونَ الْكَلَامَ عَلَى الْحَفَلَاتِ الرَّاقِصَةِ، وَالصَّيْدِ وَالْقَنْصِ، ثُمَّ عَرَّجُوا عَلَى الْحَفَلَةِ السَّاهِرَةِ الَّتِي يُزْمِعُ أَنْ يُحْيِيهَا أَلْ شِرْبَاتْسْكِ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ لَا تَتَجَاوَزُ الْأُسْبُوعَ.

(١) أَزْدَلَفْتُ: دَنْتُ وَاقْتَرَبْتُ.

وَأَعْتَمَمَ لَيْفِينَ انْشِغَالَ الضَّيْفِ^(١) عَنْهُ بِأَحَادِيثِهِمْ، وَتَسَلَّلَ خَارِجًا بَعْدَ أَنْ اسْتَأْذَنَ رَبَّةَ الدَّارِ
بِالدَّهَابِ!

* * *

وَلَمَّا وَلَّى قِطْعَ^(٢) كَبِيرٍ مِنَ اللَّيْلِ، وَخَلَا الْبَيْتُ مِمَّنْ اِزْدَحَمَ فِيهِ، انْفَرَدَتْ كَاتِرِينَ بِأُمَّهَا
فَأَطْلَعَتْهَا عَلَى مَا كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ لَيْفِينَ. وَلَمْ تَكُنِ الْحَسَنَاءُ مُعْتَبِطَةً أَوْ مُبْتَسِئَةً، بَلْ إِنَّ إِحْسَاسَهَا
كَانَ يَضْطَرِّمُ بِنَارِ الْإِنْفِعَالِ، فَهِيَ تَسْمَعُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهَا عَرَضًا لِلزَّوْجِ، وَمِمَّنْ؟ مِنْ شَابٍّ
تَمَنَّاهُ أَجْمَلُ الْعِيدِ، مِنْ لَيْفِينَ النَّبِيلِ الثَّرِيِّ.

وَلَمَّا لَادَتْ بِفِرَاشِهَا جَفَاها الْكُرَى^(٣)، فَجَعَلَتْ تَتَقَلَّبُ فِي مَضْجَعِهَا هَاجِسَةً بِمَا يَعْتَمِلُ
فِي صَدْرِهَا، وَقَدْ لَاحَقَهَا وَجْهُ لَيْفِينَ، فَهِيَ لَا تُغْمِضُ عَيْنَيْهَا إِلَّا لِتَرَاهُ مَائِلًا فِي مُخِيلَتِهَا،
وَهِيَ لَا تَفْتَحُ تَيْنِكَ الْعَيْنَيْنِ الْجَمِيلَتَيْنِ إِلَّا لِيُظْهَرَ لَهَا وَجْهُهُ الْحَزِينُ الْكَسِيفُ الْقَانِطُ.

وَاجْتَاخَتْهَا مَوْجَةٌ عَارِمَةٌ مِنَ الْحُزْنِ، وَأَنهَمَرَتِ الدَّمُوعُ مِنْ مَاقِيهَا غَزِيرَةً تَهْتَانَةً. بَيَدَ أَنَّهَا
فَكَرَّتْ بِالشَّابِّ الْآخِرِ الَّذِي ضَحَّتْ بِلَيْفِينَ مِنْ أَجْلِهِ، فَأَشْرَقَ وَجْهَهَا فَجَاءَتْهُ بِنُورِ السَّعَادَةِ،
وَجَفَّتْ مَدَامِعُهَا، وَطَفِقَتْ تَتَخَيَّلُهُ بِقَامَتِهِ الْمَمْسُوقَةِ، وَوَجْهِهِ الْجَمِيلِ، وَنَبْرَتِهِ النَّافِذَةِ الْقَوِيَّةِ.

وَطَعَى عَلَيْهَا فِي هَذِهِ الْهَدَاةِ سُورُورٌ عَظِيمٌ، وَلَكِنَّهَا شَعَرَتْ فِي قَرَارَتِهَا أَنَّ سُورُورَهَا هَذَا
يَشُوبُهُ أَلَمٌ غَامِضٌ، وَكَأَنَّهُ السُّمُّ فِي الدَّسَمِ. فَمَا هُوَ هَذَا الشَّيْءُ يَا ثُرَى؟ وَمَا نَوْعُ هَذَا السُّمِّ؟
وَهَتَفَتْ مُتَهَدِّجَةً: «اللَّهُمَّ ارْحَمْنَا... اللَّهُمَّ ارْحَمْنَا...».

وَمَا فِتْنَتْ تُرَدُّدُ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ حَتَّى اسْتَوْلَى عَلَيْهَا سُلْطَانُ النَّوْمِ فَأَعْفَتْ.

(١) الضَّيْفُ: التَّزِيلُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ وَيُسْتَعْمَلُ لِلْمُفْرَدِ وَالْجَمْعِ.

(٢) قِطْعٌ مِنَ اللَّيْلِ: جُزْءٌ مِنْهُ.

(٣) الْكُرَى: التُّعَاسُ أَوْ النَّوْمُ.

أسئلة تحليلية

- ١ - ضَع لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا .
- ٢ - بدأ الفصلُ بوصفِ مزايا كاترينَ الجمالِيَّة، فما دورُ هذا الوصفِ في الرواية؟
- ٣ - ماذا عَنَّتْ كاترينُ إذ قالتَ لليفينَ حينَ أخذَ يُحدِّثُها: «لن تُلَبِّثَ أُمِّي أَنْ تَأْتِي، يا سيِّدي»؟
- ٤ - مَنْ هو الشابُّ فرونسكي؟ وما مهنتُهُ؟
- ٥ - ما الفكرة التي كَوَّنَتْها أُمُّ كاترينَ عن كلِّ من ليفين وفرونسكي؟
- ٦ - بدأتِ العُقْدَةُ الثانيةُ في حكاية ليفينَ تعرفُ طريقَها إلى الحَلِّ . فهل أَرْضَاكَ أَنْ تَكُونَ كاترينَ لفرونسكي؟ ولماذا؟
- ٧ - لِمَ راوَحَتْ مشاعرُ كاترينَ بين الحزنِ والفرحِ؟ وأيِّ الأساليبِ استخدمَ الكاتبُ لتصوير حالتها هذه؟
- ٨ - بِمَ امتازتْ شَخْصِيَّةُ الكونتس نوردسون؟ وهل كانَ ليفينُ مِحَقًّا في كرهه إيَّاهَا؟
- ٩ - أَرَأَيْتَ في أقوالِ نبلَاءِ موسكو طعنًا بحياةِ الرِّيفِ؟ ولماذا؟
- ١٠ - أيِّ أساليبِ القِصِّ استخدمَ الكاتبُ لتطويرِ الأحداثِ (السَّرد، الوصف، الحوار، المناجاة)؟ أوضِح ذلك .
- ١١ - أَوْجِزْ مَضمونَ الفصلِ في أسطرٍ قَلِيلَةٍ .

الفصل التاسع

في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، استقل فرونسكي عربته إلى محطة القطار ليكون في استقبال والديه. وكان أوبلنسكي أول رجل صادفه هناك. وكان الأخير ينتظر مقدم شقيقه في القطار نفسه.

فلما رآه أوبلنسكي هتف قائلاً: «من تراك تنتظر يا كونت؟»

فأجاب فرونسكي والابيسامة لا تفارق فمه: «أمي... إنها قادمة من بطرسبرج، وستصل اليوم في قطار الصباح».

- «لقد بحثت عنك البارحة، فإلى أين ذهبت عقب مغادرتك منزل آل شرباتسكي؟»

- «توجهت إلى البيت، لأنني لم أطمع في المزيد... فقد لقيت هناك ما ملأ قلبي وجسدي قناعة ورضى، حتى لم أشعر بالميل إلى مواصلة ما انقطع من متعة في مكان آخر».

- «هذا جميل...». وابتسم كما ابتسم في وجه ليفين ساعة أطلعته على كلفه بكاترين.

وما لبث أن صعد فيه طرفه، وابتدرة بالكلمات التي قالها للفين قبلاً: «اعرف الجواد

الأصيل من خطرانيه... والعاشق اعرفه من عينيهِ ولسانيه!»

ولمعت عينا فرونسكي، وافتتر نغره، ونطقت أمائره وأسارير وجهه بما فهمه من كلام

أوبلنسكي، وما أبطأ أن قال بلهجة تشفى عن طيبة قلبه وسلامة طويته: «أشكر لك صراحتك، فأنت كريم، أنت حميم قريب إلى القلوب...».

واشتتلى كأنه يتعمد التحدث في أمر آخر: «ومن من الناس تنتظر في هذه الساعة؟».

- «إنني في انتظار مليحة بين النساء!»

فشد فرونسكي وتساءل قائلاً: «تستقبل امرأة! ومن هي يا ترى؟»

فضحك أوبلنسكي حتى بانث نواجذه، وأجاب: «الرث، الرث، يا صديقي، فالمرأة

التي أنتظرُ هيَ شقيقتي أنا» .

- «أنا كارينا؟»

- «أجل... ألكَ بها سابقُ معرفة؟»

فقال فرونسكي، وهو يحاول أن يستعيد إلى الذاكرة أمرًا غامضًا يتعلّق بهذه المرأة: «قد أعرفُها، لا أدكرُ، قد أعرفُها» .

- «على أنك تعرفُ، من غير شك، زوجها «أليكسيس كارنين». ومن لا يعرفُ الرجل؟ إنه أشهرُ من أن يُعرف» .

- «أصبت، كلنا يعرفُ، وقد سمعتُ به، ورأيتُ وجهه، وهو ولا عرو رجلُ له مكانته الرفيعة، كما أنه حائزٌ على احترام الناس وتقديرهم» .

- «ما دُمتنا قد خُضنا في حديث الناس، فهل قابلتُ الليلة البارحة صديقي ليفين؟»

- «قدُمتنا بعضنا إلى بعض، بيد أنه ما أبطأ أن غادرَ الحفلة خلسة في ساعة مبكرة» .

- «إنه نعم الصديق، وهو فوق ذلك أديبٌ أريب^(١)، وإخالك تُوافقني على نظرتي إليه، ورأيي فيه» .

- «لم أكونُ عنه رأيًا بعد، غير أنه كما تراءى لي، ينأى بجانيه عن المجتمع، ويزورُ عن الناس، ولا يكادُ يخالطهم حتى يملهم! ثم إنه عصبي المزاج، يَحْتَدِمُ غَضَبُهُ سَرِيعًا، ويزورُ به الانفعال، أليس كذلك؟»

فتقرّس أوبلنسكي في الشاب متفحصًا، وما لبث أن قال: «قد يكون ذلك، وقد تكونُ مخطئًا فيما ذهبت إليه من رأي؛ وفي ذهني عنه رأيٌ آخر، ولا أشك قط في أنه كان البارحة على مُفترقِ طُرق، وأن سعادته وشقاءه كان كلُّ منهما في كفة ميزان... لقد لعبَ القدرُ لعبته، ولستُ أدري حتى الآن ماذا أصاب ليفين من خيرِ القدرِ أو من شرّه!»

فالتفت إليه فرونسكي، وحدجُه بنظرة حادة مُستشفة وقال من دون تحرج: «أفصح عما يُخامرك... أكان ليفين من الصابين إلى بلوغِ وطَرِ الزَواجِ بكاترين؟ وهل عوّلَ البارحة على

(١) أريبٌ: ماهرٌ.

طَلَبَ يَدَهَا؟»

قَالَ: «قد تكونُ مُصِيبًا، وانصِرافُهُ قَبْلَ سِوَاهُ دَلِيلٌ دَامِغٌ عَلَى إِخْفَاقِ مَسْعَاهُ... يا لِّلْمَسْكِينِ! إِنَّهُ مُتِمِّمٌ بِهَا مَوْلِعٌ بِحُبِّهَا، وَلَا جَرَمَ أَنَّ خَيِّتَهُ كَانَتْ طَعْنَةً نَجْلَاءً^(١) اخْتَرَقَتْ سُودَاءَهُ... إِيَّيْ أَرْتِي لَه!»^(٢)

فَقَالَ فِرُونْسِكِي بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «إِنَّهُ أَقْدَمَ عَلَى أَعْظَمِ حَطْبٍ، فَكَاتِرِينَ تَسْتَأْهِلُ زَوْجًا خَيْرًا مِنْهُ... وَلَكِنْ مَا لِي أَنْتَسِرُعُ فِي الْحُكْمِ، وَمَعْرِفَتِي بِهِ سَطْحِيَّةٌ لَمْ تَزِدْ عَلَى التَّجِيَّةِ وَتَبَادُلِ بَضْعِ كَلِمَاتٍ؟ إِنَّ الْقَطَارَ مُقْبِلٌ مِنْ بَعِيدٍ، وَلَنْ يَلْبَثَ حَتَّى يَلِجَ الْمَحْطَّةَ».

وَمَزَّقَ الْفَضَاءَ فِي تِلْكَ الْفَيْتَةِ صَفِيرٌ شَدِيدٌ، وَهَدَرَتِ الْآلَةُ وَزَمَجَرَتْ، وَاهْتَزَّتِ الْأَرْضُ تَحْتَ عَجَلَاتِهَا، وَدَلَفَ الْقَطَارُ إِلَى الْمَحْطَّةِ مُسْتَأْنِيًا مُسْتَهْمَلًا وَهُوَ يَنْفُخُ دُخَانَهُ كَالْمُتْعَبِ، وَقَدِ عَلَا الْقَاطِرَةَ بَعْضُ الْجَلِيدِ، كَمَا كَلَّلَ رَأْسَ السَّائِقِ وَمُعَاوِنِهِ.

وَجَعَلَ الْمُسَافِرُونَ يَتَرَجَّلُونَ زَرَافَاتٍ وَوَحْدَانًا، وَطَفِقَ فِرُونْسِكِي يَتَأَمَّلُ فِيهِمْ وَهُوَ مُوَزَّعٌ الْفِكْرَ، سَاهِمٌ الطَّرْفِ، يُفَكِّرُ... وَلَا شَكَّ أَنَّ فِكْرَهُ كَانَ مُنْصَبًا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ عَلَى الْحَسَنَاءِ الْفَاتِنَةِ الَّتِي سَلَبَتْ لُبَّهُ وَمَلَكَتْ قَلْبَهُ.

وَأُنْسِيَ أُمَّهُ، وَغَابَ عَنِ بَالِهِ أَنَّهَا قَادِمَةٌ مِنْ بَطْرَسْبِرْجَ، وَدَاخِلُهُ سُورُورٌ طَاغٍ غَامِضٌ، هُوَ نِتَاجُ شُعُورِهِ بِشَوْءِ الظَّفَرِ دُونَ لَيْفِينَ بِنْتَاةٍ أَحْلَامِيهِ. عَلَى أَنَّ هَذَا السُّورُورَ قَدْ يَكُونُ مَرْدُهُ إِلَى أَمْرِ آخَرَ، إِلَى سِرٍّ مَكْنُونٍ لَمْ يَتَمَحَّضْ عَنْهُ الْعَيْبُ بَعْدُ!

وَنَبَّهُ إِلَى نَفْسِهِ صَوْتُ ضَابِطٍ مِنْ ضَبَاطِ الْحَرَسِ يُخَاطِبُهُ قَائِلًا: «كَلَّفْتَنِي وَالدُّنْكَ أَنَّ أَنْبَهَكَ إِلَى وُجُودِهَا فِي تِلْكَ الْمَرْكَبَةِ يَا سَيِّدِي، فَادْهَبْ إِلَيْهَا مِنْ دُونِ إِنْطَاءٍ».

وَأَرْجَعَتْهُ كَلِمَاتُ الضَّابِطِ إِلَى عَالَمِ الْحَقِيقَةِ، فَفَكَّرَ فِي أُمِّهِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِالشَّوْقِ إِلَيْهَا، فَهُوَ فِي قَرَارِيهِ يَحْتَرِّمُهَا! وَهُوَ مِنْ دُونِ أَنْ يَعْرِفَ بِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَمَحُضُهَا الْحُبَّ، مَعَ أَنَّهُ فِي الظَّاهِرِ، وَبَيْنَ الْمَلَا، وَأَمَامَ نَفْسِهِ، كَانَ يَحْتَرِّمُهَا أَعْظَمَ الْإِحْتِرَامِ، وَيُلَبِّي طَلْبَاتِهَا بِسُرْعَةٍ، وَيُضَدِّعُ بِأَمْرِهَا، وَيُبْرِمُ مَا تُشِيرُ بِهِ. عَلَى أَنَّهُ كُلَّمَا زَادَ إِخْتِرَامَهُ لَهَا فِي تَصَرُّفَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ، قَلَّ

(١) نَجْلَاءٌ: وَاسِعَةٌ.

(٢) أَرْتِي لَه: أَشْفِقُ عَلَيْهِ.

اخترامه لها وحبّه لشخصها كأمه، في أعماق قلبه!

* * *

وأوماً الشاب للضابط شاكرًا، واتّجه نحو المركبة، ولكنه تريت لدى الباب، حتى يفسح في المجال لسيدة كانت تهّم بالهبوط.

وأذرك للوهلة الأولى أن هذه السيدة تنتمي إلى عليّة القوم، وأنها من الصفوة المختارة، فالنعمّة بادية على ملامحها منطبعة على قسّمات وجهها؛ وملابسها تنبئ عن رخاء وترّف وذوق سليم.

وأخني لها رأسه وتمتم بكلمة أسف، ثمّ رفع ساقه ليضعده، ولكن حافرًا غامضًا أرغمه على الإلفات، لا لأنها كانت فاتنة جدًا، ولا لأنها كانت ذات بهاء ورواء، بل لأن شيئًا فيها كان يدوب رقةً وليونةً وعاطفةً مشبوبة!

ولما التفت، التفتت... ورست عينها الدّعجوان^(١) المتسعتان اللتان تظللّهما أهداب سودّ طويلة، على وجه بنظرة ناعمة دافئة، ثمّ انثنت إلى ناحية أخرى بحركة خفيفة كأنها تبحث عن إنسانٍ آخر.

وولج فرونسكي المركبة، فنظرت إليه أمه وروث ما بين عينيها. وعادت فتأملت فيه، ثمّ ابتسمت قليلًا بشفتيها الرقيقتين.

وكانت الأم امرأة هزيلة ناضبة، سوداء العينين، يزين أذنيها قرطان لامعان، ويحلي إصبعها خاتم كبير.

فلما دنا منها مدّت له يداً معروفة فلتمها، ثمّ رفعت رأسه وقبلته في وجنته وقالت: «هل وصلتك برقيتي؟ أهانيء أنت بمعيشتك؟ شكرًا لله!»

فجلس الابن في جوار والده وقال: «عسى أن لا تكون وعشاء^(٢) السفر قد نالت منك كثيرًا يا أماء!»

ولم يخفى ردها على كلماته، بل أصاح إلى صوت امرأة انبعت من الخارج، وتراءى له

(١) الدّعجوان: السوداوان الواسعتان.

(٢) وعشاء السفر: مسقته.

أَنَّ هَذَا الصَّوْتِ الْفَتِيَّ الْمُتَمَوِّجِ هُوَ صَوْتُ الْغَادَةِ الْفَاتِنَةِ الَّتِي قَابَلَهَا مُنْذُ لَحَظَاتٍ عَلَى مَدْخَلِ الْمَرْكَبَةِ .

وكانت صاحبة الصوت تقول في شيء من الحدّة: «لا أجاريك في ما ذهبت إليه من رأي، يا عزيزي، ولا أقرُّك على هذا المبدأ الذي اتَّخَذْتَهُ مَذْهَبًا!»

فأجابها صوت آخر، صوت رجلٍ: «هذه وجهه نظري من بطرسبرج» .

قالت: «لا، بل وجهه نظري كلُّه أني!»

- «ذريني أَلْتُمَّ يَدِكَ!»

- «إذهب محفوظًا يا إيفان بتروفتش، وإن التقيت أخي في طريقك فوجهه إليّ لأنني في انتظاره منذ حين» .

ورجعت الغادة ثانية إلى المركبة، فهشَّت الكونستُ الكهلهُ لها وبشَّت، وقالت مُتسائلةً: «ألم تجدي أخاك يا عزيزتي؟»

في تلك اللحظة أدرك فرونسكي أنَّ السَّيِّدَةَ الْجَمِيلَةَ هِيَ «أنا كارنينا» .

فأبرى يقول وهو يتصبَّب وإفقا: «رأيتُ أخاك، فهو هنا... على أنني مدينٌ لكِ باعتذارٍ، فأنا لم أعرفكِ عندما اعترضتُ سبيلكِ اتِّفاقًا، ولا شكَّ أنكِ لم تتذكريني أيضًا» . وأخنى هامته باحترامٍ .

فقالت وتغرُّها يضيءُ ببسمه فاتية: «كان عليّ أن أعرفكِ قبل أن تعرِّفني أنت، لأننا قضينا ساعاتٍ ونحن نتحدَّثُ عنك، فوالدتك متعلِّقة بك كثيرًا! ولكن... أين أخي؟ أين هو؟»

وقالت الأُمُّ العجوزُ: «عجِّل يا أليكس... إذهب وإبحث عنه، ولا ترجع من دونه» .

وقفَّ فرونسكي مُتَّرجلاً ورفَع عقيرته^(١) يُنادي: «أوبلنسكي... هنا... هنا...» .

أما أنا كارنينا فإنها لم تتنظُر معجىء أخيها، بل غادرت المركبة، ومشت ثابتة الخطو، مُرتفعة الرأس. وما كادت تُبصرُ أباها قادمًا نحوها، حتى أسرعت إليه فلفت يدها اليسرى

(١) عقيرته: صوته.

حَوْلَ عُنُقِهِ بِحَرَكَةٍ رَشِيقَةٍ أَذْهَلَتْ فِرُونْسْكِ وَقَبَّلَتْهُ فِي وَجْهِهِ .

ولم يَسْتَطِعْ فِرُونْسْكِ أَنْ يُحوِّلَ نَظْرِيهِ عَنِهَا، بل شَخَصَ إِلَى وَجْهِهَا فِي ذُهوْلِ وإِعْجَابٍ، وَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً تَطْفُحُ بِالبِشْرِ والسَّعَادَةِ. بَيِّدَ أَنَّهُ تَذَكَّرَ أُمَّهُ، فَانْتَهَى رَاجِعًا إِلَيْهَا .

وَقَالَتِ الأُمُّ: «إِنَّهَا رَائِعَةٌ أليسَ كَذَلِكَ؟ لَقَدْ رَجَانِي زَوْجُهَا أَنْ أَلَازِمَهَا، وَكَانَتْ مُزَامِلَتِي لَهَا فِي السَّفَرِ سَعَادَةً، وَأَنَا لَمْ أَشْعُرْ بِالمَلَلِ طِيلَةَ المَسَافَةِ الَّتِي قَطَعْنَاها» .

وَانْقَطَعَتْ عَنِ الكَلَامِ وَحَدَجَتْهُ بِنَظْرَةٍ ذَاتِ مَعَانٍ، وَاسْتَطَرَدَتْ بِاللِّسَانِ الفَرَنْسِيَّ: «قِيلَ عَنكَ إِنَّكَ ظَفِرْتَ بِفَتَاةٍ تَنْتَمِي إِلَى فُضْلِيَّاتِ العَائِلَاتِ، فَإِنْ صَحَّ هَذَا، فَلْيَهْنِكِ الظَّفَرُ بِأَمْنِيَةٍ طَالَمَا طَلَبْتَهَا لَكَ» .

فَقَاطَعَهَا بِصَوْتٍ أَجَشٍّ: «مَاذَا تَقْصِدِينَ بِكَلَامِكَ يَا أُمَّاهُ؟ إِنَّنِي لَا أَفْهَمُ حَرْفًا مِمَّا تَقُولِينَ!» وَعَادَتْ أَنَا كَارِنِيَا فِي تِلْكَ اللِّحْظَةِ لِتُوَدِّعَ الكُونْتِسْ، وَمَا كَادَتْ تَصِلُ وَتَجْلِسُ حَتَّى ابْتَدَرَتِ المَرْأَةَ قَائِلَةً: «لَقَدْ اجْتَمَعَ الشُّمْلُ أَخِيرًا، فَالتَقَيْتِ ابْنَكَ، وَالتَقَيْتِ أَخِي، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ فَرَعْتَ جَعْبَتَانَا مِنَ الحَدِيثِ» .

فَقَالَتِ العَجُوزُ بِلَهْجَةِ الصِّدْقِ وَالصَّرَاحَةِ: «كَلَّا . . . كَلَّا . . . فَأَنَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَقْطَعَ مَعَكَ الفِيَّافِي وَالعِفَارَ، وَأَجُوبَ الأُمُصَارَ وَالأَقْطَارَ مِنْ دُونِ أَنْ يَطْرَأَ عَلَيَّ مَشَاعِرِي مِنْ قُرْبِكَ وَحَدِيثِكَ سَاءً . . . فَأَنْتِ مِنَ النِّسَاءِ اللُّوَاتِي يَفِيضُ مِنْهُنَّ الحُبُورُ، حَتَّى يُصْبِحَ الصَّمْتُ فِي صُحْبَتِهِنَّ لَذِيذًا، وَالكَلَامُ أَلَذًّا! وَأُوصِيكَ يَا عَزِيزَتِي أَنْ تَتَجَمَّلِي بِالصَّبْرِ فَلَا يُرْمِضُكَ بُعْدُكَ عَنِ وِلْدِكَ، فَالفِرَاقُ سُنَّةٌ، وَلَا بُدَّ لَكَ مِنْ أَنْ تُرَوِّضِي نَفْسَكَ وَمَشَاعِرَكَ عَلَيْهِ» .

وَرَفَعَتْ أَنَا كَارِنِيَا رَأْسَهَا وَهِيَ لَا تَزَالُ تَبْتَسِمُ .

وَتَحَوَّلَتِ الكُونْتِسُ إِلَى ابْنِهَا، وَقَالَتْ مُوَضِّحَةً: «إِنَّ أَنَا كَارِنِيَا أُمُّ، وَلَهَا طِفْلٌ فِي الثَامِنَةِ لَمْ يَسْبِقْ لَهَا أَنْ غَادَرْتَهُ وَحِيدًا فِي بَطْرَسْبِرْجَ، وَلِهَذَا تَجِدُهَا مُتَزَعِّجَةً أَشَدَّ الإِنْبِرَاجِ» .

وَقَالَتْ أَنَا كَارِنِيَا وَهِيَ تَرْمُقُ فِرُونْسْكِ بِعَيْنَيْنِ ضَاكِكَتَيْنِ وَكَأَنَّهَا تَخْضُهُ بِابْتِسَامَتَيْهَا: «أَجَلٌ، كُنْتُ أَنَا وَالكُونْتِسُ نَتَجَادَبُ الحَدِيثَ طِيلَةَ الوَقْتِ الَّذِي أَمْضَيْنَاهُ مَعًا. كُنَّا نَتَحَدَّثُ، أَنَا عَنِ ابْنِي، وَهِيَ عَنِ ابْنِهَا . . .» وَرَنَتْ إِلَيْهِ مُدَاعِبَةً .

وَفَطِنَ هُوَ إِلَى مَوْطِنِ الدَّعَابَةِ مِنْ حَدِيثِهَا وَنَظَرْتَهَا فَقَالَ: «وَأَخْشَى مَا أَخْشَاهُ أَنْ تَكُونِي قَدْ ضَجِرْتَ مِمَّا طَرَقَ سَمْعَكَ».

ويبدو أنها لم تتشأ أن تسترسل في مثل هذا الكلام، فقد التفتت إلى الكونتس وقالت: «ذريني أشكرك، فأنت مرافقة كريمة، ولا يسعني إلا الإغراب عن أسفي لانتهاه الرحلة بمثل هذه السرعة، فإلى اللقاء...».

فقال الكونتس: «رافقتك السلامة يا عزيزتي؛ دعيني أقبل محياتك الحسن... إنني هرمة لا أعرف المواربة، بل أليج البيوت من أبوابها... ولا أعالي إن جهرت برأيي في سيرك، فليسحرك سلطان عظيم، وقد ذهلت عن نفسي طيلة اجتماعي إليك، وكان شغفي بك كبيراً، وكلفي بمحاسنك ومناقبك أكبر وأشد».

واعتقدت أنا كارنينا أن المرأة تُعبر عن خَلجاتها الحقة، فتصرح وجهاً حياً وجدلاً، ثم انحنت قليلاً وأذنت خدها من فم الكونتس، فقبلتها هذه برفيق.

ثم انتصبت فمدت يدها إلى فرونسكي، فلثمها الفتى، وشعر بالغبطة، وداهمته فرحة. وما عثمت أن غادرت مركبة القطار بحيوية وقوة فكانت في مشيتها كأنها لا تكاد تطأ الأرض تيتها وزهوا!

وجمجت الأم بصوت مهموس: «رائعة! إنها رائعة!»

وكان هذا ما راود فكر ابنها أيضاً... وقد تتبع الحسنة بنظره، حتى رآها تقبل على شقيقها فتضع يدها في يده، وتنهك معه في حديث خطير، حديث لا يتعلق به هو، بل بشخص آخر، أو بشيء آخر. وشعر الشاب بالقلق البالغ. لِمَ لا تتحدث عنه؟ يجب أن تتحدث عنه.

واستدار إلى أمه وابتدراها قائلاً: «كل شيء على ما يرام كما أرى يا أمه».

قالت: «كل شيء، وأنا كيسة ظريفة، والجميع في خير».

وعلقت تحدته عما يعنيه من أمور دنياها، عن حفيدها الذي جعلها تمكث كل هذا الزمان في بطرسبرج، وعن الفتاة الكريمة التي تلطف بها القيصر على أكبر أبنائها.

ثم نهض الشاب فتأبط ذراع أمه وقال: «هلمي يا أمه، لقد خفت الزحمة وانفضت الجمع».

وَحَمَلَتِ الْخَادِمَةُ حَقِيئَةً صَغِيرَةً، وَحَمَلَ الْخَادِمُ مَعَ رَجُلٍ آخَرَ بَيْتَةَ الْأَمْتِعَةِ.
وَلَكِنَّهُمَا مَا ابْتَعَدَا قَلِيلًا حَتَّى شَاهَدَا عَدَدًا مِنَ الرِّجَالِ يُهْرَوِلُونَ فِي ذُعْرِ وَاضْطِرَابٍ.
وَكَانَ مِنْ جُمَلَتِهِمْ نَاطِرُ الْمَحَطَّةِ الَّذِي نَطَقَ وَجْهَهُ بِالْهَلَعِ الشَّدِيدِ.
وَلَا شَكَّ أَنَّ أَمْرًا غَيْرَ عَادِيٍّ قَدْ وَقَعَ. وَبَدَأَتِ الْجُمُوعُ الَّتِي غَادَرَتِ الْقِطَارَ تَرْجِعُ
أُذْرَاجَهَا.

وَتَعَالَى اللَّعْطُ، وَسُمِعَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ تَتَلَقَّفُهَا الْآذَانُ، وَتَسَاءَلُ بِهَا الْأَلْسُنُ: «مَاذَا؟...
مَاذَا؟... أَيْنَ؟... كَيْفَ؟... لَقَدْ لَاقَى حَتْفَهُ، مَاتَ!...».

وَرَجَعَ سَتِيفَانُ أُوبِلِنْسْكِي وَشَقِيقَتُهُ فِيمَنْ رَجَعَ مِنَ النَّاسِ، وَقَدْ بَانَ الْخَوْفُ عَلَى
مَلَامِحِهِمَا.

وَلَاذَتِ السَّيِّدَتَانِ بِالْمَرْكَبَةِ، بَيْنَمَا لَحِقَ فِرُونْسْكِي وَسَتِيفَانُ بِالْجَمْعِ لِاسْتِجْلَاءِ حَقِيقَةِ
الْأَمْرِ.

وَلَمْ يَلْبَسَا أَنْ عَلَمَا أَنَّ حَارِسًا أَعْمَاهُ السُّكْرُ، أَوْ شَدَّهَهُ الْبَرْدُ الْقَارِسُ، فَلَمْ يَشْعُرْ بِاقْتِرَابِ
الْقِطَارِ قَبْلَ أَنْ يَقْجَاهُ وَيَمْرُقَ جَسَدُهُ سَرًّا مُمْرَقًا.

وَقَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ الرَّجُلَانِ اطَّلَعَتِ السَّيِّدَتَانِ عَلَى تَفَاصِيلِ الْحَادِثَةِ.

وَكَانَ الشَّابَّانِ قَدْ شَاهَدَا الْجُنَّةَ الْمُمْرَقَةَ، فَلَمَّا انْضَمَّا إِلَى السَّيِّدَتَيْنِ قَالَ أُوبِلِنْسْكِي وَهُوَ
يَكَادُ يَنْشِجُ بِالْبُكَاءِ: «أَوَاهِ يَا أَنَا! يَا لَهُ مِنْ مَنْظَرٍ مُرْعِبٍ! إِنَّهُ حَادِثٌ مُرِيعٌ!»

أَمَّا فِرُونْسْكِي فَقَدْ لَادَ بِالصَّمْتِ. وَكَانَ وَجْهُهُ الْجَمِيلُ مُقَطَّبًا بَعْضَ الشَّيْءِ، إِلَّا أَنَّ الْهُدُوءَ
لَمْ يُفَارِقْهُ لَحْظَةً.

وَتَابَعَ أُوبِلِنْسْكِي يَقُولُ: «وَيَا لَمَنْظَرِ زَوْجَتِي وَهِيَ تَنْحَطُّ عَلَى الْأَشْلَاءِ! لَقَدْ كَانَتْ تُعُولُ،
وَمَا أَرْهَبَ صَوْتَهَا وَهِيَ تَتَذُبُّ زَوْجَهَا! وَيُقَالُ إِنَّ عَائِلَتَهُ كَبِيرَةٌ... كَبِيرَةٌ...».

فَانْبَرَتْ أَنَا كَارِنِينَا تَقُولُ بِصَوْتٍ يَخْتَلِجُ تَأْتُرًا: «أَلَا يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يُسَدِّيَ، خِدْمَةَ مَا
لِهَذِهِ الْعَائِلَةِ الْمَرْزُوءَةِ؟»

وَرَمَاهَا فِرُونْسْكِي بِنَظْرَةٍ خَاطِفَةٍ، ثُمَّ غَادَرَ الْعَرَبَةَ وَهُوَ يَقُولُ: «لَنْ أَلْبَثَ أَنْ أَقْفَلَ رَاجِعًا يَا
أُمَاهُ!»

فلَمَّا عَادَ يَمِيسُ بِقَوَامِهِ الْبَدِيعِ، كَانَ سَتِيفَانُ أُوبِلِنْسْكِي قَدْ نَسِيَ الْمَأْسَاءَ، وَطَفِيقَ يُجَادِبُ أُخْتَهُ أَنَا حَدِيثًا طَلِيًّا، وَيَصِفُ لَهَا الْمُتَعَةَ الَّتِي يُلَاقِيهَا الْمَرْءَ فِي مَلَاهِي مُوسِكُو وَمَسَارِحِهَا وَأَنْدِيَتِهَا. ثُمَّ عَكَفَ يُشِيدُ بِمَهَارَةِ مُطْرَبِيَّةِ حَدِيثِهِ مَا بَرِحَ أَهْلُ مُوسِكُو يَنْتَظِرُونَهَا مِنْذُ حِينٍ.

وَقَطَعَ الرَّجُلُ حَدِيثَهُ بَعْدَ قَلِيلٍ، وَتَحَرَّكَ الْقَوْمُ، ثُمَّ سَارُوا مُبْتَعِدِينَ. وَقَدْ مَشَى فِرُونْسْكِي مَعَ أُمِّهِ فِي الْمُقَدِّمَةِ، وَوَرَاءَهُمَا مَشَتْ أَنَا كَارِنِينَا وَشَقِيقَتُهَا.

وَمَا كَادُوا يُقْتَرِبُونَ مِنَ الْبَابِ الضَّخْمِ حَتَّى أَدْرَكْتُهُمْ نَاطِرُ الْمَحَطَّةِ، وَخَاطَبَ فِرُونْسْكِي قَائِلًا: «لَقَدْ مَنَحْتَ مُسَاعِدِي مِثِّي رُوبِلًا، فَهَلَّا قُلْتَ لِمَصْلَحَةٍ مِنْ هَذَا الْمَالِ؟»

فَهَزَّ فِرُونْسْكِي مَنْكِبَيْهِ وَأَجَابَ: «لِلْأَرْمَلَةِ... وَمَا حَاجَتُكَ إِلَى السُّؤَالِ؟ لِمَنْ أُعْطِيَتْ الْمَالُ؟ أَمَا تَعْرِفُ؟»

وَنَظَرَ حَوْلَهُ، وَاسْتَطْرَدَ: «لَمْ أَظُنَّ قَطُّ أَنَّهُمْ عَدِيمُو الْفَهْمِ وَالْإِدْرَاكِ!»

وَهَتَفَ أُوبِلِنْسْكِي مُتَعَجِّبًا: «هَلْ تَبَرَّعْتَ بِهَذَا الْمَبْلَغِ؟»

وَضَغَطَ عَلَى يَدِ شَقِيقَتِهِ وَأَضَافَ: «جَمِيلٌ مِنْكَ أَنْ تَفْعَلَ هَذَا... أَنْتَ رَائِعٌ...». وَمَضَى فِرُونْسْكِي وَأُمُّهُ فِي سَبِيلِهِمَا. وَتَرَيَّتْ أُوبِلِنْسْكِي وَشَقِيقَتُهُ رَيْشِمَا تَأْخُذُ بِهِمَا الْخَادِمَةَ.

وَكَانَ الْقَادِمُونَ وَالرَّائِحُونَ لَا يَزَالُونَ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ الْكَارِثَةِ الَّتِي دَهَمَتِ الْحَارِسَ.

وَقَدْ قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى مَسْمَعٍ مِنَ الْآخَرِينَ: «مَا أَبْشَعَهَا مِنْ مِيتَةٍ! يَقُولُونَ إِنَّ الْقِطَارَ شَطْرَهُ شَطْرَيْنِ».

فَرَدَّ عَلَيْهِ آخَرٌ: «بَلْ إِنَّهَا، عَلَى مَا أَظُنُّ، أَسهَلُ مِيتَةٍ، فَقَدْ لَفَظَ أَنْفَاسُهُ فِي لَمَحَةٍ خَاطِفَةٍ».

وَقَالَ ثَالِثٌ مُتَسَائِلًا: «وَكَيْفَ لَا يَتَّخِذُونَ مَا يَلْزَمُ مِنَ الْاِحْتِيَاطَاتِ؟»

وَوَقَفَتْ عَرَبَةٌ، وَاسْتَفَلَّتْهَا أَنَا كَارِنِينَا. وَلَمَّا هَمَّ شَقِيقَتُهَا سَتِيفَانُ بِالصُّعُودِ إِلَى جَانِبِهَا تَعَجَّبَ مِمَّا رَأَاهُ مُنْطَبِعًا عَلَى أَسَارِيرِهَا، وَأَفْرَعَتْهُ دَمْعَةٌ تَرَفَّرَتْ فِي مَآبِعِهَا، فَسَأَلَهَا مُتَوَجِّسًا: «مَاذَا دَهَاكَ؟ مَاذَا أَلَمَّ بِكَ يَا أَنَا؟»

- «لَا شَيْءَ الْبَتَّةَ؛ إِلَّا أَنِّي تَشَاءَمْتُ مِمَّا حَدَّثْتُ!»

- «تَشَاؤُمُكَ لَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ... لَقَدْ وَصَلْتَ سَالِمَةً، وَهَذَا بَيْتُ الْقَصِيدِ^(١). وَلَنْ تَحْدُثَنِي الْحَقِيقَةُ لَوْ حَاوَلْتَ الْإِطْلَاعَ عَلَى مِقْدَارِ مَا أُعْلِقُهُ عَلَى وُجُودِكَ مِنْ آمَالِ جِسَامٍ».

قَالَتْ: «وَهَلْ تَعْرِفُ فِرُونْسَكِي مُنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ؟»

- «أَجَلٌ، وَنَأْمُلُ أَنْ يَبْنِي فِي الْقَرِيبِ الْعَاجِلِ عَلَى كَاتَرِينَ».

- «أَحَقًّا تَقُولُ؟ هَلُمَّ حَدِّثْنِي عَنْكَ، عَنِ أُمُورِكَ، عَنِ مَشَاكِلِكَ... هَاكَ رِسَالَتَكَ، وَقَدْ أَشْرَعْتُ بِالْمَجِيءِ عَقِبَ إِطْلَاعِي عَلَى مُحْتَوَيَاتِهَا... فَمَا الْخَطْبُ؟ مَاذَا جَرَى بَيْنَكَ وَبَيْنَ زَوْجِكَ؟»

وَطَفِقَ سَتِيفَانُ أُوْبِلِنْسَكِي يَسْرُدُ عَلَى مَسَامِعِ شَقِيقَتِهِ مَا جَرَى لَهُ مِنْ دُونِ أَنْ يُخْفِيَ شَيْئًا. وَكَانَ يَتَكَلَّمُ بِصِرَاحَةٍ وَطَّلَاقَةٍ وَكَأَنَّ الْحَدِيثَ لَا يَهْمُهُ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْنِيهِ!
وَوَصَلَا أَخِيرًا، فَتَرَجَّلَ مِنَ الْعَرَبَةِ وَأَعَانَ أُخْتَهُ عَلَى الْهَبُوطِ، وَمَا عَتَمَ أَنْ ضَغَطَ عَلَى يَدِهَا مُتَوَدِّدًا وَمَضَى فِي سَبِيلِهِ إِلَى مَكَانِ عَمَلِهِ.

(١) هَذَا بَيْتُ الْقَصِيدِ: هَذِهِ هِيَ الْعَايَةُ.

أسئلة تحليلية

- ١ - ضَعُ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا .
- ٢ - ظهرت في هذا الفصلِ شخصيّةٌ جديدةٌ، فهل ترى أنّه سيكونُ لها دورٌ رئيسٌ في الرواية؟
- ٣ - ماذا بدا لك من ملامح هذه الشخصيّة الجديدة؟
- ٤ - لِمَ قَدِمْتَ أنا كارنينا إلى موسكو؟
- ٥ - ما المشهد الدّامي الذي رأيتهُ أنا كارنينا في محطة القطار؟
- ٦ - ما الذي جمع بين أنا كارنينا والضابط فرونسكي في اللقاء الأول؟
- ٧ - هل حَدَسْتَ أمرًا ما في اللقاء الذي جَمَعَ الاثنين في محطة القطار؟ ما هو؟ وإلام استندَ حَدْسُك؟
- ٨ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أسطرٍ قليلةٍ؟

الفصل العاشر

عندما دَخَلْتُ أَنَا، كَانَتْ دَارِيَا الزَّوْجَةُ المَهِيضَةُ الجَنَاحِ المَكْسُورَةُ الخَاطِرِ، تَجَلِّسُ فِي غُرْفَةِ الاسْتِقبَالِ الصَّغِيرَةِ قَرِيبًا مِنْ طِفْلِهَا الَّذِي كَانَ صُورَةً صَادِقَةً لِأَبِيهِ. وَكَانَتْ تُلَقِّنُهُ دَرَسًا فِي الفَرَنْسِيَّةِ وَتُحَاوِلُ جَاهِدَةً أَنْ تُصْرِفَهُ عَنِ العَبَثِ بِزُرٍّ وَاوٍ فِي سِتْرَتِهِ.

وَلَمَّا عِيلَ صَبْرُهَا قَطَعَتِ الزَّرَّ وَوَضَعَتْهُ فِي جَيْبِهَا وَهِيَ تَقُولُ لِلغُلَامِ مُحْتَدِمَةً: «إِنْتَبِهْ... إِنْتَبِهْ... لَا تَعْبَثْ بِيَدِكَ».

وَكَانَتْ الأَحْزَانُ قَدْ سَحَقَتْهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَمْ يُعْرُبْ عَنِ بَالِهَا أَنَّ أَنَا كَارِنِيَا قَادِمَةٌ، وَأَنَّهَا زَوْجَةُ رَجُلٍ مَرْمُوقٍ تَحْتَرِمُهُ بِطَرْسَبْرَجِ بِأَسْرِهِا... ثُمَّ، مَا ذَنْبُ أَنَا حَتَّى تَهْجُرَ الدَّارَ فِي الوَقْتِ الَّذِي تُلِمُّ هِيَ بِهَا زَائِرَةٌ؟ مَا جَرِيرَتُهَا وَقَدْ اقْتَرَفَ أَحْوَهَا، أَي زَوْجَ دَارِيَا، تِلْكَ الحِمَاقَةَ الكُبْرَى؟

وَأَنْشَأَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا وَتَقُولُ: «إِنَّهَا خَيْرُ امْرَأَةٍ، وَلَا أَعْرِفُ عَنْهَا إِلَّا كُلَّ حَسَنِ مِنْ الأَخْبَارِ، وَلَمْ أَلْقُ مِنْهَا سِوَى اللُّطْفِ والرَّقَّةِ والعَطْفِ السَّابِغِ».

لَا شَكَّ أَنَّهَا لَنْ تَرْتَاحَ فِي أَثْنَاءِ إِقَامَتِهَا مَعَ أَنَا كَارِنِيَا فِي مَوْسِكُو إِلَى الوَتِيرَةِ الَّتِي كَانَتْ حَيَاةَ الزَّوْجَيْنِ تَسِيرُ عَلَيْهَا، فَالْتَكَلُّفُ كَانَ الظَّاهِرَةَ البَارِزَةَ الَّتِي سَادَتْ ذَلِكَ البَيْتَ، بَيِّدَ أَنَّ هَذَا لَا يَعْنيهَا فِي كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ، وَلَا يُسَوِّغُ فِرَارَهَا مِنْ وَجْهَهَا... وَطَفَقَتْ تُنَاجِي نَفْسَهَا: «سَأَسْتَقْبِلُهَا أَحْسَنَ اسْتِقبَالٍ، وَأَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا تَسْعَى إِلَى تَسْرِيبِ هَمِّي. فَكُلُّ عِبَارَاتِ العَزَاءِ وَكُلُّ كَلِمَاتِ الإِقْنَاعِ، مِمَّا يَدْخُلُ فِي مَعَانِي الصَّفْحِ، والغُفْرَانِ، وَالهَدْيِ المَسِيحِيِّ، نَنْ تَشْفَعَ لَهُ. لَقَدْ فَكَّرْتُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَلَنْ يُجِدِي هَذَا، لَنْ يُجِدِي!»

وَسَمِعَتْ خَفَقَ نِعَالٍ لَدَى البَابِ، فَالْتَفَتَتْ مُسْتَطْلِعَةً، وَعَبَّرَتْ تَقَاطِعُهَا الذَّابِلَةَ عَنِ حُجُورِ مُبَاغِتٍ... وَعَجَلَتْ بِالنُّهُوضِ مِنْ مَكَانِهَا وَهَرَعَتْ إِلَى شَقِيْقَةِ زَوْجِهَا فَاحْتَضَنَتْهَا وَعَانَقَتْهَا.

وتبادلت المرأتان كلمات الشوق، وعبرت كل منهما عن سرورها بلقيا الأخرى بدمعة
تدخرجت على خد كل منهما.

واستدعت الأم أطفالها، فقبلتهم أنا ثم صرفتهم. ولما انفردت المرأتان كل منهما
بالأخرى قالت أنا: «داريا، لقد أطلعني أخي على كل شيء».

فنظرت إليها داريا ببرود وترقب، وانتظرت أن تنهال عليها أنا بعبارات التعزية، إلا أن
الزائرة اكتفت بأن قالت: «عزيتي داريا، لا أرغب في تخفيف الخطب بإثارة شفقتك عليه
وعلى أولادك، فهذا مستحيل». والذي أرغب في بثه لك، هو أنني في غاية الأسى، وأن
حزني عميق يمس حبة الشغاف».

ولمعت الدموع من وراء أهدابها السود الكثيفة، واقتربت من زوج شقيقها وتناولت
يدها...

ولم تنكمش داريا أو تتردد، إلا أن وجهها لم يفقد تلك النظرة الجامدة القاسية. وما
ليثت أن قالت: «إن مؤسساتي على ما جرى أمر عسير دونه خرط القناد، فقد ضاع كل
شيء، وخب الأمل، وعبت^(١) السعادة!»

ورقت تقاطيعها بغتة، ورفعت أنا يد المرأة الواهية إلى فمها فلتمتها وهي تتميم: «فما
العمل إذا، ما العمل؟ وكيف يصرف الإنسان في هذا الموقف العصيب؟ فكري يا عزيزتي،
واشحذي بصيرتك».

قالت: «لقد انتهى كل شيء، وليس هناك ما يربأ الصدع. وثالثة الأثافي هي أنني لا
أستطيع أن أقصيه بسبب الأطفال، ومع ذلك فليس في وسعي العيش معه تحت سقف
واحد، فهذا ضرب من المحال، ولن يسبب لي سوى الألم والعذاب مما يهون إزاءه كل
مصاب».

- «ولكنه، كما أيقنت مما رأيت، في مقام مجاذبة بين الأسى والندم».

- «وهل هو من أولئك الذين يستشعرون الشجن؟ هل يندم؟ هل ييكنه الضمير؟»

- «أجل، إنني أعرفه. كلتانا تعرفه. إنه طيب القلب وإن كان متشامخا... إلا أن

(١) عبت السعادة: صارت إلى نهايتها.

تَشَامُخُهُ انْقَلَبَ الْآنَ إِلَى مَذَلَّةٍ... وهذا ما أثارَ فيَّ كثيراً... (وهنا حَدَسْتُ أَنَا ماذا يُوثرُ كثيراً في داريا). إِنَّهُ يَتَعَدَّبُ لِأَمْرَيْنِ- لِلأَوْلَادِ، ولأَنَّهُ، وَهُوَ المُجِبُّ- أَجَلٌ، المُجِبُّ الَّذِي يَفْتَدِيكَ بِرُوحِهِ، قَدِ أَلَمَكَ وَطَعَنَكَ فِي الصَّمِيمِ، فِي مُهْجَتِكَ! وَلَا يَفْتَأُ الْمُسْكِينُ يَرُدُّدُ: «كَلَّا، كَلَّا... إِنَّهَا لَنْ تَصْفَحَ، لَنْ تَصْفَحَ...».

وَأَلَقْتُ دَارِيَا نَظْرَةً حَالِمَةً عَلَى شَقِيقَةِ زَوْجِهَا، وَمَا أَبْطَأْتُ أَنْ قَالَتْ: «إِنَّ مَوْقِفَهُ فَطِيعٌ، وَهُوَ وَلَا غَرَوَ يَتَأَلَّمُ أَكْثَرَ مِنِّي لِأَنَّهُ مُذْنِبٌ. وَلَكِنْ، كَيْفَ يَسْتَنِي لِي الْعَفْوُ؟ كَيْفَ أُصْبِحُ زَوْجَتَهُ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَهَا، بَعْدَ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الْمَقْبُوحَةِ!؟»

وَخَفَنَتْهَا الْعِبْرَاتُ فَكَفَّتْ عَنِ الْكَلَامِ، وَاحْتَوَتْهَا أَنَا بِذِرَاعَيْهَا وَهَدَّهَتْ صَدْرَهَا وَقَالَتْ: «كُنْتُ لَهُ دَائِمًا شَيْئًا مُقَدَّسًا، وَلَا زِلْتُ ذَلِكَ الشَّيْءَ الْمُقَدَّسَ، أَمَا قَرَيْفَتُهُ^(١) الْأَخِيرَةُ فَلَمْ تَكُنْ خِيَانَةً ارْتَكَبَهَا الْقَلْبُ...».

- «وَلَوْ أَعَادَ الْكَرَّةَ؟»

- «لَنْ يَعُودَ إِلَيَّ مَا ارْتَكَبْتَ ثَانِيَةً، لَنْ يَفْعَلَ مَا فَعَلَهُ، يُقِي بِمَا أَقُولُ».

- «وَلَكِنْ، لَوْ تَعَرَّضْتَ أَنْتِ لِمِثْلِ مَا تَعَرَّضْتُ أَنَا لَهُ، فَهَلِ كُنْتِ تَصْفَحِينَ؟»

- «لَا أَذْرِي... بَلْ أَذْرِي، فَأَنَا أَعْفُو».

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهَا قَالَتْ ذَلِكَ بِحَافِزٍ مِنْ شُعُورِ بَاطِنِي غَامِضٍ، شُعُورِ غَامِضٍ بَدَأَ الْقَدْرُ يَتَمَخَّضُ عَنْهُ مُذْ وَطِئَتْ قَدَمَاهَا أَرْضَ مُوسَكُو.

وَاسْتَنْتَلَتْ: «أَجَلٌ، أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْفُو، أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْفُو، وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أُرَاوِلَ حَيَاتِي كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَحْدُثْ قَطُّ».

وَقَالَتْ دَارِيَا: «أَجَلٌ، أَجَلٌ. إِذَا صَفَحَ الْإِنْسَانُ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْسِيَ الْإِسَاءَةَ بِرُمَّيْهَا. هَلُمِّي الْآنَ إِلَى غُرْفَتِكَ». وَقَبَّلَتْهَا وَمَضَتْ تَقُولُ: «لَشَدَّ مَا أَنَا مُغْتَبِطَةٌ بِمَجِيئِكَ يَا عَزِيزَتِي أَنَا، فَقَدُومُكَ سَهَّلَ الْأُمُورَ، وَهُوَّنَ وَقَعَ الْكَارِثَةِ عَلَى قَلْبِي وَإِحْسَاسِي، فَشُكْرًا لَكَ!»

(١) قَرَيْفَتُهُ: الدُّنْبُ الَّذِي اقْتَرَفَهُ.

اسْتَطَلَعْتُ أَنَا كَارِنِينَا طَلَعَ زَوْجَةُ أَخِيهَا، وَخَبِرَتْ حَقِيقَتَهَا، وَكَانَتْ أَنَا امْرَأَةً مَاهِرَةً حَنَّكَهَا
الدَّهْرُ قَبْلَ الْأَوَانِ، وَعَلَّمَهَا مِنَ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ مَا لَمْ يُعَلِّمُهُ سِوَاهَا مِنَ النِّسَاءِ. فَلَمَّا تَنَاهَى
إِلَيْهَا أَنْ أَحَاها أَطَاعَ الْهَوَى وَأَفْرَطَ فِي الْخِيَانَةِ، بَادَرَتْ إِلَى إِعَادَةِ الْمِيَاهِ إِلَى مَجَارِيهَا بَيْنَ
الرَّوْجِ وَزَوْجَتِهِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَقَدْ انْفُتَأً^(١) كَرُبُّ زَوْجِ أَخِيهَا، وَانْسَرَى هُمُّهَا، فَسَرَتِ الْإِبْتِسَامَةَ الْوَادِعَةَ مَسْرَاهَا الْعَادِيَّ
فِي أَسَارِيرِ وَجْهِهَا. وَاطْمَأَنَّتْ أَنَا لَمَّا فَعَلْتُهُ، وَاهْتَزَّ قَلْبُهَا طَرَبًا لَمَّا أَدَّتُهُ لِأَخِيهَا، وَقَضَّتْ
النَّهَارَ بِطَوْلِهِ مَعَ دَارِيَا وَالْأَوْلَادِ، وَلَمْ تَشَأْ أَنْ تُقَابِلَ أَيَّ زَائِرٍ مُشْتَقٍ جَاءَ لِمُقَابَلَتِهَا وَالتَّرْحِيبِ
بِقُدُومِهَا.

وما وافى المساء حتى كتبت لأخيها رُفْعَةً صَغِيرَةً، تَطْلُبُ إِلَيْهِ فِيهَا أَلَّا يَتَأَخَّرَ فِي
المَجِيءِ، وَتَقُولُ: «لَقَدْ نَجَحَ الْمَسْعَى وَالْحَمْدُ لِلَّهِ... عُنْجٌ عَلَيْنَا حَتَّى تَتَنَاوَلَ طَعَامَ الْعِشَاءِ
مَعًا».

وهذا ما جرى فقد جاء أوبلنسكي خفيفاً مُبْتَهَجًا، وَهُوَ لَا يُصَدِّقُ مَا قَرَأَهُ فِي رُفْعَةٍ
شَقِيقَتِهِ. وَلِكَيْتَهُ أَيقَنَ مِنْ صِحَّتِهَا سَاعَةً رَأَى الْهُدُوءَ مُخِيَمًا عَلَى الْمَنْزِلِ، وَالسَّلَامَ يُرْفِرُ
بِأَجْنَحَتِهِ عَلَى مَنْ فِيهِ جَمِيعًا.

وَأَكَلَ الثَّلَاثَةَ طَعَامَهُمْ مَعًا، وَتَجَادَبُوا أَلْوَانًا مُسْتَمْلِحَةً مِنَ الْحَدِيثِ، وَتَبَادَلَا أوبلنسكي
وَزَوْجُهُ الْإِبْتِسَامَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ أَيَّامٍ، وَإِنْ كَانَ ابْتِسَامُهُمَا لَا يَبِينُ عَنْ رَاحَةِ الْفِكْرِ وَهُدُوءِ
الْبَالِ؛ لَكِنَّ فِكْرَةَ الْإِنْفِصَالِ اسْتَبْعَدَتْ تَمَامًا. وَهَكَذَا نَجَحَتْ أَنَا كَارِنِينَا فِي مَسْعَاهَا، وَأَبْقَتْ
عَلَى الْبَيْتِ الَّذِي كَانَ يَتَدَاعَى لِلشُّقُوطِ وَالانْهِيَارِ.

وجاءت كاترينُ بَعْدَ الْعِشَاءِ مُبَاشِرَةً بِدَاعِي شَوْقِهَا لِشَقِيقَتِهَا، وَلَكِنَّهَا مَا جَاءَتْ فِي الْحَقِيقَةِ
إِلَّا لِرُؤْيِي أَنَا كَارِنِينَا لَمَّا سَمِعْتُهُ عَنْ جَمَالِهَا وَفِتْنَتِهَا، وَلِمَا قِيلَ عَنْ ذَكَائِهَا وَبَاقِيَتِهَا.

ولم يَغِبْ عَنْ كَاتِرِينَ التَّأثيرُ الْحَسَنُ الَّذِي خَلَفْتُهُ زِيَارَتُهَا فِي قَلْبِ الضَّيْفَةِ الْحَسَنَاءِ، فَقَدْ
قَرَأْتُ فِي عَيْنَيْهَا عِبَارَاتِ الْإِعْجَابِ وَالْإِطْرَاءِ، كَمَا أَنَّهَا -أَيَّ كَاتِرِينَ- لَمْ تُنْكِرْ أَنَّ أَنَا كَارِنِينَا
أَيُّ بَيْنَهُ مِنْ إِبْدَاعِ اللَّهِ فِي تَكْوِينِهِ، وَأَنَّهَا تَفُوقُ بِحُسْنِهَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَقْوَالِ النَّاسِ.

(١) انْفُتَأً الْكَرْبُ: سَكَرَ وَانْطَفَأَ.

وكانت أنا كارنينا قد ألانَت القَوْلَ لِكاترينَ، فَبَدَثَ لها نَسِيجَ وَحِدها في دَمائِها الَّتِي تَنافِضُ رِباءَ النِّساءِ، وفي رَوْتِ أَسلوِها، ثُمَّ في رَوائِها الَّذِي أَظْهَرها بِمَظْهَرِ ابْنَةِ العِشرينَ، لا بِمَظْهَرِ امرَأَةٍ لها وَلَدٌ في الثَّامِنَةِ!

وأَيَقِنَتُ كاترينُ مِمَّا رَأَتْهُ وَلَحَظَتْهُ أَنَّ المَرَأَةَ السَّاجِرَةَ هُذِهِ صَرِيحَةٌ صَراحةٌ مُنْهايَةَ لا تُخْفِي شَيْئًا، ولا تُبْطِنُ أَمْرًا وَتُبِينُ سِواهُ. غَيْرَ أَنَّها تَعِيشُ في دُنْيا خَاصَّةٍ بِها، دُنْيا لا تُشْرِكُ فيها أَحَدًا، ولا تَسْتَقْبِلُ في رِحابِها إِنسانًا آخَرَ. واغْتَرَفَتْ كاترينُ بَعَجْزِها عَن سَبْرِ غُورِ هُذِهِ النِّفسِ الصَّريحةِ كُلِّ الصَّراحةِ، الغامِضَةِ كُلِّ الغُموضِ.

ولم تَرَ كاترينُ مِنَ الفِطْنَةِ أَنَّ ثُمَينَ في التَّأمُلِ والتَّفكُّرِ، حَتى لا تَنشُرَ ما تُضْمِرُهُ، وتُبْدي ما تَحْرِصُ على كِثْمانِهِ، خَشِيبَةَ أَنَّ تُكَوِّنَ أَنَا عنها فِكْرَةَ سَيِّئَةٍ!

وذهَبَتْ داريا إِلى حُجْرَتِها بَعْدَ العِشاءِ، فَنهَضَتْ أَنَا إِلى أَخيها الَّذِي كانَ يُشْعِلُ سِيجارَهُ، وَقالتُ وَهي تُشيرُ مِن طَرَفِ حَفيِّ إِلى مَخدَعِ زَوجِهِ: «إِذهَبِ، أَسرِعِ... وليَكُنِ اللهُ مَعَكَ».

فَقَبِلَ ما قالَتْهُ، وألْقى بِسِيجارِهِ، ثُمَّ دَلَفَ مِنَ البابِ في طَريقِهِ إِلى مَخدَعِ زَوجِهِ.

وعادَتْ أَنَا إِلى الأريكةِ الَّتِي كانتَ تَجْلِسُ عليها، فأحاطَ بِها الأَطفالُ، وكانوا قد تَعَلَّقُوا بِها وأَحَبُّوها. ولا غِرابَةَ في ذَلِكَ، فَحُبُّ الطِّفْلِ مِنَ حُبِّ أُمِّهِ، وفَوْقَ ذَلِكَ، كانتَ أَنَا قَريبَةً إِلى قُلُوبِ الصِّغارِ لما تُضْفِيهِ عَلَينِهِم مِنَ لُطْفِها ورِفقَتِها وَأُنسِها، ولما تُقابِلُهُم بِهِ مِنَ صَبْرِ وطولِ أَناءٍ. وخاطَبَتُ كاترينَ بَعْدَ قَليلٍ: «ومتى تُقيمونَ حَفَلَتُكمُ الثَّانِيَةَ يا عَزِيزَتِي؟»

- «في الأَسبوعِ المُقبِلِ، وَسَتَكُونُ حَفَلَةٌ رَائعةٌ مِنَ تلكَ الحَفَلاتِ الرَاقِصَةِ الَّتِي يَجِدُ فيها المَرءُ مُتَعَةً».

فأجابَتْها أَنَا بِشَيءٍ كَثيرٍ مِنَ التَّهَكُّمِ: «وهَلْ هُناكَ حَفَلاتٌ لا يَجِدُ المَرءُ فيها دائِمًا ما يَرغَبُ فيه مِنَ مُتَعَةٍ؟»

- «أَجَلٌ، وهذا أَمْرٌ عَجيبٌ، فَثَمَّةُ حَفَلاتٍ يَنْشَرِحُ لها صَدْرُكُ في كُلِّ حينٍ، وَثَمَّةُ حَفَلاتٍ أُخْرى في بُيوتِ مُعيَّنَةٍ تُشْعِرِينَ فيها بالِصَّجَرِ والسَّامِ... أَفَلَمْ تَلاحِظِي هُذِهِ ظاهِرَةً؟»

- «لا يا عَزِيزَتِي، فبالنِّسْبَةِ إِليَّ الآنَ لَيْسَ ثَمَّةُ حَفَلَةٌ يَسْتَطِيعُ الإِنسانُ أَنْ يَلْقَى فيها ما

يُنْسِيهِ كَابَةَ الْحَيَاةِ!»

وَرَأَتْ كَاتِرِينَ فِي عَيْنَيْهَا تِلْكَ الدُّنْيَا الْغَامِضَةَ الْمُغْلَقَةَ فِي وَجْهِهَا .
وَاسْتَسَلَّتْ أَنَا: «بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ هُنَاكَ حَفْلَةٌ مُضْجِرَةٌ وَأُخْرَى أَقْلُ ضَجْرًا!»

- «وَمَاذَا يَجْعَلُكَ تَشْعُرِينَ بِالسَّامِ؟»

- «وَلِمَ لَا أَشْعُرُ بِهِ؟»

وَأَذْرَكْتُ أَنَا بَعْرِيذَتَهَا مَا سَتَقُولُهُ كَاتِرِينَ . وَقَدْ أَصَابَتْ فِي تَكْهُنِهَا، إِذْ إِنَّ كَاتِرِينَ رَاحَتْ
تَقُولُ: «لَأَنْتِ دَائِمًا تَتَجَلَّيْنَ فِي ثُوبٍ بَاهٍ مِنَ الْحُسْنِ لَا تُضَاهِيكِ فِي جَمَالِهِ غَادَةٌ أُخْرَى!»

وَكَانَتْ أَنَا مَاهِرَةً فِي التَّمْثِيلِ، قَادِرَةً عَلَى صَنْعِ مُحَيَّاتِهَا مَتَى شَاءَتْ بِخِضَابِ الْخَجَلِ . . .
وَقَدْ تَضَرَّجَ وَجْهَهَا سَاعَةً طَرَقَتْ سَمْعَهَا كَلِمَاتُ كَاتِرِينَ، وَأَجَابَتْ وَهِيَ تُغْضِي قَلْبًا:
«كَلَامُكَ فِيهِ غُلُوٌّ تُمْلِيهِ الْمُجَامِلَةُ يَا عَزِيزَتِي، وَلَوْ افْتَرَضْنَا أَنَّ فِي مَا تَقُولِيهِ الصِّدْقَ
وَالصُّوَابَ، فَمَا تَأْتِيرُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ؟»

- «وَهَلْ تَأْتِينَ إِلَى الْحَفْلَةِ؟»

- «يُيَدُو لِي أَنْ لَا مَنَدُوحَةٌ لِي عَنِ الْمَجِيءِ» .

- «يَطِيبُ لِي مَجِيئُكَ، وَأَصْدُقُكَ أَنِّي أَتَشَوَّفُ الْأَبْصَارَ إِلَى مُشَاهَدَتِكَ تَرْفُلِينَ فِي ثُوبٍ
سَهْرَةٍ بِنَفْسَجِيٍّ» .

- «وَلِمَ ذَلِكَ؟ لِمَ تَطْلُبِينَ الثُّوبَ الْبِنَفْسَجِيَّ؟ إِنِّي أَذْرِي لِمَاذَا تُلْحِحِينَ عَلَيَّ فِي الْمَجِيءِ،
فَأَنْتِ تَتَوَقَّعِينَ الْكَثِيرَ، وَتَوَدِّدِينَ مِنْ صَمِيمِ قَلْبِكَ أَنْ يَأْتِيَ الْجَمِيعُ لِمُشَارَكَتِكَ فِي إِنْجَاحِ
الْحَفْلَةِ» .

- «وَكَيْفَ حَدَسْتِ ذَلِكَ؟ أَنْتِ عَلَى حَقٍّ!»

- «لَشَدَّ مَا أَعْطَيْتُكَ عَلَى هَذِهِ الْفَتْرَةِ الْهَيْئَةِ مِنْ حَيَاتِكَ يَا عَزِيزَتِي، وَإِنِّي لِأَذْكُرُ ذَلِكَ
الْوَهِيحَ^(١) الْأَزْرَقَ الشَّبِيهَ بِالضَّبَابِ الَّذِي يُرْفَرُفُ عَلَى جَوْ سويسرا، ذَلِكَ الضَّبَابِ الَّذِي يَشْمَلُ
كُلَّ شَيْءٍ فِي ذَلِكَ الطُّورِ السَّعِيدِ، عِنْدَمَا تَكُونُ الطُّفُولَةَ فِي مَرَحَلَتِهَا الْأَخِيرَةِ، وَمِنْ خِلَالِ

(١) الوهيج: التوقد.

تِلْكَ الْحَلَقَةُ الْمَرِحَةُ الْمُنْشَرِحَةُ، يَبْرُزُ دَرْبٌ يَضِيقُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَمَا أَلَدَّ السَّاعَةَ الَّتِي تَدْخُلِينَ فِيهَا قَاعَةَ الْحَفْلَةِ الْمُتَأَلِّفَةَ بِالْأَنْوَارِ، الْمُزْدَانَةَ بِالْغَيْدِ! فَمَنْ؟ مَنْ لَمْ يُمْرَ فِي هَذَا الدَّرْبِ؟ مَنْ؟»
وَابْتَسَمَتْ كَاترِينُ، وَحَدَدَتْ فِي أَنَا طَرْفًا مُتَأَمِّلًا، وَجَعَلَتْ تَسْتَعِيدُ حَوَادِثَ الْمَاضِي الْقَرِيبِ وَتَفَكِّرُ وَتَتَأَمَّلُ: «فَكَيْفَ؟ كَيْفَ بَلَتْ أَنَا مَا وَصَفْتَ؟ مَا أَشَدَّ شَوْقِي إِلَى الْإِطْلَاعِ عَلَى قِصَّةِ حَيَاتِهَا، عَلَى غَرَامِهَا!»

وَرَأَتْ أَمَامَهَا «أَلِيكسيس كارنين» زَوْجَ أَنَا، بِوَجْهِهِ الْمُتَجَهِّمِ الدَّمِيمِ، وَدَهَلَتْ قَلِيلًا عَنِ نَفْسِهَا وَالْوَجْهَ الْمُقَطَّبُ مَائِلٌ لِنَاطِرَيْهَا... فَهَلْ رَسَا مَرَكَبُ أَحْلَامِهَا عَلَى هَذَا الشَّاطِئِ؟ هَلْ انْتَهَتْ حَيَاتُهَا الرُّوحِيَّةُ بِاضْطِدَامِهَا بِهَذَا الْإِنْسَانِ الْمَادِّيِّ؟

وَمَا عَتَمَتْ أَنَا أَنْ قَالَتْ وَهِيَ تُومِضُ بَعِيْنَيْهَا: «لَقَدْ أَنهَى إِلَيَّ سَتِيفَانُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ فِرُونسكي، وَلَا يَسْعُنِي إِلَّا تَهْنِئَتُكَ، فَإِنِّي قَابَلْتُ الشَّابَّ فِي الْمَحَطَّةِ».

فَتَضَرَّجَ مُحْيَا كَاترِينِ وَقَالَتْ مُتَسَائِلَةً: «وَمَاذَا أَخْبَرَكَ سَتِيفَانُ، مَاذَا قَالَ؟»

- «كُلُّ شَيْءٍ، وَمِنْ دَوَاعِي شُرُورِي يَا عَزِيزَتِي أَنْ تَمْتَرَجِي وَتَتَدَمَجِي بِهَذَا الْفَتَى... لَقَدْ قَضَيْتُ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً مَعَ أُمَّه، وَهِيَ امْرَأَةٌ لَا يَرُوقُ لَهَا إِلَّا التَّحَدُّثُ عَنِ ابْنِهَا. إِنَّهَا تُحِبُّهُ وَلَا تُطِيقُ فِرَاقَهُ».

- «وَهَلْ قَالَتْ لَكَ شَيْئًا؟»

- «أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ، وَكُلُّهَا مَدِيحٌ وَإِطْرَاءٌ. وَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، قَالَتْ إِنَّهُ عَرَضَ عَلَى أَخِيهِ ثُرُوتَهُ كُلِّهَا، وَأَنْقَذَ امْرَأَةً مِنَ الْعَرَقِ وَهُوَ حَدَثٌ. وَائْتَمَّ أَنَا مِنْ أَنَّهُ بَطَلٌ!»

وَمَا قَالَتْ أَنَا هَذِهِ الْكَلِمَاتِ إِلَّا عِنْدَمَا تَذَكَّرْتُ تَبَرُّعَهُ بِمِئَتِي رُوبَلٍ، حِينَ سَقَطَ الْحَارِسُ صَرِيحًا تَحْتَ عَجَلَاتِ الْقِطَارِ. غَيْرَ أَنَّهُمَا لَمْ تَأْتِ عَلَيَّ ذِكْرَ التَّبَرُّعِ؛ وَلَسَبَبٍ مَا كَانَتْ تَشْعُرُ بِالانْتِعَالِ كُلَّمَا فَكَّرْتُ فِي هَذِهِ اللَّفْتَةِ الَّتِي بَدَرْتُ مِنْهُ، وَتَرَأَى لَهَا أَنَّ لَهَا عِلَاقَةً، أَوْ بِالْأُخْرَى سَيَكُونُ لَهَا عِلَاقَةٌ بِالْمَوْضُوعِ كُلِّهِ. وَلَكِنَّهَا شَعَرَتْ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ يَجِبُ أَلَّا يَكُونَ.

وَالْتَفَتَتْ إِلَى كَاترِينِ فَجَاءَتْ وَقَالَتْ: «أَحْمَدُ اللهُ؛ إِنَّ سَتِيفَانُ أَطَالَ الْمَكْثَ فِي مَخْدَعِ دَارِيَا».

وَنَهَضَتْ مِنْ مَكَانِهَا وَجَعَلَتْ تُدَاعِبُ الْأَطْفَالَ وَتُلَاعِبُهُمْ وَصَاحَ أَحَدُهُمْ: «أُرِيدُ أَنْ أَقْبَلَكَ

قَبْلَ الْآخَرِينَ...». وَهَتَفَ آخَرُ: «بَلْ أَنَا الْأَوَّلُ!»

وصاحت هي والبشر يرسم على مَحَيَّاهَا الوَسِيمِ لَوْنًا رَائِعًا: «قَبْلُونِي كُلُّكُمْ، كُلُّكُمْ، فِي
أَيِّ وَاحِدٍ!»

وَأَنْدَفَعَتْ نَحْوَهُمْ فَعَانَقَتْهُمْ، وَحَمَلَتْهُمْ وَجَعَلَتْ تَدُورُ بِهِمْ فِي مَرِحٍ وَحُبُورٍ وَسَطَ الْغُرْفَةِ،
وَفَدَعَتْ ضَوْضَاؤَهُمْ، وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، وَمَلَأَ الْمَكَانَ صَخَبَهُمْ.

خَرَجَتْ دَارِيَا مِنْ غُرْفَتِهَا لِتَتَنَاوَلَ الشَّايَ مَعَ الْكِبَارِ. وَلَمْ يَصْحَبْهَا سَتِيفَانُ، وَلَعَلَّهُ غَادَرَ
مَخْدَعَ زَوْجِهِ مِنَ الْبَابِ الْآخِرِ!

وَمَا كَادَتْ تَجْلِسُ مَعَ أَنَا وَكَاتَرِينَ حَتَّى قَالَتْ مُوجِّهَةً حَدِيثَهَا إِلَى الْأُولَى: «أَخَافُ أَنْ
يُؤْذِيكَ الْبَرْدُ فِي الْغُرْفَةِ الْعُلْيَا، وَلِهَذَا أَرَى أَنْ تَنْتَقِلِي إِلَى الطَّبَقَةِ الْأَرْضِيَّةِ».

فَأَجَابَتْهَا أَنَا وَهِيَ تَحْدِجُهَا بِنَظْرَةٍ مُتَفَرِّسَةٍ مُتَفَحِّصَةٍ: «أَرْجُو أَلَّا تَقْلَقِي مِنْ أَجْلِي».

- «بَلْ يَجِبُ أَنْ تَسْتَبْدِلِي غُرْفَتِكَ».

- «يَقِينِي أَنِّي أَجِدُ الرَّاحَةَ وَالْمُنْتَعَةَ فِي أَيِّ مَكَانٍ أَنَا فِيهِ، يَا عَزِيزَتِي».

وَوَصَلَ سَتِيفَانُ فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ، فَقَالَ مُتَسَائِلًا: «مَاذَا جَرَى؟ وَعَمَّا تَتَكَلَّمَانِ؟»

وَأَدْرَكَتْ أَنَا مِنْ لَهْجَتِهِ أَنَّ الْمِيَاءَ عَادَتْ إِلَى مَجَارِيهَا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ.

وَقَالَتْ زَوْجُهُ رَدًّا عَلَى سُؤَالِهِ: «أُرِيدُ أَنْ أَنْقُلَ أَمْتِعَةَ أَنَا إِلَى الطَّبَقَةِ الْأَرْضِيَّةِ، لَكِنْ لَيْسَ
ثَمَّةَ مَنْ يُرْتَّبُ أُمُورَ النَّوَافِدِ غَيْرِي!»

وَهَجَسَتْ أَنَا فِي مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا، وَجَعَلْتُ تَقُولُ: «اللَّهُ وَحْدَهُ يَعْلَمُ إِنْ كَانَ الْقَلْبَانِ
قَدْ خَلَصَا مِنَ الضَّغَائِنِ؛ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنْ كَانَا قَدْ تَصَالَحَا وَتَصَافَيَا!»

وَقَالَ سَتِيفَانُ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى زَوْجِهِ، ثُمَّ يُنْقَلُ طَرْفَهُ بَيْنَ السَّيِّدَتَيْنِ الْآخَرَتَيْنِ: «هَذَا هُرَاءٌ!
إِنَّ دَارِيَا تَسْتَنْبِطُ الصَّعَابَ دَائِمًا. عَلَى أَنِّي طَوَّعَ أَمْرِيكَ فَافْعَلِي مَا تَشَائِينِ!»

وَأَتَمَّتْ أَنَا مُنَاجَاتَهَا وَالِابْتِسَامَةَ تُدَاعِبُ شَفَتَيْهَا: «أَجَلٌ... أَجَلٌ. لَقَدْ اتَّفَقَا وَتَوَافَقَا،
وَالصُّلْحُ كَامِلٌ، كَامِلٌ... شُكْرًا لِلَّهِ!»

وظَلَّتْ داريا، طيلةَ ساعاتِ المساءِ، تُوجِّهُهُ إلى رَؤُوسِ الحَدِيثِ بِاللَّهْجَةِ السَّاحِرَةِ الَّتِي دَرَجَتْ مُنْذُ زَمَنِ عَلَى مُخاطَبَتِهِ بِهَا.

أما هُوَ- الرُّؤُوسُ المُذْنِبُ الَّذِي صَفَحَتْ عَنْهُ امْرَأَتُهُ- فقد طَغَى عَلَيْهِ الشُّرُورُ، ثُمَّ نَسِيَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَنَّهُ خانَ رَؤُوسَهُ فَاسْتَحَقَّ العِقَابَ، نَسِيَ كُلَّ شَيْءٍ، وَرَجَعَ- كما كانَ- سَتيفانَ أوبلنسكي الَّذِي لا تُفارقُ الاِبتِسامَةَ فَمَهُ.

وطَرِقَ البابُ وَدَقَّتِ السَّاعَةُ مُعَلِّنةً انْتِصافَ التَّاسِعَةِ.

وفُتِحَ البابُ، وَبداَ لِلجَمِيعِ وَجْهُ فرونسكي، فَشَعَرَتْ أَنَا بِمَزِيجٍ مُتناقِضٍ مِنَ الشُّرُورِ وَالْفَزَعِ، أما كاترينُ فقد شَعَرَتْ بِالسَّعَادَةِ، وَخُيِّلَ لِيها أَنَّ الشَّابَّ مَرَّ عَلَيْها فِي بَيْتِها، فَلَمَّا لَمْ يَجِدْها جَاءَ وَرِاءَها وَانْتَحَلَ هَذا العُذْرَ. فقد قالَ لِستيفانَ: «في أَيِّ ساعَةٍ تُقيمُ المَآذِبَةَ لِلضَّيْفِ العَظِيمِ الَّذِي تَتَظَرَّرُ مَجِيئَهُ غَدًا؟» وَاكْتَفَى فَلَمْ يَدْخُلْ. وَتَخَضَّبَ وَجْهُ كاترينَ فَأَطْرَقَتْ بِرَأْسِها خَجَلًا وَحِياءً!

وأبى فرونسكي أَنْ يَدْخُلَ، وَرَجَعَ مِنْ حَيْثُ أَتى. وَبَدَأَ الجَمِيعُ نَظراتِ التَّعَجُّبِ وَالسَّأوِلِ، وَلَمْ تَلْبَثْ عُيُونُهُمْ أَنْ تَحَوَّلَتْ إِلى مَجْمَعٍ لِلرُّسُومِ كَانَتْ أَنَا قَدْ بَدَأْتُ تَتَأَمَّلُ فِيهِ.

فهل هُنَاكَ ما يُثيرُ الرِّيبَ فِي زيارَةِ يَقُومُ بِها شابٌّ فِي مِثْلِ هَذا الهَزِيعِ^(١)؟ ثُمَّ لِمَاذا لَمْ يَدْخُلْ؟ لِمَاذا تَرَدَّدَ ثُمَّ أَحْجَمَ؟ لا، لَيْسَ هُنَاكَ ما يُثيرُ الرِّيبَ وَالشُّكوكَ، إِلاَّ أَنَّ الأَمْرَ بدأَ مُذهِلًا لَهُمْ جَمِيعًا. ما سَبَبُ إِحْجامِهِ؟ لِمَاذا اكْتَفَى بِالسَّؤَالِ؟ أَلَمْ يَكُنْ فِي اسْتِطاعَتِهِ إِزْجاءَ سِوَالِهِ إِلى العَدَدِ؟

أما أَنَا فقد عَدَّتْ عَمَلَهُ نَزَقًا وَطِيشًا، وَلِلشَّبَابِ طَفَرْتُهُ وَنَزوتُهُ وَرُعودَتُهُ! فهل عَدَّتْ أَنَا عَمَلَهُ نَزَقًا وَطِيشًا فِي قَرارةِ نَفْسِها؟ أم... أم ماذا؟

* * *

أَنفَقْتُ كاترينُ كَثِيرًا مِنْ وَقْتِها وَهِيَ تَتَرَبَّنُ وَتَتَأَنَّقُ وَتَسْتَعِدُّ لِلحَفْلَةِ السَّاهِرَةِ الَّتِي سَيَتَقَرَّرُ فِيها مُسْتَقْبَلُها، فَيُداغُ فِي أَثْنائِها خَبْرُ حِطْبَتِها لِلكونَتِ الشَّابِّ فرونسكي، أَوْ على الأَقْلِ يُبَيِّتُ فِي هَذا الأَمْرِ نِهايَتِها، وَتُوجَلُ التَّفاصِيلُ إِلى تاريخِ آخَرَ.

(١) الهَزِيعُ: بَعْضٌ مِنَ اللَّيْلِ.

وَأَخَذَتْ تَتَأَمَّلُ فِي الْمِرْآةِ، وَتَنْظُرُ إِلَى خَلْقِهَا الْقَوِيمِ، وَحُسْنِهَا الْخَالِصِ، وَلَقَّتْهَا الْمُدْلَّةُ،
 حَتَّى إِذَا مَا رَضِيَتْ عَنْ نَفْسِهَا، وَقَبِعَتْ بِقُوَّةِ سِحْرِهَا، خَرَجَتْ مِنْ حُجْرَتِهَا تَمِيسُ دَلَالًا،
 وَتَخْطُرُ عُجْبًا، وَتَتَهَادَى فِي خَفْرِ مَقْرُونِ بَعْنَجٍ. وَذَلَفَتْ إِلَى الرَّدْهِةِ الْفَسِيحَةِ الَّتِي أُقِيمَتْ فِيهَا
 السَّهْرَةُ، وَكَانَتْ الْمَوْسِيقَى تَصْدَحُ بِأَنْغَامِهَا، فَيَتَرَدَّدُ صَدَاها الْعَذْبُ فِي أَرْجَاءِ الْمَنْزِلِ الَّذِي
 سَادَ أَهْلِيهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ شُعورًا بِالتَّفَاوُلِ وَالْبِشْرِ، مَبْعُثُهُ الْيَقِينُ مِنْ أَنَّ كَاتِرِينَ مُقْبِلَةً عَلَى
 زَوَاجٍ، وَأَنَّ الْخَطْبُ^(١) الْمَوْعودَ رَجُلٌ ذُو بَسْطَةٍ وَجَاهٍ.

وَأَخَذَ طَرْفَهَا السَّاجِي وَجْهَهُ أَنَا كَارِنِيَا الْجَمِيلُ، فَأَذْهَلَهَا مَا رَأَتْهُ مِنْ سِحْرِهَا. لَقَدْ بَدَتْ
 الْغَادَةَ فِي أَبِيهِ حُلَّةٍ وَأَبْدَعَ زِينَةً، حَتَّى إِنَّهَا كَادَتْ تَكْذِبُ عَيْنَيْهَا وَهِيَ تَسْأَلُ: أَهَلْهُ حَقًّا أَنَا
 كَارِنِيَا، أَمْ امْرَأَةٌ أُخْرَى سِوَاهَا؟»

لَقَدْ طَلَبْتُ إِلَيْهَا أَنْ تَتَلَفَّعَ بِثَوْبٍ بِنَفْسِجِي يَنْمُ عَنِ الْوَرْدِ، وَلَكِنَّهَا شُدْهَتْ مِمَّا رَأَتْهُ مِنْ
 أَنْسِجَامِ اللَّوْنِ الْأَسْوَدِ مَعَ الْمِرْآةِ الْفَاتِنَةِ... وَي! أَبْعَدُ هَذِهِ الرَّوْعَةَ رَوْعَةً؟ أَهْنَاكَ فِي مَوْسِكُو
 وَبَطْرَسْبِرْجٍ مَنْ يُضَاهِيهَا؟ كَلَّا... كَلَّا...

وَأَذْرَكْتُ بَطْلَ رَأْيِهَا فِي أَنَّ الرِّدَاءَ هُوَ عِمَادُ الْمِرْآةِ وَمَقْوَمُ جَمَالِهَا، فَالْمِرْآةُ الْجَمِيلَةُ جَمِيلَةٌ
 مَهْمَا لَبَسَتْ وَمَهْمَا ازْتَدَتْ، وَلَنْ يَزِيدَهَا اللَّبَاسُ الْحَسَنُ إِلَّا أَنْاقَةً... وَهَا هِيَ ذِي أَنَا تَبْدُو
 فِي ثَوْبِهَا الْأَسْوَدِ أَشَدَّ فِتْنَةً مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ أُخْرَى اتَّخَذَتْ مِنَ الْأَلْوَانِ الزَّاهِيَةِ عَوْنًا لَهَا عَلَى
 دِمَامَةٍ أَوْ نَقْصٍ أَوْ سِحْنَةٍ شَاجِبَةٍ نَاجِلَةٍ دَمِيمَةٍ!

وَمَا كَانَ ثَوْبُ أَنَا فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا إِطَارًا أَسْوَدَ يُعَانِقُ الْمِثَالِ الْبَدِيعَ، فَلَا يُكْسِبُ الْمِثَالِ،
 كَمَا أَنَّ الْقَمَرَ لَا يُكْسِبُ مِنَ الْهَالَةِ!

كَانَتْ أَنَا كَارِنِيَا سَاعَتَ ذَلِكَ تَتَوَسَّطُ فَرِيقًا مِنَ الْمَدْعُوِّينَ وَالْمَدْعُوَاتِ، وَكَانَتْ فِي أَنْاقَتِهَا
 الْمُبَسَّطَةَ أَرْوَعَ مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ سِوَاهَا فِي أَنْاقَتِهَا الْمُعَقَّدَةَ! كَانَ ثَوْبُهَا الْأَسْوَدُ الْبَسِيطُ يَبْدُو فِي
 اشْتِرْسَالِهِ اللَّيْنِ الْهَيِّنِ اللَّطِيفِ أَيُّ ثَوْبٍ آخَرَ يَتَعَرَّجُ، وَيَتَمَاجُجُ، وَيَزْتَفِعُ، وَيَنْتَفِخُ، وَتَعْلُوهُ
 طَبَقَاتٌ مِنْ قُمَاسٍ لَاصِعٍ وَمُلُونٍ وَمُرَقَّشٍ.

وَدَنَتْ كَاتِرِينَ مِنْهَا، فَتَنَاهَى إِلَيْهَا حَدِيثَ مُتَبَادَلٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُعَلِّمِ الرَّقِصِ «كُورسونسكي».

(١) الْخَطْبُ: الْخَاطِبُ.

فَوَقَّتْ، ثُمَّ تَحَرَّكَتْ، فابْتَدَرْتُهَا أَنَا بِابْتِسَامَةٍ رَقِيقَةٍ وَادِعَةٍ، ثُمَّ صَعَدَتْ فِي قَامَتِهَا عَيْنًا فَاحِصَةً، وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ هَزَّتْ رَأْسَهَا، وَكَأَنَّهَا تَقُولُ: «أَهْتَتِكِ عَلَى ذَوْقِكِ وَأَغِطُكِ...».

وَفَهِمْتُ كَاتِرِينَ مَا قَالَتْهُ عَيْنَا أَنَا، فَتَضَرَّجَ وَجْهَهَا وَقَالَتْ وَهِيَ تَذْنُو مِنْهَا: «لِيَهْنِكَ قَدْكِ وَأَنْسِجَامِكِ، فَأَنْتِ تَخْطُرِينَ فِي الْمَكَانِ وَكَأَنَّكِ تَرْقُصِينَ رِقْصَةَ الْفَنَّ الْخَالِدَةِ!»

وَأَبْرَى مُعَلِّمُ الرِّقْصِ يَقُولُ مُتَحَمِّسًا: «وَأَصْدُفُكِ يَا سَيِّدَتِي أَنَّهَا خَيْرٌ مَنْ تَعَلَّمَ الرِّقْصَ عَلَى يَدَيَّ! فَهَلُمِّي يَا أَنَا، هَلُمِّي نَرْقُصْ، فَالْمَوْسِيقَى تَعْرِفُ لَنَا أَعْدَبَ لَحْنٍ سَمِعْتَهُ أُذُنَايَ!»

فَقَالَتْ أَنَا: «أَعْتَذِرُ إِلَيْكِ، فَالرِّقْصُ لَا يَرُوقُ لِي دَائِمًا.»

قَالَ: «غَيْرَ أَنَّنَا اللَّيْلَةَ فِي حَفْلَةِ مَرْحٍ وَرَقْصٍ وَمُنْتَعَةٍ، فَكَيْفَ يُطَاوِعُكِ قَلْبُكِ عَلَى التَّمَنُّعِ وَالِإِعْتِذَارِ؟»

وَبَدَأَ فِرُونْسُكِي قَادِمًا نَحْوَهَا، فَأَنْتَنَتْ إِلَى مُعَلِّمِهَا بِسُرْعَةٍ وَقَالَتْ: «أَصَبْتُ... صَبْتُ... فَهَبَا نَرْقُصْ.»

وَدَارَتْ مَعَ كُورْسُونْسُكِي خَفِيفَةً بَارِعَةً، وَابْتَعَدَتْ عَنِ فِرُونْسُكِي الَّذِي أَلْقَى عَلَيْهَا التَّحِيَّةَ، فَلَمْ تَحْفَلْهَا وَلَمْ تَرُدَّ عَلَيْهَا، وَكَأَنَّهَا مَا وَعَتْهَا!

* * *

لَمْ يَفُتْ كَاتِرِينَ تَجَاهُلُ أَنَا لُجُودَ فِرُونْسُكِي وَأَنْصِرَافُهَا عَنْ تَحِيَّتِي، وَكَأَنَّهَا تُعَنِّفُهُ لِشَيْءٍ أَوْ تَهْتَرَّبُ مِنْهُ لِسَبَبٍ. وَتَسَاءَلْتُ وَالِدَهُشُ مُسْتَوِلٍ عَلَيْهَا: «عَجَبًا لَهَا! لِمَ أَغْضَبْتَ عَنْهُ فَلَمْ تَرُدَّ تَحِيَّتَهُ بِمِثْلِهَا؟»

وَقَطَعَ عَلَيْهَا حَبْلَ تَفْكِيرِهَا صَوْتُ فِرُونْسُكِي وَهُوَ يَصِفُ لَهَا أَسْفَهُ لَعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنَ الْإِلْمَامِ بَيْنَهَا زَائِرًا فِي الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ.

وَأَصَاحَتْ كَاتِرِينَ السَّمْعَ إِلَى مَا كَانَ يَقُولُ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَنْقَطِعْ طِيلَةَ الْوَقْتِ عَنِ تَتَبُعِ حَرَكَةِ نَا الْمَاهِرَةِ وَهِيَ تَدُورُ فِي حَلْبَةِ الرِّقْصِ خَفِيفَةً رَشِيقَةً وَابْتِغَاءً.

وَطَالَ انْتِظَارُهَا، وَأَخَذَتْ تَتَمَلَّمُ أَلْمَا وَقُنُوطًا - فِيمَاذَا لَا يَدْعُوهَا الشَّابُّ إِلَى الرِّقْصِ؟ لَا يَعْرِفُ الرِّقْصَ أَمْ هُوَ رَاغِبٌ عَنْهَا نَافِرٌ مِنْهَا؟

وَبَيْنَمَا هِيَ مُوْغَلَةٌ فِي فِكْرِ حَزِينٍ كَسِيفٍ، فَظَنَّ فِرُونْسُكِي إِلَى قُصُورِهِ وَإِهْمَالِهِ فَسَارَعَ يَقُولُ

مُتَدِّمًا: «تَبَّا لي! كَيْفَ نَسِيتُ فِي غَمْرَةِ الْحَدِيثِ أَنْ أَطْلُبَ إِلَيْكَ مُشَارَكَتِي الرَّقْصِ؟»
ثُمَّ إِنَّهُ أَحَاطَهَا بِذِرَاعِهِ وَاحْتَلَطَ بِالرَّاقِصِينَ.

وَرَنْتَ إِلَيْهِ كَاتِرِينَ بَعِيْنَيْنِ مُتَلَهِّفَتَيْنِ تَشْبِيَانِ بِمَا يَعْتَمَلُ فِي صَدْرِهَا مِنْ آيَاتِ الْحُبِّ.
وَقَدْ أَثْقَلَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ النَّظْرَةُ فِي مَا بَعْدُ، وَكَانَتْ كُلَّمَا تَذَكَّرَتْهَا، يَطْغَى عَلَيْهَا شُعُورٌ
بِالْحَجَلِ وَالْحَيَاءِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ نِدَاءً هَتَمَتْ بِهِ عَيْنَاهَا، فَلَمْ يَجِدْ لَهُ فِي صَدْرِ الْفَتَى وَقَلْبِهِ صَدَى
وَلَا جَوَابًا.

أَجَلٌ... ظَلَّتْ سِنِينَ عَدِيدَةً وَهِيَ تَذُوبُ حَجَلًا كُلَّمَا تَذَكَّرَتْ تِلْكَ النَّظْرَةَ الَّتِي لَمْ
تَتَجَاوَبْ أَصْدَاؤُهَا إِلَّا فِي قَلْبِهَا الْفَتَى النَّابِضِ بِالْحُبِّ وَالْحَيَاةِ!

* * *

وَرَقَصَتْ كَاتِرِينَ مِرَارًا مَعَ فَرُونْسَكِي، فَتَقَعَتْ غَلِيلَهَا مِنْ قُرْبِهِ، وَرَوَتْ ظَمَأَهَا مِنْ حَدِيثِهِ،
فَقَدْ تَنَاجَى وَتَبَادَلَا الْكَلَامَ. وَلَكِنَّهُ عِنْدَمَا سَأَلَهَا عَنْ لَيْفِينَ ارْتَبَكَتْ وَلَمْ تَعْرِفْ مَاذَا تَقُولُ.
وَنَظَرَ فَرُونْسَكِي إِلَيْهَا فَرَأَى وَجْهَهَا الْجَمِيلَ يَتَخَضَّبُ بِلَوْنِ الْإِضْطِرَابِ... غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ
اضْطِرَابًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، كَانَ اضْطِرَابَ فِتَاةٍ تَنْتَظِرُ مُفَاجَأَةً، وَتَتَوَقَّعُ أَنْ يُفَاتِحَهَا الْحَبِيبُ بِحُبِّهِ،
وَيُبْنِئُهَا لَوَاعِجَ قَلْبِهِ.

بَيِّنْدَ أَنْ فَرُونْسَكِي تَجَنَّبَ حَدِيثَ الْحُبِّ وَالْعَرَامِ، فَلَمْ يَمُضَّهَا هَذَا التَّجَاهُلُ، بَلْ أَيْقَنَتْ أَنَّهُ
لَنْ يُبْطِئَ أَنْ يَقُولَ لَهَا مَا فِي قَلْبِهِ سَاعَةً يَحِينُ مِعَادُ الرَّقْصَةِ الَّتِي يَنْتَلِهَفُ إِلَيْهَا الْجَمِيعُ، رَقْصَةَ
الْمَازُورِكَ الْعَظِيمَةِ... إِنَّهُ، وَلَا شَكَّ، سَيَعْتَنِمُ فُرْصَةَ احْتِضَانِهِ لَهَا فِي تِلْكَ الرَّقْصَةِ لِطَارِحِهَا
غَرَامُهُ، وَيُفَاتِحِهَا بِمَا يَطْمَعُ فِيهِ، ثُمَّ يَطْلُبُ يَدَهَا... أَجَلٌ يَطْلُبُ يَدَهَا.

وَسَهَا عَنْ بَالِ فَرُونْسَكِي أَنْ يُذَكِّرَهَا بِأَنَّ رَقْصَةَ الْمَازُورِكَ الْمُتَنْظَرَةَ هِيَ لَهُ مِنْ دُونِ سِوَاهُ،
إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَقْلُقْ، فَهِيَ وَاثِقَةٌ كُلُّ الْوَثُوقِ مِنْ أَنَّهُ لَنْ يُرَاقِصَ غَيْرَهَا مَتَى أَرَفَتِ السَّاعَةَ...
وَعَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ رَدَّتْ خَمْسَةَ رِجَالٍ طَلَبُوا إِلَيْهَا مُرَاقِصَتَهُمْ، بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: «الْمَعْذِرَةُ...»
لَقَدْ سَبَقَكُمْ غَيْرُكُمْ!

كَانَتْ الْحَفْلَةُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى كَاتِرِينَ رُؤْيَا سَاحِرَةً مِنَ الْأَلْوَانِ الرَّاهِيَةِ وَالْمُوسِيقَى الْحَالِمَةِ،
وَالضُّوْضَاءِ وَالْحَرَكَةِ. وَلَمْ تَكُنْ لِتَجْلِسَ دَقِيقَةً وَاحِدَةً. وَمَعَ أَنَّ التَّعَبَ أَخَذَ مِنْهَا مَا أَخَذَهُ،

كَانَتْ تَرْقُصُ وَتَرْقُصُ .

وَاتَّفَقَ، بَيْنَمَا كَانَتْ تُرَاقِصُ شَابًا مُمَلًّا، وَتَدورُ مَعَهُ فِي الْحَلْبَةِ، أَنْ افْتَرَبَتْ مِنْ أَنَا، وَكَانَتْ الْأَخِيرَةُ تُرَاقِصُ فَرُونسكي، فَشَدَّهَا مَا رَأَتْ. مَاذَا رَأَتْ؟ رَأَتْ أَنَا مُضْطَرِمَّةَ الْخَدَّيْنِ، بِرَاقَةِ الْعَيْنَيْنِ. رَأَتْ فِيهَا أَمَارَاتِ الظَّفَرِ، وَعَلَامَاتِ النَّصْرِ. رَأَتْ فِيهَا مَا أَكَّدَ لَهَا أَنَّ أَنَا ثِمْلَةٌ مُتَشَبِّهَةٌ بِخَمْرَةٍ سَعَادَتِهَا، وَكَانَتْ كَاترِينُ تَخْبِرُنِي هَذَا الشُّعُورَ الْعَجِيبَ، شُعُورَ النَّصْرِ، وَرَأَتْ يُضَا ذَلِكَ الضُّوءَ الْخَفَاقَ الَّذِي يُبَيِّنُ مُتَأَجِّجًا مِنْ نَاطِرِيهَا، وَالْإِبْتِسَامَةَ الَّتِي تَبِيحُ عَنْ حُجُورِ وَأَنْفِعَالِ .

- «مَنْ؟...» سَاءَلَتْ كَاترِينُ .

- «كَلَّا، لَيْسَ تَهَافُتُ الْقَوْمَ عَلَيْهَا، هُوَ الَّذِي أَسْكَرَهَا وَأَفْعَمَ قَلْبَهَا بِهَجَّةٍ. كَلَّا، بَلْ إِنَّهُ حُبُّهَا لَامرِيٍّ وَاحِدٍ فَحَسْبُ، لَامرِيٍّ وَاحِدٍ. وَهَذَا الْوَاحِدُ... هَلْ يُمَكِّنُ ذَلِكَ؟ هَلْ يُمَكِّنُ؟» مَضَتْ تُنَاجِي نَفْسَهَا وَهِيَ مُتَشَغَلَةٌ عَنْ رَفِيقِهَا .

إِنَّهُ يَلْزِمُهَا كَظَلِّهَا، وَهَا هُوَ يُكَلِّمُهَا بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ، بَلْ لَعَلَّهُ يُنَاجِيهَا... وَهَا هِيَ تُسِيمُ لَهُ كُلَّمَا هَمَسَ فِي أُذُنِهَا... .

وَتَرَاءَى لِكَاترِينِ أَنَّ أَنَا تَبْدُلُ وَشَعَهَا لِكِي تُخْفِي هَذِهِ الْعَلَامَاتِ وَلَكِنَّ الْمَشَاعِرَ كَانَتْ قُوَى مِنَ الْإِرَادَةِ، فَطَفَّرَتْ إِلَى وَجْهِهَا .

وَنَظَرَتْ إِلَى فَرُونسكي... وَفَكَّرَتْ: «وَهُوَ؟...» وَمَا رَأَتْهُ مُرْتَسِمًا فِي مِرَاةٍ وَجْهِ أَنَا، نَتُّهُ مُعَكِّسًا عَلَى قَسَمَاتِهِ وَأَمَائِرِهِ .

فَمَاذَا أَصَابَهُ؟ مَاذَا أَصَابَ شَخْصِيَّتَهُ، حَتَّى بَدَا خَاضِعًا مُتَطَامِنًا؟ إِنَّهُ يَكَادُ يَجْرُ عَلَى رُضٍ سَاجِدًا كُلَّمَا رَنَا إِلَى وَجْهِهَا... وَإِنَّ عَيْنَيْهِ الْقَوِيَّتَيْنِ خَبَتْ وَقَدَّتُهُمَا، وَغَدَاتَا تَنْظُرَانِ فِي أَنَا فِي اسْتِجْدَاءٍ وَابْتِهَالٍ وَخَوْفٍ!

كَانَا يَتَهَامَسَانِ وَكَانَتْهُمَا يَتَنَاجِيَانِ... وَشَعَرَتْ كَاترِينُ وَالْأَلَمُ يَجْرُ فِي صَدْرِهَا أَنَّ كُلَّ نَسْمَةٍ يَقُولَانِهَا كَانَتْ تُقَرَّرُ مَصِيرُهُمَا وَمَصِيرَهَا هِيَ أَيْضًا!

وَالْغَرِيبُ فِي الْأَمْرِ أَنَّهُمَا لَمْ يَتَحَدَّثَا إِلَّا عَنْ أُمُورٍ تَافِهَةٍ. بَيِّدَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي خَاضَا فِي حَدِيثِهَا كَانَتْ تَجْدُبُهُمَا جَذْبًا إِلَى ذَلِكَ الْإِتِّجَاهِ الْفِكْرِيِّ الَّذِي أَوْغَلَتْ فِيهِ كَاترِينُ، إِلَى

الإعتقاد عن يقين بأنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ مَهْمَا كَانَتْ تَافِهَةً سَتَقَرُّ مَصِيرُهُمَا . . . هَذَا مَا كَانَ يَشْعُرُ بِهِ
كُلُّ مِنْهُمَا، وَهَذَا مَا تَمَحَّضَتْ عَنْهُ مَشَاعِرُ كَاتِرِينَ.

وَذَابَ كُلُّ شَيْءٍ، الْحَفْلَةُ، بِلِ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا ذَابَتْ فِي غَمَامَةٍ قَاتِمَةٍ فِي أَعْمَاقِ كَاتِرِينَ.
وَلَكِنَّ الفَتَاةَ الأَيُّمَةَ احْتَفَظَتْ بِجَلْدِهَا وَاضْطِبَارِهَا بِفَضْلِ نَشَاتِهَا الصَّارِمَةِ القَوِيمَةِ فِي بَيْتِ
أَبَوَيْهَا، وَاسْتَطَاعَتْ أَنْ تَقُومَ بِالوَاجِبِ المَفْرُوضِ عَلَيْهَا، مِنَ الرَّقْصِ، وَالرَّدِّ عَلَى الأَسئِلَةِ،
وَالإِبْتِسَامِ، وَالدُّعَابَةِ!

وَلَكِنَّ نَوْعًا مِنَ الفَرَجِ أَلْهَبَ فُؤَادَهَا قُبَيْلَ الشُّرُوعِ فِي رَقْصَةِ المَازُورِكَ . . . لَقَدْ رَدَّتْ
خَمْسَةَ شُبَّانٍ، وَهَا هِيَ تَقِفُ وَحِيدَةً حَائِرَةً. فَهَلْ تَلُودُ بِفِرَاشِهَا؟ هَلْ تَزْعُمُ أَنَّهَا مَرِيضَةٌ؟
وَأخِيرًا لَجَأَتْ إِلَى رُكْنِ مُتَفَرِّدٍ، فَتَهَالَكَتْ عَلَى كُرْسِيِّ هُنَاكَ وَهِيَ تَلْهَتْ مِنَ النَّصَبِ
وَالْوَصَبِ^(١)، وَتَتَمَتَّى لَوْ تَحَرَّمَهَا الرَّدَى^(٢) حَتَّى تَنْجُوَ مِنْ هَذَا العَذَابِ!

فَيَا لَقَلْبِهَا البِكْرِ! وَيَا لِإِحْسَاسِهَا المُرْهَفِ!

وَيَا لِلطَّعْنَةِ النَّجْلَاءِ! يَا لِلطَّعْنَةِ النَّجْلَاءِ الَّتِي سَدَّهَا فَارِسُ أَحْلَامِهَا إِلَى مُهْجَتِهَا!

وَخَيَّلَ إِلَيْهَا وَهِيَ تَدَاعَى مِنَ القُنُوطِ أَنَّ مِطْرَفَةً هَائِلَةً جَعَلَتْ تَرْتَفِعُ إِلَى أَعْلَى، لِتَهَيِّطَ بِكُلِّ
قُوَّةٍ عَلَى فُؤَادِهَا، وَإِنَّهَا تُوشِكُ أَنْ تَتَحَطَّمَ وَهِيَ لَمَّا تَرَلَّ فِي عُفُوانِ العُمُرِ وَغَضَارَةِ الصَّبَا.

عَلَى أَنَّ لِلنَّفْسِ دَوْمًا مُنْفَذًا مِنَ اليَأْسِ، وَقَدْ نَاجَتِ المُتَأَلِّمَةُ نَفْسَهَا، فَعَلَقَتْ تَقُولُ:
«أَمْصِيْبَةٌ أَنَا فِي ظَنِّي، أَمْ إِنَّ تَسْرُعِي صَوَّرَ لِي الأُمُورَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهَا؟ قَدْ أَكُونُ مُخْطِئَةً،
وَقَدْ يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَا بَيْنَ صَدِيقَيْنِ عَادِيَيْنِ مِنَ الأُمُورِ التَّافِهَةِ اليَسِيرَةِ».

وَلَكِنَّهَا رَاحَتْ بَعْدَ دَقَائِقَ تَسْتَعْرِضُ فِي مُخَيَّلَتِهَا مَا وَقَعَ عَلَيْهِ طَرْفُهَا، فَأَيَقَنْتْ وَالعُصَّةُ
تُرْمِضُهَا^(٣) أَنَّ عِلَاقَةَ فِرُونَسْكِ بَأَنَّا هِيَ أَكْثَرُ مِنْ مُجَرَّدِ صَدَاقَةِ بَرِيئَةٍ، بَلْ إِنَّهَا عِلَاقَةٌ تَطَوَّرَتْ
بِسُرْعَةِ البَرَقِ، فَأُضْحَتْ عَاطِفَةً مُتَبَادِلَةً تَجِيشُ بِأَمَلٍ، وَتَعْتَمِلُ بِرَجَاءٍ، وَتَتَمَحَّضُ عَنْ أَشْيَاءٍ
وَأَشْيَاءٍ!

(١) النَّصَبُ وَالْوَصَبُ: التَّعَبُ وَالْوَجَعُ.

(٢) تَحَرَّمَهَا الرَّدَى: اسْتَأْصَلَهَا المَوْتُ وَأَهْلَكَهَا.

(٣) تُرْمِضُهَا: تُحْرِقُهَا، تَوَجِّعُهَا.

وبينا هي في هذه التجوى الكئيبة إذ طرَقَ سَمْعَهَا صَوْتُ امْرَأَةٍ يُخَاطِبُهَا وَيَقُولُ: «عَجَبًا يَا كاترين! أَتَنْفَرِدِينَ وَالْكُلَّ فِي فَرْحَةِ الرَّقْصَةِ الْكُبْرَى؟»

وانتثت كاترينُ برأسها المُثْقَلِ، فأبْصَرَتْ تَلْقَاءَها الكونتس نوردسون، ورأتها تَرْنُو إليها مُتَفَكِّرَةً.

وتَحَامَلَتْ على نَفْسِها فَنَطَرَتْ صَامِتَةً مُسْتَطَلِعَةً، وبادرَتْها المَرَأَةُ تَقُولُ: «تُرى ما الَّذِي عَاقَبَكَ عَنِ الرَّقْصِ؟ وهل تَكْرَهِينَ هَذِهِ الرَّقْصَةَ بِالذَّاتِ؟»

فَشَهَقَتِ الفَتَاةُ، وَأَجَابَتْ بِصَوْتِ تَخَفُّهِ العَبْرَاتُ: «أَجَلْ، أَجَلْ، إِنِّي لَا أُحِبُّهَا!»

قَالَتْ: «أَمَّا هُوَ- فرونسكي- فَإِنِّي سَمِعْتُهُ بِأُذُنِي يُلْحِفُ عَلَيْهَا أَنْ تُخَصِّصَهَا لَهُ... وقد نَمَنَعْتُ أَنَا وَطَلَبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُرَاقِصَكِ، إِلَّا أَنَّهُ اسْتَهْجَنَ عِنَادَهَا وَمَا زَالَ بِهَا حَتَّى أَفْنَعَهَا!»

فَأَطْرَقَتْ كاترينُ، وَنَكَسَتْ عَيْنَيْهَا وَقَالَتْ بِصَوْتِ خَافِتٍ: «لَا أَحْفَلُهُ، فَلْيَرُقِّصْ مَعَ مَنْ يَشَاءُ!»

لقد أَخْبَرَتْها المَرَأَةُ المِهْذَارَةَ بِحَقِيقَةِ مَا جَرَى، فَرَأَتْ أَنْ تَمَّا لَكَ صَوَابَهَا فَلَا تُرْخِي العِنَانَ لِأَلْمِهَا، لِئَلَّا تُشْهِرَ نَفْسَهَا وَتَجْعَلَ لِلنَّاسِ فِي شَخْصِهَا مَعْمَرًا وَمَلَمَرًا.

وَلَزِمَتِ الصَّمْتَ، فلم تُرَدِّ على المَرَأَةَ بِكَلَامٍ آخَرَ، وَجَعَلَتْ تُفَكِّرُ فِي رَجُلٍ ثَانٍ، فِي رَجُلٍ رَدَّتْهُ مُنْذُ أَيَّامٍ خَائِيًا يُجِرُّ وَرَاءَهُ أَذْيَالَ الفَسْلِ. وَمَنْ يَعْلَمُ؟ لقد كَانَتْ مَيَّالَةً إِلَى هَذَا رَجُلٍ... كَانَتْ تَمِيلُ إِلَى لَيْفِينَ، بَيْدَ أَنَّ فرونسكي الجَذَابَ الأَنِيقَ المُهَنْدَمَ بَرَزَ إِلَى المِيدَانِ فَحَجَبَ عَنْهَا الرُّؤْيَةَ، وَجَعَلَهَا تُضَيِّعُ الفُرْصَةَ!

لقد خَفَرَ العَهْدَ مِنْ دُونِ أَنْ يَنْطِقَ... وَهَلْ مِنَ الصَّرُورِيِّ أَنْ يَعْمَدَ الإِنْسَانُ إِلَى الكَلَامِ يَنْطِقُ بِهِ لِسَانُهُ مَتَى وَشَتَّ بَرَعْبِيهِ عَيْنَاهُ وَنَظَرَتْهُ؟ لقد صَارَحَهَا فرونسكي بِرَعْبِيهِ، وَهِيَ هُوَذَا يَحِيدُ عَنْهَا بَعْدَ اجْتِمَاعِهِ بَانَا!

وقالَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا: «إِنَّ الَّذِي قَوْلُهُ وَاحِدٌ لَا يَخْتَلِفُ هُوَ اللهُ، وَلِيَجْرِيَ مَا هُوَ مُقَدَّرٌ، وَلِيَكُنْ مَا يَكُونُ...».

وَدَنَا مِنْهُمَا كورسونسكي فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وَكَانَ عَلَى مَوْعِدٍ مَعَ الكونتس نوردسون سَرَقِصًا. بَيْدَ أَنَّ المَرَأَةَ اعْتَدَرَتْ إِلَيْهِ عَنِ ذَلِكَ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ تَحَوَّلَ إِلَى كاترينَ وَرَجَاهَا

أَنْ تُرَافِقَهُ إِلَى حَلْبَةِ الرَّقْصِ .

وَسُرَّتْ كَاتِرِينَ، فَقَدْ رَأَتْ فِي ذَلِكَ خَلَاصًا لَهَا مِنْ مَازِقِ حَرَجِ أَوْقَعَهَا فِيهِ فَرُونْسَكِي،
وَمِنْ فِكْرِهَا الْمُعَدَّبِ، وَمِنْ الْمَرَأَةِ الْمُتَطَفِّلَةِ الَّتِي يَسْتَأْذِرُ بِلَبِّهَا الْفُضُولَ .

وَرَقَصَتْ كَاتِرِينَ كَأَنَّهَا تِمَثَالٌ أَوْ كَأَنَّهَا آلَةٌ؛ وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ مُضْطَّرَّةً إِلَى الْكَلَامِ - وَهَذَا مِنْ
حُسْنِ حَظِّهَا - فَرَفِيقُهَا كَانَ فِي شُغْلِ عَنِ الْكَلَامِ بِقِيَادَةِ دَفَةِ الرَّقْصِ . . .

وَكَانَتْ تَرُقُصُ عَنْ كَثَبٍ مِنْ أَنَا وَفَرُونْسَكِي، وَكَانَ الْاِثْنَانِ يَجْلِسَانِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ كُلَّمَا
انْتَهَى دَوْرُهُمَا، وَكَانَتْ تَرَاهُمَا يُنْهَضَانِ لِيَسْتَأْنِفَا الرَّقْصَ كُلَّمَا حَانَتْ الدَّقِيقَةُ الَّتِي يَحْتَمُّ
عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَقَدَّمَا فِيهَا .

وَكَانَتْ كُلُّ لِحْظَةٍ تَمُرُّ عَلَيْهَا تَزِيدُهَا يَقِينًا مِنْ إِثْمِ الْاِثْنَيْنِ . . . وَكَانَتْ هَذِهِ اللَّحْظَاتُ كَأَنَّهَا
السَّاعَاتُ الطَّوِيلَةُ الْمُضْنِيَةُ!

كَانَا يَسْبَحَانِ فِي أَفْقٍ خَاصٍّ بِهِمَا . كَانَا يَمِيسَانِ وَكَأَنَّهُمَا يُحَلِّقَانِ فِي فِضَاءٍ سَعَادَتِيهِمَا،
وَكَانَا، كَمَا رَأَتْ كَاتِرِينَ، يَظُنَّانِ كُلُّ الظَّنِّ أَنَّهُمَا وَحِيدَانِ، فَلَا هُمَا يَشْعُرَانِ بِالنَّاسِ مِنْ
حَوْلِهِمَا . وَلَا هُمَا يُحْسِنَانِ بِالْأَعْيُنِ تَحْدِيدَهُمَا وَتَنْتِهَبُهُمَا .

نَاهِيكَ بِنَظَرَةِ فَرُونْسَكِي . فَأَيْنَ شِدَّتُهَا؟ وَأَيْنَ عَزْمُهَا؟ وَأَيْنَ قُوَّتُهَا؟ لَقَدْ تَلَاسَّتِ الشَّدَّةُ
وَالْعَزْمُ وَالْقُوَّةُ، وَحَلَّ مَحَلَّهَا جَمِيعًا نَظَرَةُ حَيْرَةٍ وَاضْطِرَابٍ، بَلْ نَظَرَةُ خُضُوعٍ وَتَسْلِيمٍ . كَانَتْ
نَظَرَتُهُ أَشْبَهَ بِنَظَرَةِ كُلِّ ذَكِيٍّ ارْتَكَبَ هَفْوَةً!

وَإِسْتَسَمَتْ أَنَا، فَانْعَكَسَتْ ابْتِسَامَتُهَا عَلَى مُحْيَاةٍ بَشْرًا وَنورًا . وَبَدَا عَلَيْهَا الْفِكْرُ، فَقَطَّبَ
حَاجِبَيْهِ وَكَأَنَّهُ يَنْسَابُ مَعَهَا فِي مَجْرَى الْفِكْرِ!

وَخِيَلْ لِكَاتِرِينَ أَنَّ قُوَّةَ فَاهِرَةٍ تَجْدِبُ عَيْنَيْهَا إِلَى وَجْهِ أَنَا . . . فَاسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهَا رِغْشَةٌ
عَظِيمَةٌ لِمَا رَأَتْ . وَمَا رَأَتْ كَانَ ثَوْبًا بَسِيطًا، إِلَّا أَنَّهُ أَضْفَى عَلَى صَاحِبِيهِ مِنَ الْفِتْنَةِ وَالسَّحْرِ
مَا يُذْهِلُ كُلَّ نَاطِرٍ وَمُتَأَمِّلٍ . . . كَانَتْ أَنَا فَاتِنَةٌ فِي ثَوْبِهَا الْبَسِيطِ الرَّائِعِ؛ كَانَتْ فَاتِنَةٌ بِذِرَاعَيْهَا
الْمُسْتَدِيرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يُزَيِّنُهُمَا سِوَارَانِ بَرَّاقَانِ؛ كَانَتْ فَاتِنَةٌ بِجِيدِهَا الرَّخِصِ الَّذِي يُحَلِّيه عِقْدٌ مِنْ
اللُّؤْلُؤِ؛ كَانَتْ فَاتِنَةٌ بِضَفِيرَيْهَا الْمَثْرُوكَةِ عَلَى سَجِيَّتَيْهَا؛ كَانَتْ فَاتِنَةٌ بِلَفْتَيْهَا، وَحَرَكَتَيْهَا،
وَنَظَرَتَيْهَا، وَبَسْمَتَيْهَا، وَكَانَتْ فَاتِنَةٌ بِقَدَمَيْهَا الصَّغِيرَتَيْنِ، وَيَدَيْهَا وَوَجْهِهَا!

إِلَّا أَنْ فِي رَوْعَتِهَا تَلْكَ كَمَنْ شَيْءٌ رَهِيْبٌ، شَيْءٌ يَمْتَازُ بِالْقَسْوَةِ الْمُخْفِيَةِ...
إِنَّهَا الْفِتْنَةُ الْقَاسِيَةُ.

إِنَّهَا الرُّوعَةُ الْبَاطِئَةُ.

إِنَّهَا الْجَمَالُ الْعَاصِفُ الَّذِي لَا يُبْقِي وَلَا يَذْرُ!

وَتَضَاعَفَ إِعْجَابُ كَاتِرِينَ بِهَا، وَبِالْقَدْرِ الَّذِي زَادَ فِيهِ إِعْجَابُهَا نَمَا أَلْمُهَا وَوَصَبُهَا.

وَلَمَّا تَبَادَلَ الرَّاقِصُونَ وَالرَّاقِصَاتُ الْمَوَاقِعَ، وَدَنَا مِنْهَا فَرُونْسَكِي، كَانَتْ كَاتِرِينُ امْرَأَةً غَيْرَهَا، كَانَتْ تَخْتَلِفُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى فِي هَيْئَتِهَا وَمَنْظَرِهَا... وَلَكِي يَقُولُ هُوَ شَيْئًا فَلَا يَبْدُو بِمَظْهَرِ الشُّدُوذِ، قَالَ لَهَا وَلُبُّهُ شَارِدٌ وَقَلْبُهُ مُوزَّعٌ: «إِنَّهَا حَفْلَةٌ رَائِعَةٌ، لَمْ أَشَاهِدْ لَهَا مِثْلًا!»

وَأَجَابَتْ هِيَ: «أَصَبَتْ!»

وَلَمَّا لَبَّتْ نِدَاءً أَنَا مَعَ امْرَأَةٍ أُخْرَى، وَدَنَتْ مِنْهَا فِي وَسْطِ الْحَلْقَةِ، وَهِيَ لَا تُخْفِي امْتِعَاضَهَا، رَنَتْ إِلَيْهَا أَنَا مُتَأَمِّلَةً، وَابْتَسَمَتْ وَهِيَ تُطْرِقُ بِرَأْسِهَا وَتَضَعُطُ عَلَى يَدِهَا.

إِلَّا أَنَّهَا مَا كَادَتْ تَلْمَحُ نَظْرَةَ الْيَأْسِ الَّتِي أَجَابَتْ كَاتِرِينَ بِهَا عَلَى ابْتِسَامَتِهَا حَتَّى أَشَاحَتْ عَنْهَا، وَشَرَعَتْ تَتَبَادَلُ الْحَدِيثَ مَعَ الْمَرْأَةِ الْأُخْرَى وَهِيَ تَضْحَكُ ضِحْكًَا مُتَوَاصِلًا.

وَقَالَتْ كَاتِرِينُ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا: «أَجَلٌ إِنَّ فِيهَا شَيْئًا مُرِيبًا، إِنَّ فِيهَا شَيْطَانًا مُرِيدًا، وَلَكِنَّهُ شَيْطَانٌ فَاتِرٌ قَاهِرٌ!»

وَانْتَهَى الرَّفْصُ، فَذَهَبَ بَعْضُ بَعْضٍ آخَرَ، وَتَفَرَّقَ مَنْ بَقِيَ فِي أَنْحَاءِ الْقَاعَةِ.

وَوَقَفَتْ أَنَا كَارِنِيَا مَعَ رَبِّ الْبَيْتِ، وَأَخَذَتْ تُعْرِبُ لَهُ عَنِ رَغْبَتِهَا فِي الذَّهَابِ، إِلَّا أَنَّهُ أَلَحَّ عَلَيْهَا أَنْ تَمَكَّتْ فَتُشَارِكُهُمْ فِي تَنَاوُلِ طَعَامِ الْعِشَاءِ.

وَلَكِنَّهَا أَصْرَتْ عَلَى الذَّهَابِ، وَقَالَتْ وَهِيَ تَبْتَسِمُ بِلُطْفٍ: «لَا مَنْدُوحةَ لِي مِنْ مُفَارَقَتِكُمْ، فَنَا مُنْعَبَةٌ وَفِي حَاجَةٍ إِلَى النَّوْمِ».

ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ تَقُولُ: «عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ لِأَنِّي رَفَضْتُ اللَّيْلَةَ أَكْثَرَ مِمَّا رَفَضْتُ فِي سَنَةِ كَامِلَةٍ!»
وَالْتَفَتَتْ إِلَى فَرُونْسَكِي الْوَاقِفِ قَرِيبًا مِنْهَا، وَعَقَّبَتْ بَعْدَ هَيْئَتِهِ: «يَخْلُقُ بِي أَنْ أَهْجَعَ

وأستريح قَبْلَ رُكُوبِ مَتْنِ السَّفَرِ بَعْدَ سَاعَاتٍ».

فَارْتَعَشَ فَرُونِسْكَي وَانْبَرَى يَقُولُ مُثْفَعِلًا: «وَهَلْ أَنْتِ مُزِمِعَةٌ عَلَى مُبَارَحَةِ مُوسْكَو عَدَا؟»

قَالَتْ: «هَذَا مَا أَنْوِيهِ».

وَحَدَجْتُهُ بِنَظْرَةٍ تَنِيمُ عَنْ تَعَجُّبِهَا مِنْ جُرْأَيْهِ فِي طَرِحِ الْأَسْئَلَةِ.

وَكَأَنَّ تَأَلَّقَ عَيْنَيْهَا وَالشَّرَرَ الَّذِي انْبَعَثَ مِنْهُمَا، وَكَأَنَّ بَسْمَتَهَا الَّتِي ارْتَسَمَتْ عَلَى شَفَتَيْهَا، وَهَذِهِ النَّارَ الَّتِي انْدَلَعَتْ مِنْ عَيْنَيْهَا، وَهَذِهِ الْإِبْتِسَامَةَ الَّتِي افْتَرَّ عَنْهَا نُعْرُهَا، أَضْرَمَتْ كُلُّهَا النَّارَ فِي دَاخِلِهِ. وَقَدْ أَحَسَّ بِهِذِهِ النَّارِ تَتَلَطَّى فِي قَرَارِيهِ حِينَ نَبَسَتْ بِكَلِمَاتِهَا الْقَلِيلَةَ ذَاتِ الْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ!

وَلَمْ تَمُكِّثْ أَنَا بَلِ اسْتَأْذَنْتِ وَمَضَتْ فِي سَبِيلِهَا، إِلَى بَيْتِ شَقِيْقِهَا.

أسئلة تحليلية

- ١ - ضَع لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا .
- ٢ - تَخَلَّل السَّرْدَ في مطلعِ هذا الفصلِ أسلوبُ النَّجوى الداخليَّة . أَشِيرُ إلى ذلك ، وَقُلْ ما الدَّورُ الَّذِي أَدَّتْهُ النَّجوى هذه؟
- ٣ - حَاوَلْتُ أَنَا أن تُصَلِّحَ ما انصدَعَ بين أخيها ستيفان وزوجتِهِ ، فبِمَ توَسَّلْتُ إلى ذلك؟
- ٤ - كَيْفَ كان تَقويمُها لخيائَةِ أخيها زوجتَهُ داريا؟
- ٥ - هل استطاعتُ أَنَا كارنينا أن تُوفِّقَ في إنهاءِ الأزمَةِ العائليَّةِ؟ ولصالحِ مَنْ كانَ حلُّ هذه العقدة؟
- ٦ - ما الفكرةُ الَّتِي كَوَّنَتْها في هذا الفصلِ عن أَنَا كارنينا؟
- ٧ - لَمَحَّ الكاتِبُ إلى أحداثٍ غامضةٍ ستقعُ لاحقًا في حياةِ أَنَا كارنينا ، استخرِجْ من هذا الفصلِ إشاراتِهِ إلى ذلكَ ممَّا لوحِظَ قَبْلَ السَّهرةِ الرَّاقِصَةِ .
- ٨ - حَاوِلْ أن ترى في كُلِّ إشارةٍ من تلكَ الإشاراتِ مَدلولها .
- ٩ - بدأتُ تظهرُ في هذا الفصلِ جَفَوَةٌ بين أَنَا وكاترين . حَدِّدْ مَواطِنَها وأسبابَها .
- ١٠ - ما الحالُ النَّفسيَّةُ الَّتِي انتهتْ إليها كاترين في ختامِ هذا الفصلِ؟
- ١١ - تفاعَلتْ في هذا الفصلِ نماذجٌ مُختلِفَةٌ من الشَّخصيَّاتِ البشريَّةِ ، حَدِّدِ النَّموذجَ الَّذِي تُمثَلُهُ كُلُّ من هذه الشَّخصيَّاتِ .
- ١٢ - أَوْجِزْ مضمونَ الفَصْلِ في أسطرٍ قَليلَةٍ .

الفصل الحادي عشر

غَادَرَ لَيْفِينُ مُوسَكَو بَعْدَ فَسَلِهِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَتَيَقَّنُهُ أَنَّ كَاتِرِينَ تَيَمَّهَا حُبُّ الشَّابِّ فِرُونْسَكِيِّ. وَأَلَى عَلَى نَفْسِهِ عَقِبَ وُصُولِهِ إِلَى قَرِيْبِهِ أَنْ يَقْنَعَ بِالَّذِي هُوَ فِيهِ، فَلَا يَتَشَوَّفُ بِبَصَرِهِ إِلَى سَعَادَةِ وَارِفَةِ الظَّلَالِ فِي بَيْتِ يَضُمُّ زَوْجَةً وَأَوْلَادًا. أَلَى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَنْعَمَسَ كَرَّةً أُخْرَى فِي الْأَعْمَالِ، وَأَنْ يَصِلَ اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ جَادًا كَادًا فِي دَابِّ لَا يَقْتَرُ.

وَأَنَا كَارِنِينَا امْرَأَةً الْفِتْنَةِ وَالْحَمَالِ مَا لَبِثْتُ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ لِلْحَفْلَةِ السَّاهِرَةِ أَنْ أُبْرَقْتُ إِلَى زَوْجِهَا فِي بَطْرَسْبِرْجِ تُسْنُهُ بِقُدُومِهَا.

وَكَانَ الْقِطَارُ الْمُسَافِرُ إِلَى بَطْرَسْبِرْجِ يُغَادِرُ مَحْطَّةَ مُوسَكَو فِي السَّابِعَةِ مِنْ مَسَاءِ كُلِّ يَوْمٍ، وَقَدْ قَضَتْ أَنَا النَّهَارَ بِطَوْلِهِ فِي بَيْتِ أَخِيهَا، ثُمَّ تَنَاوَلْتُ الطَّعَامَ مَعَ زَوْجِهِ.

بَيِّدَ أَنَّ الزَّوْجَةَ وَالْأَوْلَادَ رَأَوْا فِيهَا الْيَوْمَ مَا لَمْ يَرَوْهُ مِنْ قَبْلُ. وَقَدْ عَجِبْتُ دَارِيَا لِمَا شَابَّ حَرَكَتَهَا وَهَيْئَتَهَا مِنْ تَبَدُّلٍ، وَلَكِنَّهَا نَسَبَتْ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ إِلَى انْتِشَالِهَا فِيهَا فِي التَّأَهُبِ لِلسَّفَرِ، وَإِلَى انْفِعَالِهَا لَوْشِكِ مُفَارَقَةِ أَخِيهَا وَأَوْلَادِهِ الَّذِينَ كَلَّفَتْ بِهِمْ كَلْفًا شَدِيدًا، كَمَا خُيِّلَ إِلَيْهَا.

وَأخِيرًا عِنْدَمَا تَمَلَّمَتِ الْقَاطِرَةَ، وَنَفَخَتْ مَا فِي جَوْفِهَا مِنْ نَارٍ وَبُخَارٍ، وَدَعَعْتُ أَنَا أَخَاهَا وَتَهَالَكْتُ عَلَى الْمَقْعَدِ الْوَثِيرِ وَهِيَ تُتَمِّتُ قَائِلَةً: «إِنْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمَائِهِ».

وَدَنْتُ مِنَ النَّافِذَةِ، وَجَعَلْتُ تُلَوِّحُ لِشَقِيْقِيهَا مُودَّعَةً، ثُمَّ عَادْتُ تُخَاطِبُ نَفْسَهَا وَتَقُولُ: «أَلْفَ شُكْرِ لِلَّهِ، سَأَرَى غَدًا «سِيرْج» وَ«أَلِيكْسِيْسَ كَارِنِين» وَسَتَعُودُ حَيَاتِي إِلَى مَجْرَاهَا الطَّبِيعِيِّ، فَتُوضَعُ الْأُمُورُ فِي نِصَابِهَا، وَيَسْتَرِيحُ الضَّمِيرُ، وَتَقْرَأُ الْعَيْنُ».

وَمَا لَبِثْتُ أَنْ فَتَحَتْ حَقِيْبَةَ السَّفَرِ الْحَمْرَاءَ، وَتَنَاوَلْتُ مِنْ دَاخِلِهَا وَسَادَةً نَاعِمَةً صَغِيرَةً وَضَعْتَهَا عَلَى رُكْبَتَيْهَا، وَغِطَاءً دَثَّرْتُ بِهِ قَدَمَيْهَا.

وَإِلَى جَانِبِهَا كَانَتْ امْرَأَةٌ كَسِيْحَةٌ تَعِطُّ فِي نَوْمِهَا، بَيْنَمَا أَخَذَتِ امْرَأَتَانِ أُخْرَيَانِ تَتَجَادَبَانِ

أطراف الحديث.

وما لبثت المرأتان المتقدمتان في السن أن وجَّهتا الحديث إلى أنا، وشرعنا بتدبيان ملاحظتهما عن نظام التدفئة في القطار... وقد أجابتهما أنا باقضياب.

ولما أيقنت أن حديثهما لا يُثير انتباهها بل يُسبب ضجرها، أخرجت من حقيبتها كتابًا إنكليزيًا ومقطعًا للورق، ثم طلبت من خادمتها أن تُنير المصباح وتعلقه وراء ظهرها.

ولم تستطع في أول الأمر أن تسترسل في القراءة. فقد كانت الضجة واللغط شديدين لدرجة تعذر معها على أنا أن تركز أفكارها في المعاني.

وانساب القطار في سيره السريع، فاستحوذ على انتباهها ندف الثلج المتلاطم بزجاج النافذة، ثم استرعى نظرها الحرس بيزرهم العسكرية... وأنصتت أخيرًا لما كان يُقال عن العاصفة الثلجية الهوجاء التي كانت تزأر غضبي في الخارج.

ومضى الوقت وأنا لا تقرأ، والأسباب التي تُبعد بينها وبين الكتاب واحدة لا تتبدل.

وعزمت في النهاية على ما عجزت عنه طويلاً، فأقبلت على الكتاب تتصفحُه، ففهمت كلامه ولكنها كانت تطالعُ كارهه، وتحاول أن تفهم كارهه أيضًا! ولم تجد ما يُحبب إليها تتبع انعكاسات حياة غيرها على الورق بينما تجيش الرغبة في صدرها إلى الحياة، إلى الحياة الكاملة المُفعمة بمعاني الحياة ومباهجها!

فهي حينما قرأت أن بطله القصة كانت تُمرض رجلاً سقيمًا، ودت لو كانت تتحركُ بهدوء في غرفة رجلٍ برحت به العلة. وهي حينما قرأت عن عضو في البرلمان يلقي خطبةً مُستفيضةً، هفت نفسها إلى الإقدياء به في إلقاء الخطبة. وهي حينما قرأت عن عادة أذهلت الناس بجرأتها، حيل إليها أنها هي نفسها تلك الحسناء الجسورة...

ولكنها لا تفعل شيئًا، ولن تسنح لها فرصة للقيام بأي عملٍ.

ووضعت المقطع الصغير جانبًا وقسرت نفسها ثانية على تتبع الكلام.

على أنها لم تفهم المعنى، ولا فهمت المبنى، ورأت نفسها مسوقة إلى التكبير بموسكو، وبالحفلة الباهرة، وبفرونسكي.

وشاهدت الشاب الوسيم، وأبصرت عينيه... ولمحت في تينك العينين المنهومتين دعوةً

وتوسلاً واستعطافاً!

وأطرقت والعرق البارد يتفصد به جبينها. وعجبت وتولاها الدهول. أتخجل؟ ولم تخجل؟ وممّ تخجل؟ هل أنت نُكراً؟ هل تعثرت بها القدم؟

كلا، كلا... ومع ذلك، فما فتئت، على الرغم من أنفها، تشعر بأنها أتت أمراً إذا^(١) يستوجب الخجل، ويقتضي الشعور بالاضطراب والبلبلة.

وألحّ عليها هذا الشعور حتى فقدت معه كل صبر التمسّته من الإرادة، وأنشأت أخيراً تحاور نفسها حتى تُقنعها: «ماذا ذهاني؟ وهل أنا صريعة الوهم؟ ولم أخشى الواقع؟ هل أخاف منه؟ وما معنى الشعور بتأنيب الضمير؟ هل زللت حتى أعرّض لما يشق عليّ؟ ثم، أجرى بيّني وبينه أمر ما؟ وهل يُمكن أن يجري؟ كلا... كلا...».

وأضاءت فمها بسمه استخفاف، وهزّت رأسها كأنها تنفض من ذهنها ما ألحّ عليها. وعادت إلى كتابها ثقلب صفحاته، وتحاول عبثاً أن تقرأ كلماته.

وأحسّت فجأة أنه يجب عليه، هو الآخر، أن يخجل من نفسه.

لكنها عادت تتساءل عن السبب، وهل فعل ما يوجب الخجل؟ وهل اُفتَرَفَ ذنباً، أو أتى مُنكراً؟

وهزّت رأسها بانفعالٍ وغيظٍ وألقت الكتاب من يدها...

وتوقّف القطر فنهضت أنا وأشارت إلى خادميتها أن تناولها قُبعتها ومغطفها، وهمّت بالباب ففتحتُه وهي تقول: «أريد أن أسنشق الهواء الطلق، فالهواء كريمة في الداخل، وهو مُشبع بالروائح».

وهبّ الهواء البارد من الخارج فنفتح وجهها، واستقبلها ندف الثلج فانتثر على قُبعتها ومغطفها... وتعاركت قليلاً مع العاصفة وهي تخرُج، وسرّتها المعركة، فاندفعت غير آبهة لبرد أو مُكترية بريح.

وصفرت الريح كأنها تُنذرُها بغيظها، لكنّها لم تُعبأ بها، بل طَفقت تمشي على

(١) إذا: فظيماً.

الإفريز^(١)، وتَسْتَشِقُّ الهَوَاءَ البَارِدَ مِلءَ رِثْيَها .

وكانَ الرِّجَالُ يُهْزِلُونَ في حَرَكةٍ سَريعةٍ دائِيةٍ، وَهُمُ يَبَادِلُونَ الحَدِيثَ وَيَضْحَكُونَ .
وَرَجَعَتْ بَعْدَ دَقَائِقَ إلى المَرْكَبَةِ فَوَضَعَتْ قَدَمَها على دَرَجَتِها وَهَمَّتْ بالصُّعُودِ، لَكِنَّ رَجُلًا
يَزِيدِي مِغْطَفًا عَسْكَرِيًّا مَرَّ في تِلْكَ الفِئَةِ تَحْتَ مِصْبَاحِ الإفريزِ، فَرَمَتْهُ بِنَظْرَةٍ مُتَفَرِّسةٍ، وَأَيَّقَنْتْ
والدَّهْشَةَ تَعْقِلُ لِسانِها أَنَّهُ فِرونسكي .

ومالَ الفَتَى نَحَوا رافِعًا بِيدِهِ فُجِعَتْهُ عن رَأْسِهِ، وَقَالَ وَهُوَ يَنْحَنِي: «هل هُنَاكَ ما أَشْتَطِيعُ
أداءَهُ لَكَ يا سَيِّدَتِي؟»

فَرَنْتَ إليه طَوِيلًا؛ وَخُيِّلَ إليها، على الرِّغْمِ مِنَ الظُّلْمَةِ المُحِقِّقةِ بها، أَنَّها تَتَبَيَّنُ جِدًّا
نَظْرَةَ عَيْنِيهِ، وَتَعْبِيرَ وَجْهِهِ . وَكانَتْ تِلْكَ النَظْرَةُ تَتَحَدَّثُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِها عن حُبِّ وَهُيامِهِ، بل
عن تَقْدِيسِهِ لها! وَكانَتْ قَسَماتُهُ وَأَمازُؤُهُ تَشِي كُلُّها بِخُصُوعِهِ التَّامِّ وَتَسْلِيهِهِ المُطْلَقِ!

ما أَكْثَرَ المَرَّاتِ الَّتِي أَكَدَّتْ فيها لِنَفْسِها أَنَّ ما بَيْنَها وَبَيْنَ فِرونسكي لا يَتَعَدَّى ما بَيْنَها
وَبَيْنَ سائِرِ الرِّجالِ الَّذِينَ تَعْرِفُ، وَأَنَّها لَنْ تَسْمَحَ لِنَفْسِها أَبَدًا أَنْ تَشْغَلَ رَأْسَها بِالتَّفْكيرِ
فيهِ... إِلاَّ أَنَّها ما كادَتْ تَلْمَحُهُ الآنَ حَتَّى دَهَمَها شُعُورٌ عارِمٌ بِالمَسْرَةِ والغِبطَةِ . ولم تَكُنْ
في حاجَةٍ لِتَسْأَلَ عن سَبَبِ مَجِيئِهِ، فَهِيَ واثِقَةٌ مِنْ أَنَّهُ شَعَرَ بِوُجُوبِ الدَّهابِ إلى حَيْثُ
تَذْهَبُ هِيَ .

وما عَتَمَتْ أَنْ قالَتْ وَهِيَ تُقْطَبُ: «لِمَ أَعْلَمُ أَنَّكَ مُسافِرٌ كَذَلِكَ، فِلمَ جِئْتَ؟ وماذا
جَعَلَكَ تُعادِرُ موسكو؟»

وَبَرَّقَتِ السَّعادَةُ في عَيْنِها كَوَاضِعَةٍ مِنْ نارٍ، وَشَعَّ وَجْهُها حَتَّى لَكَانَ هالَةً مِنْ هِنائِ تَتَكَوَّنُ
حَوَلَهُ .

وَأجابَ الفَتَى بِجأشٍ رابِطٍ: «تَسأَلِينِي عَنِ السَّبَبِ؟ أَمَّا تَعَلِّمِينَ أَنِّي جِئْتُ لِكَيِ الأِزْمَكِ؟
أَمَّا تَدْرِينَ أَنْ لا حِيلةَ لي في ذَلِكَ؟»

وَزأرَتِ الرِّيحُ، وَتَساقَطَتْ دُفْعَةً عَظيمةً مِنَ التَّلْجِ، وَأزْدَفَ هُوَ يَقُولُ بِصَوْتِ مَهْمُوسٍ
ذَلِيلٍ: «إِضْغَحي عَنِّي، وَلا تَغْضَبِي لِقَوْلِي، فِما قُلْتُ إِلاَّ الصِّدْقُ!»

(١) الإفريز: الرِّصيف .

لقد تكلّم بمذلة العاشق، ولكنّ صوته كان يحمل في طبّايه الكثير من العناد والإصرار، بل المزيد من العزم.

وقالت أخيراً وهي تُقاوم معركةً نشبت في داخلها: «هذا خطأ، لقد أخطأت كثيراً، وأزجرك، بل أضرعُ إليك أن تنسى ما قلت كما أنني سأنساه أنا».

قال: «دون هذا خرط القتاد، ولن أنسى، لن أنسى ولو حاولت النسيان. كل كلمة نطق بها فمك، وكل نظرة رمتها عيناك، قد حُفرا حفراً في عقلي وقلبي!»

فهتفت بصوتٍ مُتهدّج: «كفى... كفى...».

وحاولت عبثاً أن تُكسب وجهها، الذي كان يرمقه بشغفٍ وحبٍّ، مظهر الغضب والتبرّم.

وما أبطأت بعدما أخفقت في محاولتها أن قفزت إلى داخل العربة. ولكنّها ما كادت قد نَفَسها وحيدة في الممرّ حتى تريتت تُفكر بما وقع لها الآن... ومع أنّها لم تتدكّر ما قاله وما قالت، أيقنت أنّ هذه المُقابلة العابرة قد أدنت أحدهما من الآخر لدرجةٍ مُخيفة؛ فلهفت نفسها، لكنّها فرحت وتولّتها مسرّة!

ودلّقت إلى مقصورتها ونهالتكث على المقعد، وهي نُهبَةٌ لمشاعرٍ شتى وخَلجاتٍ كثيرة. وقضت ساعات الليل بطولها ساهرة لا يغمض لها جفن. ولكن، في كل ما مرّ عليها في تلك الليلة، لم يكن هناك شيءٌ مُزعج أو مُفزع، بل كانت أفكارها شبيهةً بأحلام حلوةٍ عذبة، وكأنّ الدنيا كانت تتمخض لها عن سعادةٍ لم تسبُر لها غوراً من قبل.

وفي ساعة الصبح الباكر غلبها الكرى على أمرها، فاستسلمت للوسن^(١)، ولم تستيقظ إلا والقطار يُسرف على أرياضٍ بطرسبرج.

ووصل القطار أخيراً إلى المحطة، ولما دنا منها زوجهها، رمقته بنظرةٍ فاجصة، ورأث أذنيه، وكأنّها تراهما لأول مرّة في حياتها، وتساءلت متعجبةً عن سبب بروز هاتين الأذنين، وصرامة هذا الوجه، وافتقار زوجته إلى الوسامة والقسامة والجادب!

وعاجلها زوجها بالتجديّة وهو يتبسّم ابسامةً الساحرة التقليدية، ويحدجها بنظرةٍ متفرسةٍ متأمّلة.

(١) الوسن: شدة الثعاس.

وقد شعرت على التو بشيء يضغط على فؤادها، وامتعصت، وكأنها كانت تتوقع أن ترى شيئاً آخر، أن تراه في شكلي آخر وأن تلقاه بعاطفة أخرى...

وكان هذا شعورها الملازم لها كلما اجتمعت إلى زوجها، إلا أنها لم تعرف كنهه قبل اليوم، أو على الأصح لم تحُدس حقيقته إلا بعد اتصالها بفرونسكي!
وقال الرجل: «أجل، ها أنذا زوجك المخلص الأمين، آتي بنفسي وكلي شوق إلى استقبالك!»

ولم يخل صوته من لهجة التهكم التي تعهد بها فيه، وإن كانت تُعبر تماماً عن صراحته ومشاعره الصادقة...

وقالت: «وسيرج؟ أهو في صحة جيدة؟»

قال: «وهل هذه مكافأتك لي على شوقي؟ إنه في أحسن حال».

أما فرونسكي فلم يحاول أن ينام في تلك الليلة. وقد لزم مفعده وهو يرقب كل حركة. كان بشخصيته القوية يؤثر في الناس بطبيعته التي توحى بالصرامة وعدم التردد، أما ما انطبع على أساريه^(١) الليلة فهو العزم والإصرار. وقد جعل ينظر إلى الناس كأنهم أشياء. وشعر نحوه بالكراهية موظف صغير كان يجلس قبالة، وكان مبعث كرهه نظرته المتحدية المحتقرة. وطلب منه الموظف نازاً، ثم حاول أن يجاذبه أطراف الحديث. وتعمد أخيراً أن يميل عليه حتى يشعره بأنه ليس مجرد شيء بل إنسان مثله.

بيد أن فرونسكي نظر إليه كما ينظر إلى المصباح، فتحهم وجه الفتى، وشعر بأنه بدأ يفقد يقته بنفسه تحت وطأة هذه النظرات التي تأتي أن تعترف به لإنسان.

لم يبيصر فرونسكي شيئاً، ولم يبيصر أي إنسان. وشعر أنه ملك، ليس لظنه أنه استرعى انتباهه وأنا وأثر فيها، فهو لم يؤمن بهذا بعد، بل لأن التأثير الذي أحدثته أنا في قلبه وشعوره سبب له السعادة والإعزاز وكثيراً من الاعتداد.

وتراءى له أن قواه التي كانت في الماضي موزعة مبددة مشتتة، قد تآلفت الآن وتجمعت، واتجهت إلى ناحية واحدة، إلى هدف فرد. وقد سره ذلك، وعلم فقط أنه

(١) أساري: حُطوط في الجبهة.

صَدَقَهَا الْحَبْرَ، وَأَنَّهُ جَاءَ إِلَى حَيْثُ تُقِيمُ، وَأَنَّ مَعَانِي حَيَاتِهِ، وَسَعَادَتِهِ، وَمَسْرَرَتِهِ، تَتَوَقَّفُ جَمِيعًا عَلَى اسْتِجْلَاءِ طَلْعَتِهَا وَإِلِضْغَاءِ إِلَى نَبْرَتِهَا.

ولم يُخْفِ عَنْهَا الْحَقِيقَةَ سَاعَةَ الْقَاهَا لَدَى مَخْرَجِ عَرَبِيَةِ الْقِطَارِ، بَلْ جَهَرَ بِمَا يَكُنُّ لَهَا فِي صَدْرِهِ... وَسَرَّهُ ذَلِكَ، سَرَّهُ يَقِينُهُ بِأَنَّهَا مُحِيطَةٌ بِمَا يَضُمُّ لَهَا بَيْنَ جَوَانِحِهِ.

وَوَصَلَ الْقِطَارُ إِلَى بَطْرَسِرْجِ فَرَجَلٍ مِنْهُ وَهُوَ يَشْعُرُ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَرْقِهِ وَتَسْهُدِهِ، بِالْقُوَّةِ وَالنَّشَاطِ. وَوَقَفَ فِي مَكَانٍ يَرْقُبُ نُزُولَهَا وَهُوَ يُمَنِّي نَفْسَهُ بِرُؤْيَيْهَا وَسَمَاعِ صَوْتِهَا. وَلَكِنَّهُ قَبْلَ أَنْ يُبْصِرَ بِهَا، وَقَعَ طَرْفُهُ عَلَى زَوْجِهَا الَّذِي كَانَ يَمْشِي مَرْفُوعِ الرَّأْسِ يَتَّبِعُهُ نَاطِرُ الْمَحْطَةِ.

فِي تِلْكَ الْفَيْتَةِ فَقَطْ تَذَكَّرَ فَرُونْسْكِ أَنَّ هُنَاكَ إِنْسَانًا مُتَّصِلًا بِهَا اتِّصَالًا وَشَيْجًا، وَأَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ هُوَ زَوْجُهَا.

زَوْجُهَا!... كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ لَهَا قَرِينًا، لَكِنَّهُ أَتَكَرَّ وَجُودَهُ وَلَمْ يَعْرِفْ بِهِ. وَرَأَهُ الْآنَ، وَرَأَى رَأْسَهُ الْمَرْفُوعَ، وَمَنْجَبِيَّهُ، وَسِرْوَالَهُ الْأَسْوَدَ الضَّيِّقَ... وَرَأَى يَدَهُ تَمْتَدُّ إِلَيْهَا وَتَقْبِضُ عَلَى ذِرَاعِهَا بِثِقَةٍ، كَمَا يُمَسِّكُ الْإِنْسَانُ مَتَاعًا لَهُ يَمْلِكُهُ مِنْ دُونِ سِوَاهُ.

وَشَعَرَ بِمِثْلِ مَا يَشْعُرُ بِهِ رَجُلٌ بَرَّحَ بِهِ الظَّمَا، وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَتَهَلٍ عَلِمَ أَنَّ كَلْبًا قَدْ وَلَعَ فِيهِ، وَلَوَّثَ مَاءَهُ!

وَاضْطَرَبَ فَرُونْسْكِ اضْطِرَابَ الْأَشْمِثْرَازِ حِينَ رَأَى كَارْنِينَ بِقَدَمَيْهِ الضَّخْمَتَيْنِ وَيَدَيْهِ الْمُهْتَزَّتَيْنِ. أَمَا هِيَ، فَكَعْهَدِهِ بِهَا جَمِيلَةٌ فَاتِنَةٌ، وَمَنْظَرُهَا يُبِيرُهُ وَيَهْيِجُهُ وَيَمْلَأُ رُوحَهُ أَمَلًا وَيَأْسًا، أَجَلَ أَمَلًا وَيَأْسًا!

وَإِنَّهُ لَيْسَتْ عَرَضُ بِنَاطِرِيهِ وَجْهَ أَنَا وَهِيَ تَتَحَدَّثُ إِلَى زَوْجِهَا، وَيَتَّبِعُ خِلْسَةً الْإِنْطِبَاعَاتِ الْمُخْتَلِفَةَ عَلَى أَمَايِرِهَا الدَّقِيقَةِ، إِذْ شَعَرَ بَعْتَهُ بِالثَّقُورِ الشَّدِيدِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الدَّخِيلِ! أَلَيْسَ هُوَ بِالْدَّخِيلِ؟ أَلَا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ الَّتِي غَزَتْ قَلْبَهُ فِي لَحْظَةٍ خَاطِفَةٍ؟!

وَبَدَأَ لَهُ مِمَّا رَأَهُ أَنَّ أَنَا بَعِيدَةٌ كُلَّ الْبُعْدِ عَنْ زَوْجِهَا بِمَشَاعِرِهَا وَأَفْكَارِهَا، وَأَنَّهَا تَعِيشُ فِي مَنَائِ عَنَتِهِ لَا يَصِلُهَا بِهِ إِلَّا رَابِطَةُ الزَّوْجِيَّةِ، أَمَا الْعَاطِفَةُ فَلَيْسَ لَهَا فِي قَلْبِهَا وَجُودٌ.

فَهِيَ لَا تُحِبُّهُ، وَهِيَ لَنْ تُحِبَّهُ أَبَدًا.

وَسَرَّهُ هَذَا الْإِكْتِشَافَ فَتَقَدَّمَ نَحْوَهُمَا بَطِينًا مُتَّدًّا. وَأَيَقِنَ، وَنَفْسُهُ جَدَلِي، أَنَّهَا شَعَرَتْ بِهِ.

يَدْنُو مِنْهَا، فَتَمَلَّمْتُ فِي مَكَانِهَا، وَكَأَنَّهَا تَوَدُّ أَنْ تَلْتَفِتَ، وَلَكِنْ لَا تَجْرَأُ. وَوَأَصَلْتُ حَدِيثَهَا مَعَ زَوْجِهَا، وَانْتَظَرْتُ. أَجَلٌ، هَذَا مَا أَتَقَنَّ بِهِ... إِنْتَظَرْتُ.

وَقَالَ وَهُوَ يَنْحَنِي مُسَلِّمًا بِاخْتِرَامٍ: «عَسَى أَنْ تَكُونِي قَدْ قَضَيْتِ لَيْلَةَ مُرِيحَةٍ فِي الْقِطَارِ يَا سَيِّدَتِي؟»

وَعَضَّتِ الْفَاتِنَةُ مِنْ عَيْنَيْهَا قَلِيلًا، ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا... فَلَمْ يَرَ فِي أَسَارِيرِهَا مَا رَأَهُ قَبْلًا مِنْ نَظَرَاتِ الدُّعَابَةِ وَالْمُزَاحِ، بَلْ شَاهَدَ عِرْضًا مِنْ ذَلِكَ، شِعْلَةً عَجِيبَةً تَضْطَرِّمُ بِهَا عَيْنَاهَا لَحْظَةً خَاطِئَةً، وَلَكِنَّهَا كَافِيَةٌ، بَلْ فِيهَا مَا يَفُوقُ كُلَّ تَعْرِ وَنَظْمٍ، فِيهَا آيَةُ الْحُبِّ الْكُبْرَى، وَشِعْلَتُهُ الْخَالِدَةُ الَّتِي لَا تَحْمَدُ وَلَا تَنْطَفِئُ.

وَالْتَفَتَ الزَّوْجُ إِلَى فِرُونْسْكِ، وَلَمَعَتْ عَيْنَاهُ كَمَنْ يَتَلَهَّبُ غَيْظُهُ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ شَزْرًا^(١)، وَجَعَلَ يَقْدَحُ زِنَادَ ذَاكِرْتِهِ لَعَلَّهُ يَحْدُسُ مَنْ يَكُونُ هَذَا مِنَ النَّاسِ.

لَقَدْ تَلَاقَى فِي تِلْكَ الْفَيْئَةِ يَدَانِ^(٢) مُتَكَافِئَانِ، وَقَرْنَانِ مُتَعَادِلَانِ. وَاصْطَدَمَتْ إِرَادَةُ هَذَا بِإِرَادَةِ ذَاكَ، فَتَفَرَّ هَذَا مِنْ ذَاكَ. لَكِنَّ أَنَا سَارَعْتُ تَقُولُ وَهِيَ تُحَاوِلُ أَنْ تُتَقَدَّ الْمَوْقِفَ: «ذَرْنِي يَا عَزِيزِي أَقْدِمْ لَكَ الْكُونَتَ فِرُونْسْكِ...».

فَقَاطَعَهَا زَوْجُهَا بِرُودٍ وَهُوَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى فِرُونْسْكِ: «يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنِّي أَعْرِفُكَ، أَمَا تَقَابَلْنَا مِنْ قَبْلُ؟» وَاسْتَدَارَ إِلَى زَوْجِهِ، وَأَزْدَفَ بِاللَّهْجَةِ نَفْسِهَا: «لَقَدْ ازْتَحَلْتِ مَعَ الْأُمِّ وَعُدْتِ مَعَ الْإِبْنِ كَمَا أَرَى...».

وَلَمْ يَفْتُهَا الْمَعْنَى الَّذِي رَمَى إِلَيْهِ زَوْجُهَا، لَكِنَّهَا تَغَاضَتْ مُتَجَلِّدَةً، وَلَمْ تُقَلِّ كَلِمَةً. وَمَضَى زَوْجُهَا يَقُولُ وَهُوَ يَنْشِي إِلَى فِرُونْسْكِ: «أَلَمْ يَبْقَ لَكَ مَأْرَبٌ فِي مُوسْكَو حَتَّى رَجَعْتَ، أَمْ إِنَّكَ قَادِمٌ فِي إِجَازَةٍ؟»

وَعَجَّلَ يُخَاطِبُ زَوْجَهُ: «مَا أَضْعَبَ الْفِرَاقَ يَا عَزِيزَتِي! أَلَمْ تَذْرِفِي الدَّمُوعَ سَاعَةَ غَاذَرْتِ مُوسْكَو؟»

وَكَانَ يَقْصِدُ مِنْ كَلِمَاتِهِ أَنْ يُنَبِّهَ فِرُونْسْكِ إِلَى رَغْبَتِهِ فِي التَّمَرُّدِ بِزَوْجِهِ. بَيِّنَدُ أَنَّ الشَّابَّ

(١) نَظَرَ إِلَيْهِ شَزْرًا: نَظَرَ إِلَيْهِ بِجَانِبِ عَيْنِهِ مُعْرِضًا عَنْهُ.

(٢) النَّدَانِ: النَّطْرَانِ، الْمُتَمَايِلَانِ.

تَجَاهَلَ الْغَايَةَ وَضَرَبَ صَفْحًا عَنِ الْمَرْمَى، وَقَالَ: «لَشَدَّ مَا أَتَلَّهْتُ إِلَى زِيَارَتِكُمْ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ يَا سَيِّدَتِي!»

فَحَدَجَهُ كَارْنِينُ بَعَيْنِ اللَّائِمِ الْمُتَبَرِّمِ، وَقَالَ: «ثِقْ أَنْ زِيَارَتَكَ تَجْلِبُ لَنَا الْمَسْرَةَ يَا سَيِّدِي، وَنَحْنُ نَمُكُّ فِي الْبَيْتِ دَائِمًا يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ».

وَاسْتَدَارَ كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُشْعِرَهُ بِأَنَّهُ لَا يَزْعَبُ فِي مُتَابَعَةِ الْحَوَارِ، ثُمَّ تَأَبَّطَ ذِرَاعَ زَوْجِهِ وَقَالَ: «أَكْثَرَ مَا يُسْعِدُنِي يَا عَزِيزَتِي انْتِهَابُ دَقَائِقَ مِنْ وَقْتِي لِأَرَاكِ فِيهَا، وَأَمَلِّي طَرْفِي فِي حُسْنِكَ، وَأَمْتَعْ نَفْسِي بِالْإِضْغَاءِ إِلَى كَلِمَاتِكَ».

فَقَالَتْ مَارِحَةَ: «لَا تُبَالِغْ فِي وَضْفِ إِخْلَاصِكَ، فَأَنَا لَا أَقْدِرُ الْأُمُورَ بِمَا تَسْتَحِقُّهَا!» وَأَنْصَتَتْ مِنْ دُونِ انْتِبَاهٍ إِلَى خُطُوبَاتِ فَرُونَسْكِ الْمُتَبَعِدَةِ، وَشَعَرَتْ أَنَّ قَلْبَهَا يُرَافِقُهُ، وَأَنَّ رَوْحَهَا عَصَتْ جَسَدَهَا، وَعَصَتْ عَقْلَهَا، وَانْتَزَعَتْ فَرْعَهَا مِنْ جَذْرِهَا لِتَلْحَقَ بِرَوْحِهِ، وَتَضْحَبَ رَوْحَهُ، وَتُوَاكِبَ هَذِهِ الرُّوحَ الْحَبِيبَةَ.

إِنَّ لِشَبَابِهِ بُرْدًا قَشِيًّا^(١)، وَإِنَّ لِرِيَّاهُ^(٢) أَرْجَ الْعُضَنِ الرَّطِيبِ. وَلَكِنَّهَا اسْتَشْعَرَتْ النَّدَمَ، وَشَاءَتْ أَنْ تَتَدَارَكَ الْأَمْرَ، فَسَأَلَتْ زَوْجَهَا عَنِ وِلْدَانِهَا «سِيرَج»، وَعَنِ صِحَّتِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ.

فَمَا كَانَ مِنَ الرَّجُلِ الرَّصِينِ إِلَّا أَنْ أَجَابَهَا مُبْتَسِمًا: «رَوْتُ لِي الْحَاضِنَةَ مَارِيئًا أَنَّهُ لَمْ يُفْرِطْ قَطُّ فِي الْمَرَحِ وَالشُّرُورِ كَمَا أَفْرَطَ فِي أَثْنَاءِ غِيَابِكَ، وَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ زَوْجَكَ هُوَ الْوَحِيدُ الَّذِي افْتَقَدَكَ».

فَقَرَّرَتْ أَنَا ضَاحِكَةً، وَاسْتَتَلَى هُوَ يَقُولُ: «وَمِمَّةَ إِنْسَانٍ آخَرَ كَانَ لَا يَفْتَأُ يَسْأَلُ عَنْكَ، وَكَأَنَّهُ يَتَعَجَّلُ أَوْبَتِكَ، وَهَذَا الشَّخْصُ هُوَ صَدِيقَتُكَ «الْكُونْتِسْ لِيديَا إِيْفَانُونَا».

وَصَمَّتْ فَيْتَهُ، ثُمَّ أَرْدَفَ كَمَنْ يَتَذَكَّرُ شَيْئًا غَابَ عَنْهُ: «وَهَلْ صَادَفَكَ التَّوْفِيقُ فِي مُهِمَّتِكَ؟ هَلْ نَجَحَتْ حَيْثُ أَخْفَقَ غَيْرُكَ؟»

فَلَاحَ الْبِشْرُ عَلَى مُحَيَّاها وَأَجَابَتْ: «كُلُّ التَّوْفِيقِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ. لَقَدْ كَانَ الْخِصَامُ عَلَى أَشَدِّهِ بَيْنَ أُوْبِلِنْسْكِ وَزَوْجِهِ، وَلَوْلَا وُجُودِي لِأَنْفَصَلَ الْإِثْنَانِ وَتَصَدَّعَ الْبُنْيَانُ وَتَشَتَّتِ الْأُسْرَةُ».

(١) قَشِيًّا: جَدِيدًا نَظْفِيًّا.

(٢) رِيَّاهُ: رَائِحَتُهُ الطَّيِّبَةُ.

وَطَفِقَتْ تَقْصُّ عَلَيْهِ بِالتَّفْصِيلِ دَقَائِقَ رِحْلَتِهَا بِرِفْقَةِ الكونتس فرونسكي إلى موسكو، وما شَاهَدَتْهُ مِنْ حَادِثٍ مُرَوِّعٍ فِي المَحْطَّةِ.

وقالَ زَوْجُهَا بَعْدَ انْتِهَائِهَا مِنْ سَرْدِهَا: «إِنِّي وَأَيْمُ الحَقِّ لَا أَجِدُ مَا أَعْلَلُّ بِهِ جُنُوحَ أَخِيكَ سِوَى مِيلِهِ إِلَى المُنْتَعَةِ المَحْرَمَةِ، وَاللَّذَّةِ المُبْتَدَلَةِ الَّتِي لَا يَسْتَسِيغُهَا كُلُّ ذِي حِصَافَةٍ وَإِرَادَةٍ».

فَرَنْتُ إِلَيْهِ أَنَا مُبْتَسِمَةً مُتَّفَكِّرَةً. إِنَّهُ كَعَهْدِهَا بِهِ صَارِمٌ فِي نَظَرْتِهِ وَتَفْكِيرِهِ، عَنِيدٌ فِي مَبْدِئِهِ، لَا يُطِيقُ الإِنْجِرَافَ، وَلَا يَخْشَى مِنْ قَوْلِ الحَقِّ، وَلَوْ كَانَ ضِدًّا أَقْرَبِ المُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ، بَلْ لَوْ كَانَ ضِدَّهُ هُوَ بِالذَّاتِ. وَكَانَتْ أَنَا تُكْبِرُ فِيهِ هَذِهِ العَادَةُ؛ كَانَتْ تَثِقُ بِهِ وَتَحْتَرِمُهُ لِخُلُقِهِ وَطَبْعِهِ. فَهَوَ لَا تَرَوْقُهُ المَبَاذِلُ الَّتِي يَنْعَمُسُ فِيهَا سِوَاهُ مِنَ الرِّجَالِ، وَهُوَ يَأْنَفُ مِنْ مُصَادَقَةِ أَيِّ كَانَ، مَتَى ارْتَابَ فِي أَمْرِهِ وَتَوَايَاهُ.

وقالَ الرَّجُلُ: «عَلَى أَنِّي مَسْرُورٌ لِنَجَاحِكَ فِي إِزَالَةِ العِمَامَةِ الَّتِي ظَلَلْتُ سَمَاءَ العَائِلَةِ».

إِنَّ شُعَاعَ الرَّجُلِ يَدُلُّ عَلَى شَمْسِيهِ، وَإِنَّ هُدُوءَهُ فِي القَوْلِ وَالتَّفْكِيرِ لَأَبْلَغُ دَلِيلٍ عَلَى رِجَاحَتِهِ وَاتِّزَانِهِ... وَقَدْ خَجِلْتُ أَنَا سَاعَةً انْتَنَى يَقُولُ بَعْتَهُ: «أَخْبِرْنِي يَا عَزِيزَتِي عَنْ مَوْقِفِ الأَهْلِينَ فِي مُوسْكَو حِيَالِ التَّجْنِيدِ الإِجْبَارِيِّ الَّذِي أَنْزَلْتُمْ مَوْضوعَهُ أَحْيَرًا فِي الحُكُومَةِ».

أَجَلٌ، خَجِلْتُ أَنَا لِأَنَّهَا أَهْمَلْتُ شَأْنَ زَوْجِهَا، فَلَمْ تُفَكِّرْ فِيهِ دَقِيقَةً، وَلَمْ تُحَاوِلْ سَبْرَ آرَاءِ النَّاسِ فِي مَا يَعْنِي زَوْجُهَا مِنْ أُمُورِ السِّيَاسَةِ. بَيِّدَ أَنَّهَا، وَقَدْ كَانَتْ تَعْرِفُ فِي زَوْجِهَا مَيْلَهُ إِلَى الإِطْرَاءِ وَالثَّنَاءِ، طَفِقَتْ تَسْأَلُهُ بِحَمِيَّةٍ وَحَمَاسَةٍ عَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ مَشْرُوعُهُ، وَعَنِ المَرَاجِلِ الَّتِي مَرَّ فِيهَا، وَيَنْتَظِرُ أَنْ يَمُرَّ فِيهَا فِي أَثْنَاءِ الأَيَّامِ المُقْبِلَةِ.

وَسُرَّ كَارْنِينُ لِإِقْبَالِ زَوْجِهِ عَلَيْهِ وَإِظْهَارِهَا كُلِّ هَذِهِ الحَمَاسَةِ، فَأَجَابَ: «إِنَّ مَشْرُوعِي يَا عَزِيزَتِي، وَليدُ تَفْكِيرٍ وَإِعْدَادِ طَوِيلَيْنِ، لِهُذَا لَمْ يَدْهَشْنِي مَا لَقِيْتُهُ مِنْ مُعَارَضَةٍ وَتَأْيِيدٍ. وَإِنَّ المُعَارَضَةَ وَالتَّايِيدَ لَيَدُلَّانِ عَلَى مَا انْتَهَى إِلَيْهِ أَمْرُ النَّاسِ مِنْ إِجْبَابِهِمْ عَلَى بَحْثِ الأُمُورِ مَلِيًّا وَوَزْنِهَا بِمِيزَانِ العَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ الحَسَنِ».

وَنَظَرَ إِلَى سَاعَتِهِ، وَأَرْدَفَ: «أَمَّا الآنَ فَأَنَا ذَاهِبٌ، يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى عَمَلِي، وَثَقِي أَنِّي جِدُّ مُعْتَبِرٌ لِعُودَتِكَ».

فَتَمَتَّتْ بِصَوْتِ خَافِتٍ: «لِثَرَاغِكَ السَّلَامَةَ يَا زَوْجِي!»

سلسلة المفيد

الجزء الأول	المفيد في الأدب العربي
الجزء الثاني	المفيد في الأدب العربي
الجزء الثالث (يصدر قريباً)	المفيد في الأدب العربي
الجزء الأول	المفيد في القواعد والبلاغة والعروض
الجزء الثاني (يصدر قريباً)	المفيد في القواعد والبلاغة والعروض
الجزء الثالث (يصدر قريباً)	المفيد في القواعد والبلاغة والعروض

الثقافة الأدبية العالمية

أنا كارنينا (لها دراسة تحليلية نقدية صدرت في كتيب مستقل)	تولستوي
آلام فرتر (يصدر قريباً)	غوته
دون كيخوت (يصدر قريباً)	سرفنتس
سلّة الفاكهة (يصدر قريباً)	طاغور

علي مولا

عالم المعرفة

عالم المعرفة

C1 رواية

S.P500



1 0 2 4 3 4